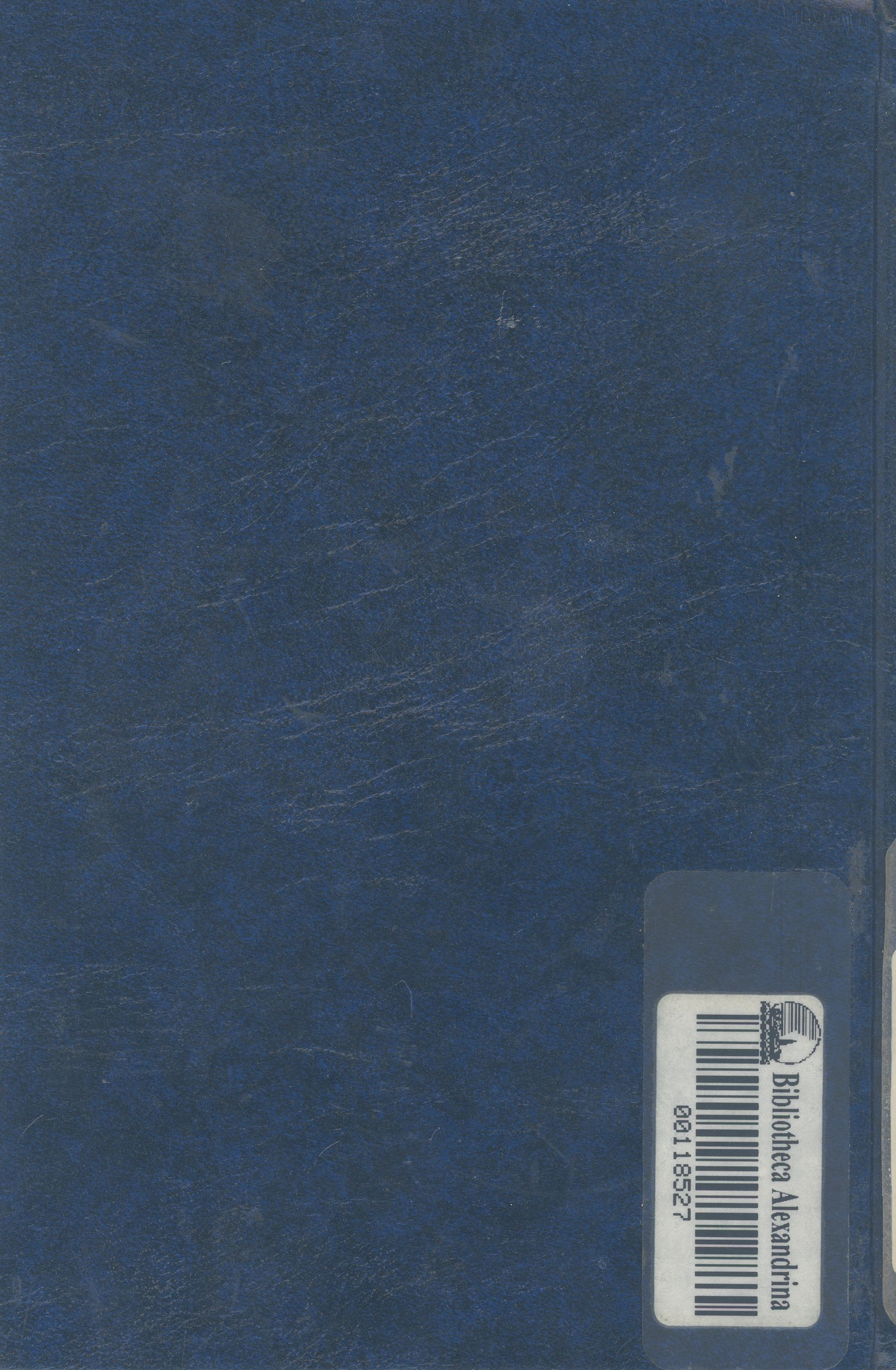




تأليف

محمد سيد كيلانى

ماجستير من كلية آداب جامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٩٦٢

الناشر

مكتبة الهلال بالفجالة

بالقاهرة

الأدب القبطي

قديما وحديثا

تاليف

محمد سيد كيلاني

ماجستير من كلية آداب جامعة القاهرة

المقدّمة

هذا أول كتاب عن الأدب القبطى يحتوى على دراسة مركزة للأدب المتعلق بالشئون القبطية ، والذى يصور حالة الأقباط النفسية ، وحركاتهم الاجتماعية ، وميولهم السياسية ، واتجاهاتهم الفكرية ، وخصوماتهم الطائفية ، ونزعاتهم العاطفية ، وأمانيهم الوطنية، ومشاعرهم القومية، وفخرهم بالأمجاد الفرعونية .

ولم أغفل دراسة آدابهم الدينية التى تزخر بآرائهم المسيحية ، وعقائدهم اللاهوتية دراسة أدبية خالصة بعيدة عن المناقشة والجدل . فليس هذا كتاب دين ، وإنما هو كتاب أدب .

ومن الغريب أن الأقباط المعاصرين يجهلون أدب أجدادهم جهلا تاماً . ولا يكاد المتعلمون منهم يحفظون شيئاً من شعر شعرائهم . وكان لهذا الجحود الذى لاقاه أدباء الأقباط من أبناء طائفتهم أثره فى نفوسهم ، فأهملوا نتاجهم الأدبى حتى عبثت به يد النسيان أو كادت ، فلم يهتموا بجمع شعرهم ونثرهم . وقد ترتب على هذا صعوبة كبرى تعترض سبيل الباحث فى الأدب القبطى . وصعوبة أكبر فى الوقوف على تراجم شعرائهم وكتابهم ، وتواريخ ميلادهم ووفاتهم .

وحينما درسنا الأدب المصرى العام أهملنا دراسة الأدب القبطى إهمالا تاماً . لذلك جاءت دراستنا ناقصة فضلا عما وقع فيها من خطأ فى الحكم ، وسوء فى الفهم ، وفساد فى الاستنتاج ، وبعد عن الصواب فى دراستنا لبعض الظواهر الأدبية . فنجد الكتاب حينما يعرضون لشعر أحمد شوقى ؛ ويلاحظون ورود كلمات مسيحية فيه مثل : الكنيسة ، والدير ، والصومعة ، والبيعة ، والرهبنة ،

والإنجيل ، والتوراة ، والمسيح ، والعذراء ، والبتول وغير ذلك ؛ يحكمون حكم الواثق المطمئن لما يقول ؛ بأن ورود هذه الكلمات فى شعر أحمد شوقى إنما هو أثر من آثار أصله اليونانى المسيحى . وهذا خطأ لا شك فيه . فأحمد شوقى كغيره من شعراء عصره اتخذ شعره وسيلة للدعوة إلى الاتحاد بين عنصرى الأمة ، ونبذ الخلاف الدينى . ولم ينفرد أحمد شوقى بهذه الظاهرة ، بل إننا نجدها عند عبد الرحمن شكرى ، وأحمد محرم ، وأحمد نسيم ، وغيرهم من شعراء المسلمين .

أما النقص فى دراسة أدبنا السياسى فواضح كل الوضوح ، لأن أدب الأكثرية الإسلامية كان يختلف اختلافاً تاماً قبل سنة ١٩١٩ عن أدب الأقلية القبطية ، كما يتبين ذلك مما جاء فى البابين الثالث والسادس من هذا الكتاب .

ولما فكرت فى الكتابة عن موضوع الأدب القبطى وضعت نصب عينى استهداف الحقائق التاريخية لذاتها ، وتسجيل المعارك الأدبية تسجيلا راعيت فيه الأمانة والدقة . ولم أدخر فى ذلك وسعاً ، بل بذلت ما فى استطاعتى لإعطاء القارىء صورة واضحة حقيقية للأدب القبطى .

وقد كان تناول هذا الموضوع من بعض نواحيه شائكا فيما مضى . وأما اليوم فقد تغيرت الأفكار ، وتثقفت العقول ، وتهذبت النفوس ، واستقرت العدالة الاجتماعية ومدت لواءها على جميع أبناء الأمة دون استثناء ، وأصبح الناس يعيشون فى ظل الإخاء والمساواة ؛ لا فرق بين مسلم وقبطى ، فالوطن للجميع . لذلك لم أجد بأساً فى تسجيل هذه الصور والخصومات الأدبية قياماً بواجبنا نحو التاريخ ، وللتاريخ علينا حقوق ينبغى ألا نتهاون فيها أو نتجاهلها. فعسى أن ينتفع القراء بهذا الكتاب ، والله الموفق للصواب .

القاهرة فى أول يناير سنة ١٩٦٢ — محمد سيد كيلانى

الباب الأول

الأدب القبطي

من بدء ظهوره إلى نهاية العصر العثماني

في سنة ٨٥ هـ = ٧٠٥ م صدر قرار بنقل الدواوين من اللغة القبطية إلى اللغة العربية . وبذلك أصبحت اللغة العربية اللغة الرسمية في المعاملات الحكومية. فأخذ الأقباط يهملون بالتدريج دراسة اللغتين اليونانية والقبطية ، ويقبلون على تعلم اللغة العربية ، ودراسة آدابها .

وقد بدأ الأقباط يؤلفون الكتب باللغة العربية في القرن الثالث الهجري . وفي هذا الوقت لم تكن حركة التأليف في مصر الإسلامية قد بدأت على نطاق واسع . بل إن الكتب التي وضعت في القرن الثالث لا تكاد تذكر .

وأول من ألف من الأقباط : سعيد بن بطريق المتطبب (٢٦١ — ٣٢٨ هـ) فوضع كتاباً اسمه « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » ويعرف بسير الآباء البطاركة ، وبتاريخ ابن بطريق . ولا شك في أن إقبال الأقباط على التأليف باللغة العربية في هذا الوقت يدل على أن اللغة القبطية قد بدأت في الاضمحلال

وتدل مقدمة[1] هذا الكتاب على تمكن ابن بطريق من اللغة العربية ، وإلمامه بالكتابة الفنية . قال :

« ألهمكَ اللهُ يا أخي من الأمور البهيَّة أحسنها وأوفقها . وصرف عنك

---

(١) طبع الآباء اليسوعيين — بيروت سنة ١٩٠٩

من الحزنات الرديئة أعظمها وأوبقها[1] . وجلّلك من السّتر اعمّه ، وأدام لك من العز أعظمه . وأفاد فى الدارين سهمك ، وفى الحالين قِسْمك . وفهمك جميع ما يُرضيه ، ولا أفرزك[2] من حوله بما يستقصيه » .

« فهمتُ ما أمرت برسمه لك ؛ أسعدك الله بلبوس الفضيلة ، وطهرك من التّردّى بأطمار الرذيلة ؛ فى معرفة التواريخ الكلية من عهد آدم إلى سِنِىّ الهجرة الإسلامية . و برهنتُ ذلك على مَمَرّ الشهور والدهور والأعوام ، لتستغنى بمعرفته عن سؤالكِ الخاصّ والعامّ . ورسمت لك أنهج الله لك أفسح السبل إلى السعادة وعرّفك فى كل حين أبلغ العلم والإفادة ؛ رسما وأنموذجاً وِ كيدا ، وجعلته مختصراً مفيداً . و بقدر ما رأيته مشاكلا لعلو نفسك الشريفة ، ومطابقاً لذكاء فطنتك العالية المنيفة من الإيجاز والتقريب مما جمعته من التوراة والإنجيل ، و باقى الكتب القديمة والحدَثَة ، وضمنته كتابى هذا ، وجعلته أخْيَرَ مطلباً ، وأصدق مذهباً » .

« قال سعيد بن بطريق المتطبب : أول ما نبتدئ به حمدُ الله ربّنا و بارينا، وخالقنا ومحيينا ، جل ثناؤه ؛ إذ كان حمدُه — تقدس اسمه — مفتاحاً لجميع الكتب والرسائل . ونسأله — عز وجل — العونَ لنا على ذلك بجميل عاداته . والمجدلله أهل المجدِ ووليِّه ، والرّاجى به شكراً من عباده . مقَدِّر الأشياء من قبل كونها ، ومدبِّرها من بعد حدوثها . الذى جعل الرحمة والعدل من سُنن الحق ، وأمر بهما ، وجعل الفسق والجور من سبيل الباطل ونهى عنهما . الذى لم يجبر عباده على فعل يتجاوز وُسعَهم ، ولم يقدِّر على خلقه عملا تضعف عنه طاقتهم . بل جعلهم لأفعالهم مختارين ولأعمالهم مدبّرين »

---

(١) وبق ، كوعد ووجل وورث ، وبوقا وموبقا : هلك .
(٢) الصواب : فرزك وهى بمعنى عزلك وأبعدك وقطعك .
(٣) أطمار : جمع طمر ، وهو الثوب البالى .

« فالحمد لله المنفرد بالوحدانية ، فهو — عز وجلَّ — بجوهره الأبدى ، وحكمته القديمة ، وحياته الأزلية ؛ مستحقٌّ الحمد والثناء ، ومستوجب المجد والسناء . وإياه أسأل ، وإليه أرغب فى خلوص نيَّاتنا لقبول مايرضيه ، وصرف طوِيَّاتنا إلى مايعود إلى العمل بطاعته ، ويُكسبُنا التقرُّب منه برأفته » .

« أما بعد ، فإن كل من لم يكن له معرفة بأصل علم من العلوم التى يريد أن يتكلم فيها لينتج منه نتيجة مايريده ، وكانت معرفته أيضاً إنما هى فرع لذلك العلم ، لاعن أصل يرجع إليه ؛ كان كلامه وإنتاجه هذَرا وهذَيانا ، وصار تعبه وعناؤه فى ذلك هزلا ولعبا » .

« وقد ضرب سيدنا ومخلصنا فى إنجيله المقدس مثالا فقال : من بنى داره على الرمل ؛ فأحقر ريح تمرُّ بها تسقطها ، وأدنى سيلانٍ من الماء يجوز بها يهلكها . ومن بنى داره على الصخر فلا الرياح تسقطها ، ولا سيلان الماء يهلكها » .

فأول مانلاحظ فى هذه المقدمة إطالة التحميد والدعاء على نحو ماجاء فى أساليب المسلمين . والحرص على السجع إلا فيما ندر . واستخدام الجناس ، والاستشهاد بأقوال الإنجيل . واستخدام مصطلحات إسلامية مثل : عز وجل ، والمنفرد بالوحدانية .

كما أنه سجل مصطلحات مسيحية مازالت تجرى على ألسنة المسيحيين حتى اليوم مثل : تقدس اسمه ، وأفرزك ، والمجد لله أهل المجد ، سيدنا ومخلصنا ، إنجيله المقدس ، وغير ذلك .

كما أن هذه المقدمة تضمنت إشارات فلسفية واعتقادات دينية ، مثل قوله : « مقدر الأشياء من قبل كونها ، ومدبرها من بعد حدوثها . الذى لم يجبر عباده

على فعل يتجاوز وُسعهم ، ولم يقدِّر على خلقه عملا تضعف عنه طاقتهم ، بل جعلهم لأفعالهم مختارين ، ولأعمالهم مدبرين » فهنا ترى مبدأ الاختيار وحرية الإرادة . وأن الله لايكلف عباده فوق مايطيقون ، ولعله تأثر بآية ٢٨٥ من سورة البقرة وهى « لايكلف الله نفساً إلا وسعها » فإن عبارته تكاد تكون اقتباساً لهذه الآية .

اشتمل كتاب ابن بطريق على تاريخ مفصل لظهور الديانة المسيحية ، والمجامع الكنسية ، والاختلافات المذهبية . وتكلم بالتفصيل عن تاريخ بطاركة الإسكندرية والخمس مدن الغربية ، وتاريخ أقباط مصر منذ الفتح العربى إلى سنة ٣٢١ ﻫ وهى السنة التى عين فيها بطريركا على مدينة الإسكندرية .

وأسلوبه فى كتابة هذا التاريخ لا أثر للتكلف فيه ، فهو فيما عدا المقدمة التى مرت بنا لم يستخدم إلا أسلوباً يسهل فهمه على كل أحد ، وذلك ليكون فى متناول الجميع . ومن العجيب أننا نجد كثيراً من الأخطاء النحوية واللغوية والإملائية . ولا ندرى كيف صدر هذا من ابن بطريق مع أن أسلوبه فى المقدمة يدل على تمكنه من اللغة ونحوها . فلا يبعد أن تكون هذه الأخطاء نتيجة لجهل النساخ . وعلى كل حال فهذا الكتاب وثيقة لا غنى عنها فى دراسة اللهجة المصرية فى ذلك العصر .

وقد اعتمد عليه بعض مؤرخى المسلمين فيما كتبوه عن الدولة الرومانية الشرقية ، كما اعتمد عليه بعض كتاب المسلمين وبخاصة ابن تيمية فيما كتبوه فى الرد على النصارى .

* * *

كان ابن بطريق معاصراً لمحمد بن طغج الأخشيد . وفى أيام توليه بطريركا حدث بين المسيحيين انشقاق كبير بسبب الأوقاف وطمع بعضهم فيها . ومات سنة ٣٢٨ هـ بعد أن ظل فى منصب البطريركية ما يقرب من ثمانية أعوام .

وله كتاب اسمه « الجدال بين المخالف والنصرانى » أشار[1] إليه فى تاريخه ، وقال إنه صحح فيه مذهب الملكية ورد على من خالفه .

* * *

ثم جاء بعده يحيى بن سعيد الأنطاكى الذى أقام بالقاهرة مدة طويلة . فوضع ذيلا على كتاب ابن بطريق انتهى فيه إلى سنة ٤٢٥ هـ أى فى عهد الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمى . وكان يحيى معاصرا للفترة التى أرخ لها . ثم غادر مصر سنة ٤٠٥ إلى أنطاكية وهناك عكف على إعادة تحرير الذيل واستيفاء ما به من أوجه النقص .

وقد امتاز الأصل والذيل باحتوائهما على أخبار كثيرة عن الدولة الرومانية الشرقية ، وما وقع بينها و بين المسلمين من حروب .

* * *

وفى عصر الدولة الفاطمية ظهر أدباء مسيحيون كثيرون ولكنهم كانوا يسارعون إلى اعتناق الدين الإسلامى ليظفروا بالوظائف الكبرى فى ديوان الإنشاء وغيره من دواوين الحكومة . ويؤلفون الكتب الإسلامية تقربا من الحكام وتأكيداً لإسلامهم .

---

(١) ص ١٧٦

وقد حدث فى أواخر أيام الدولة الفاطمية ؛ حينما احتل أسد الدين شيركوه مصر أن ضيق على النصارى وألزمهم بشد الزنانير على أوساطهم ومنعهم من إرخاء عذبات العمائم وكانوا يرخونها تشبها بالمسلمين . وقد استاء النصارى من هذه الأوامر ، وعبر عن استيائهم الشاعر النصرانى زكريا بن أبى المليح مماتى ، فكتب رقعة رفعها إلى أسد الدين وصدرها بالبيتين الآتيين :

يَا أَسَدَ الدِّينِ وَمَنْ عَدْلُهُ   يَحْفَظُ فِينَا سُنَّةَ الْمُصْطَفَى
كَفَى غِيَارًا شَدُّ أَوْسَاطِنَا   فَمَا الَّذِى أَوْجَبَ كَشْفَ الْقَفَا ؟

فلم يلتفت أسد الدين إلى هذه الشكوى ، فاضطر الشاعر إلى اعتناق الدين الإسلامى . ولما تم له ذلك عين ناظراً على الدواوين .

* * *

وفى عصر الدولة الأيوبية اتسعت الحركة الأدبية بين المسيحيين . فظهر أبناء العسال وأصلهم من بلدة « سدمنت » فى صعيد مصر ، من عائلة رجل نصرانى اسمه أبو البشر يوحنا الكاتب المصرى .

وكان لأبناء العسال قصور فخمة بحارة زويلة يعيشون فيها عيشة طيبة . وقد شغل بعضهم مناصب كبيرة فى الحكومة ، وألفوا كتباً فى الديانة المسيحية باللغة العربية . وترجموا بعض الكتب الدينية من اللغة القبطية إلى اللغة العربية . وألفوا بعض كتب فى الغرض المتقدم على نمط ما عرفوه من كتب الدين الإسلامى . ويبدو من كتبهم أنهم أخذوا بحظ وافر من الثقافة الإسلامية ، وآداب اللغة العربية .

وممن اشتهروا من أولاد العسال : الصفى بن العسال ، وله مجموع يسمى

المجموع الصفوى ، وهو كتاب ضخم فى فقه المذهب الأرثوذكسى ؛ حذا فى تأليفه حذو كتب الفقه الإسلامى فجعله فى قسمين .

١ — قسم العبادات ويقع فى أبواب وفصول . تكلم فيه عن وظيفة البطاركة ، والشروط التى ينبغى أن تتوفر فيمن يتولى هذه الوظيفة . وهذا الباب يشبه باب الإمامة أو الخلافة عند المسلمين مع اختلاف وهو أن الإمام أو الخليفة يجمع بين السلطتين الزمنية والدينية . أما البطريركية فهى كما عرفها الصفى خلافة مسيحية فى الدنيا على حراسة الدين ، وسياسة أبناء الطائفة سياسة شرعية روحانية . وتقايدها لمن يقوم بها فرض على المؤمنين واجب بالإجماع ، ويدل عليه العقل والشرع .

ويشمل هذا القسم أبواب التعميد ، والصلاة ، والصيام .

٢ — القسم الثانى : فى المعاملات كالبيع ، والقرض والضمان ، والرهن ، والكفالة ، والعارية ، والوصية ، والميراث ، والهبة ، والوديعة ، والشركة ، وأحكام الزواج والطلاق ، وغير ذلك .

وعناوين هذه الأبواب كلها وردت فى كتب الفقه الإسلامى . وقد جاء فى باب « المبايعة وما يتبعها » فى الفصل الأول ما نصه[1] .

« ١ — لا يتم البيع والشراء إلا بإيجاب البائع وقبول المشترى من غير اغتصاب . وأيهما رضى فالآخر بالخيار ، إن شاء تمم ، وإن شاء فسخ . وإن افترقا قبل عقد المبايعة بطلت ، أو قبل قبض الثمن وتسليم المبيع فهما بالاختيار ما لم تكن قد تمت بشهادة » .

---

(١) المجموع الصفوى ص ٣٠٦ ط التوفيق بالقاهرة .

وفى كتاب البيوع فى الفقه الإسلامى ما نصه :

« البيع ينعقد بالإيجاب والقبول إذا كان بلفظ الماضى . فإذا أوجب أحد المتعاقدين البيع فالآخر بالخيار ؛ إن شاء قبل فى المجلس ، وإن شاء رده . وأيهما قام من المجلس قبل القبول بطل الإيجاب . وإذا حصل الإيجاب والقبول لزم البيع ولا خيار لواحد منهما إلا من عيب أو عدم رؤية » .

وليس هناك فرق كبير بين النصين .

***

وللأسعد بن العسال أرجوزة فى المواريث نذكر منها :

الشُّكْرُ لله الوحيدِ الذاتِ سبحانَه مُثَلَّثَ الصفاتِ
أَحْمَدُهُ حمداً كما هو أهلُهْ إذ فاض بحر جودِه وفضلِه
أزيد فى التمجيد والتسبيح لابْنِ الإلهِ السيدِ المسيحِ
أنقذَنا من ظُلمةِ الجَهالَهْ ومن جحيمِ الكفرِ والضلالَهْ

فالأسعد سلك فى هذه الأرجوزة نفس الطريقة التى يسلكها المسلمون فى نظم الأراجيز ، مع اختلاف المعتقدات ، وهذا أمر طبيعى .

ومنها .

يا أيها الطالبُ علمَ الشرعِ فى الإرثِ خذ مختصراً من فرعِ

ومنها فى الوراثة :

أولُها البنون والبناتُ لافرقَ ، بل هن مُساوياتُ

فالابن يتساوى مع البنت فى الميراث عند المسيحيين . وعند المسلمين للبنت نصف ما يرث الولد .

والأُمُّ مثلُ أحــدِ الأولادِ والأبُ مثلٌ فى القياسِ الهادِى
وإن مات مَيْتٌ وله فردُ وُلِدْ لزوجِهِ الرُّبْعُ فعنه لا تَحِـدْ
الخ .

* * *

واجتهد أولاد العسال فى ضبط ترجمات أسفار العهد الجديد مقابلين إياها على اللغات القبطية واليونانية والسريانية والعربية الدارجة ، وحرروها باللغتين القبطية والعربية . وفى مكتبة البطريكخانة نسخة من الإنجيل الذى ترجموه ، جاء فيها :

« نسخة للأربع بشائر الإنجيلية محررة بخط العالم الفقيه النبيه القس جرجس أبى الفضائل بن لطف الله فى سنة ١٦٥٢ للإسكندر ، الموافقة سنة ١٠٥٧ للشهداء ، وسنة ٧٤١ للهجرة ، عن نسخة الأصل التى حررها بخطه وضبطها بنفسه الشيخ الرئيس الأسعد أبو الفرج هبة الله ، وذكر فى ختامها أنها مقابلة على القبطى واليونانى والسريانى » .

واشتهر أولاد العسال بجودة الخط العربى ، وإليهم ينسب الخط الأسعدى الذى ابتكره الأسعد بن العسال .

* * *

ومن مؤلفات الصفى : مجموعة خطب دينية استخدم فيها السجع على نظام الخطب الإسلامية ، فمنها :

« المجدُ[1] لله المتجلِّلِ بأنوار لاهوته التى تَفُلُّ حَدَّ الصِّفاح . اللابسِ

(١) مجموعة خطب ابن العسال ص ٨ ط رعمسيس سنة ١٩٣٠

المجد وعظيم البهاء ، المطلق منَ الأسرِ السَّرَاحَ ، الماشى على السحب ، على أجنحة الرياح ، الدافع الليلَ بالنهار والمساء بالصباح » .

« نحمده حمداً يهدينا إلى رشده فى الغدوِّ والرَّواح . ونشكره الفصاح ، والعقائد الصحاح . ونتوسل إليه بكرمه فهو معدن الجُود والسماح ، ونرغب إليه بفضله فهو أهل الفضل الأثيل المُباَح » .

« ونستشفع إليه بكرامة رسله مفاتيح أقفال صناديق الغيوب ، مصابيح ظلماء ليالى العيوب ، ينابيع الحق التى أجراها لتطهير القلوب ، سهام الله التى براها لحياة النفوس لا لقتلها فى الحروب » .

« أيها المؤمنون بالتَّجَسُّد والتَّأَلُّم والقيامة والصعود ، ونفائس الوجود . هذا العيد الذى سرى فيه نجم الخلاص الذى لا يغيب . هذا العيد الذى جرى فيه وادى الكرم الخصيب . هذا العيد الذى يحتفل به ذوو الشباب والمشيب » .

* * *

وأسلوب الصفى كما نرى يمتاز بالحرص على السجع والجناس ، وإطالة الفقرات . وقد بدأ خطبته بتمجيد الله وشكره فى عدة جمل ، وأطال فى التحميد. ثم توسل إلى الله بكرامة رسله الذين أرسلهم لهداية خلقه . وكل هذه السطور الكثيرة مقدمة للدخول فى الموضوع ، وهو التحدث عن عيد القيامة . وقد أسهب فى التحدث عن هذا العيد مخاطباً الوجدان ، محاولا إثارة المشاعر الدينية ، والعواطف المسيحية .

ومن مؤلفات أبناء العسال :

١ — نهج السبيل فى الرد على من قدح فى الإنجيل .

٢ — الذهب المصفى والسلم المقفى ، وهو قاموس فى اللغة القبطية . ومنه اصطلح الأقباط على تسمية اللغة القبطية بالسلمى .

٣ — كتاب فى النحو القبطى .

ومؤلفات دينية أخرى .

* * *

وقد كانت لهذه المؤلفات المسيحية التى ظهرت فى اللغة العربية على أيدى أبناء العسال وغيرهم ، والتى انتشرت وكثر تداولها صدى فى بعض الأوساط الإسلامية . قال شرف الدين البوصيرى (٦٠٨ — ٦٩٦ هـ) « [1] لما رأيت كتب النصارى واليهود الآن مشحونة بما ينكرونه من بعث النبى صلى الله عليه وسلم ، وفيها القول بخلاف ما يدّعونه من ألوهية المسيح ومن صلبه ، وإثبات رسالته إلى النصارى واليهود وما لا يخفى ؛ تعرضت فى هذه القصيدة إلى ذكر ما سهل نقله من ذلك ، وأردت أن أورد تحت كل أبيات منها ما أشارت إليه من النصوص التى لا يستطيع النظم ذكرها بلفظها ولا بترتيبها » .

ومن أدباء الأقباط الذين ظهروا فى هذا العصر : جرجس بن العميد ، ويعرف بابن المكين ؛ كاتب الجيوش المنصورة فى حكومة الأيوبيين . وله كتاب ضخم فى التاريخ اسمه « تاريخ المسلمين » أو « المجموع المبارك » يقع فى قسمين :

١ — القسم الأول من بدء الخليقة إلى آخر حكم هرقل امبراطور الروم .

---

(١) ديوان البوصيرى ص١٢٨ و ١٢٩ ط مصطفى الحلبى بالقاهرة سنة ١٩٥٥ .

وقد تكلم فيه بالتفصيل عن ظهور المسيحية وتاريخها ، وما حصل بين المسيحيين من اختلافات .

٢ — والقسم الثانى يشمل تاريخ المسلمين من بدء ظهور الإسلام إلى أول حكم السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨ هـ

وقد جاء فى مقدمته(١) :

« الحمد لله الأزلىّ ، الأول بلا ابتداء ، والآخر بلا انتهاء . الإله الواحد الذى لا يعلم له كيفية ، ولا تدركه العقول البشرية . إله الآلهة ، ورب الأرباب . منشئ أجناس الحركات وأنواع الأسباب . خالق كل الموجودات ، وموجد كل الكائنات . المعظم من جميع المخلوقات ، المقدس من سائر اللغات . المتعالى عن وصف الحدوث والابتداء ، المنزه عن قبول العدم والفناء ، والغاية والانتهاء . »

« أحمده على ما أنعم وأولَى ، وأسأله العفو والعافية فى الآخرة والأولَى »

هذا هو أسلوب ابن العميد فى المقدمة فقط . أما أسلوبه فى سائر كتابه فيمتاز بالإهمال الشديد .

ولهذا التاريخ ذيل وضعه المفضل بن أبى الفضائل القبطى وسماه « النهج السديد ، والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد » انتهى فيه إلى سنة ٦٩٦ هـ

ولابن العميد كتاب اسمه « الحاوى » يتضمن دفع اعتراضات على الدين المسيحى وما أشكل من آيات كثيرة فى الإنجيل .

* * *

ومن مؤلفى الأقباط فى ذلك العصر : بطرس أبو شاكر ، ويعرف بابن

---

(١) صورة شمسية بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٥٠١ تاريخ .

الراهب . وله كتاب فى التاريخ اسمه « تاريخ ابن الراهب » وهو سجل بأسماء بطاركة القبط المصريين من بدء ظهور المسيحية فى مصر إلى سنة ٦٥٧ هـ وفيه ملخص لما جرى فى أيام كل منهم من الحوادث . ولهذا الكتاب ذيل ينتهى إلى سنة ٧٠٦ هـ .

* * *

وابن كَبَر ، وهو شمس الرياسة أبو البركات، المتوفى سنة ٧٢٥ هـ كان كاتب الأمير ركن الدين بيبرس المنصورى ؛ أحد مماليك المنصور قلاوون . ثم ترك الكتابة حوالى سنة ٧٠٠هـ واشتغل بخدمة الدين ، وسكن بمصر العتيقة فى درب يحمل اسمه .

كان ابن كَبَر واسع الاطلاع على التاريخ والأدب العربى وعلوم اللغة العربية . وله مجموعة خطب دينية جاء فى إحداها :

« الحمد لله الذى رشح كثائف الخواطر الهيولانية بلطائف الجواهر العقلية . وادخر لؤلؤ أنواره فى أصداف البشرية ، ونور أولى أسراره بأوصافه القدسية . وأجرى أنباءه على ألسن أنبيائه ، وأماط حجاب الخفاء مما أجراه بواسطة أوليائه . وحلى الكتب الشرعية بيافوت حكمه الشريفة ، وجلى الحجب الطبيعية عن مظاهر نعمه اللطيفة » . (1)

« نحمده حمداً ينقذنا من سيل الضلال الجارف ، ويرشدنا إلى منهاج الإقبال والمعارف »

« معاشر النــــاس : هبُّوا من رقدتكم التى طال عليها الزمان حتى تسلكوا بتوفيق الله جادة الأمان . وانهضوا من وعور الظلمة الهيولانية ،

---

(1) مجموعة خطب ابن كبر ص ٩ ط رعمسيس سنه ١٩٣٢

وخوضوا بحور الحكمة الربانية بأقدام الأفهام ، واهتمام المرام : لتقفوا على سائر رموزها السَّنية ، وتغترفوا من ذخائر كنوزها السماوية التى سكبت نيل مكارمها على خلقتها المحسوسة ، وسحبت ذيل مَراحمها على جِبلَّتها المدروسة » .

* * *

وله من خطبة فى عيد العذراء :

« الحمد لله الذى أنار بأنوار الحكم مصابيح العقول ، وكشفَ عنها أستار الظُّلَم فعَرفتْ سرَّ العقل والعاقل والمعقول . الذى تنزَّه بالعزة القدسية من الأجناس والأنواع والفصول . وتقدس بسلطان الأحدِية عن مشابهة الموضوع والمحمول . الذى أطلعَ شمس البرَارة من مشرق سيدة النساء الطاهرة البتول . ودرَّع الكلمة الإلهية هيكلا إنسيًّا أظهره فى العالم الكَونِيّ على هيئة الرسول » .

« نحمده حمداً يقوده رائد التوفيق إلى أبواب القبول ، ونشكره سرمداً على إيلاء الآلاء الضافية الأهداب والذُّيول » ألخ ...

وهذه الخطب تشبه فى أساليبها الخطب الإسلامية كما مر بنا عند الصفى بن العسال . تفتتح بحمد الله فى عبارات كثيرة يظهر فيها الحرص على السجع والجناس . وتمتاز خطب ابن كبر باحتوائها على مصطلحات فلسفية ومنطقية مثل الموضوع والمحمول ، والهيولانية ، والجواهر العقلية .

وإذا كان المسلمون فى خطبهم يحرصون على توحيد الله فى ذاته وصفاته ، متمسكين بهذا التوحيد ، متشددين فيه ؛ فإن هذه الخطب المسيحية حرصت كل كل الحرص على تسجيل عقائد أصحابها فى حلول اللاهوت فى الناسوت ، وموضوع التجسد ، والصلب ، وقيام المسيح وصعوده إلى السماء ، وغير ذلك من آرائهم ومعتقداتهم .

وكان بطريرك الأقباط لا يستطيع أن يزاول عمله بصفة رسمية إلا بعد أن يحصل على تقليد من السلطان باعتماده فى منصبه . وهذه صورة تقليد صدر من أحد سلاطين المماليك سنة ٧٦٤ هـ لبطريرك الأقباط الأرثوذكس :

« . . . [١] ولما كان الحضرة السامية ؛ القديس المبجل الجليل المكرَّم ، الموقَّر الكبير الدَّيان ، الرئيس الروحانى الفاضل المؤتمنُ جرجس ابنُ القس مفضل اليعقوبى : عمادَ بنى المعمودية ، وكنز الأمة المسيحية ؛ مُنْتَخَب المِلَّة الصليبية ، ركن الطائفة النصرانية ، اختيار الملوك والسلاطين؛ أطال الله بهجته ، وأعلى على طائفته درجَتَه ؛ قد حاز من فضائل مِلَّتِه أسماها ، وصعد من درجات الترقى على أبناء جنسه أعلاها . فنزَّه نفسه عن مشاركة الناس ، وتقشف بين أهله فى المأكل واللباس . وترك الزواج والنكاح . واشتغل بعبادته التى لازم عليها فى المساء والصباح . وألقى نفسه إلى الغاية فى الاطراح . وساح بخاطره فى الفكرة وإن لم يكن بجسده قد ساح . وارتاض بترك الشهوات مدة زمانه ، واطَّرَح الملاذ لتعلو درجته بين أهله برفعة مكانه . واشتمل من علوم طائفته على الجانب الوافر ، وعرف من أوامرهم ونواهيهم ما يَقَرُّ به منهم العين والناظر . وطلب من الرب الرءوف الرحيم القوةَ على أعماله ، وسأل الإله أن يزين لأهل مِلَّتِه ما يأتى به من أقواله وأفعـــاله . فوقع اختيارهم عليه ، وسألوا صدقاتنا الشريفة إلقاء أمرهم إليه » .

« فرسم بالأمر الشريف لا زال إحسانه إلى سائر العالم واصلا ، وجوده لكل طائفة بارتياد أكفائها شاملا » .

---

(١) صبح الأعشى ٢ سنة ١٧٥ . ط دار الكتب المصرية سنة ١٩١١ .

« أن يُقَدَّم حضرة القديس المؤتمن جرجس المشار إليه على الطائفة اليعقوبية من الملة النصرانية بالديار المحروسة ، والجهات الجارى بها العادة . ويكون بطريركا عليهم على عادة من تقدمه فى ذلك ، ومستَقَرّ قاعدته إلى آخر وقت ، قائماً بما يجب عليه من أمور هذه الملة ، باذلاً جهده فى سلوك ما ينبغى مما ينظم عليه أمره كله . فاصلا بينهم بما يعتقدون من الأحكام ، متصرفاً على كل أسقف وقسيس ومطران ، فى كل نقض و إبرام . »

« وَلْيَجعل أمور أهل طائفته من المهمات لديه ، وليشفق على الكبير والصغير ، ولْيَتَنَزَّهْ عن قليل متاع الدنيا والكثير . وليزهد فى الجليل قبل الحقير . وفى اطلاعه على أحكام دينه ما يكفيه فى الوصية ، وما يرفعه بين أبناء جنسه فى الحياة الدنيوية » .

وهذه التقاليد و إن كانت صادرة من جهات إسلامية إلا أنها تدخل فى دائرة الأدب القبطى ، لأنها تناولت بعض الشئون القبطية .

* * *

وكان البطريرك يتخذ لنفسه خاتماً ينقش عليه عبارة دينية مثل « يا الله ، الخلاص » ويصدر التقاليد بتعيين المطارنة والأساقفة والقساوسة . وهذه صورة تقليد صدر من الأنبا بطرس السابع المتوفى سنة ١٨٥٢ م لأنبا إبرام أسقف كرسى منفلوط . ولم نعثر على تقليد قبل هذا التاريخ .

« بسم [١] الله الرءوف الرحيم . يا الله الخلاص . »

« سلام الله القدُّوسِ الذى يتوج الرءوس ، ويغذى صغيرى النفوس ، ويُسبغ حُللَ المجد على قابليه ، و ينزع عنهم لباس البوس . »

---

(١) مختصر تاريخ الأمة القبطية لتوفيق اسكاروس ١/ ١٤٥ ط المحيط بالقاهرة سنة ١٩١٢

« السلام الذى خص به الرسل القديسين ، والتلاميذ المبشرين ، وهم بعِلِيَّة صهيون مجتمعين ، يحل على جماعة الأولاد المباركين ، الأحباء الطائعين ، الدينيين الأرثوذكسيين ، القمامصة المدبرين ، والكهنة المؤتمنين ، والشمامسة المكرمين ، والأراخنة المبجلين ، والخولا والفلاحين ، وأصحاب الصنائع أجمعين وكافة الشعب المسيحى بكرسى منفلوط ، وكامل ما يليها من القرى والبلاد . »

« نعلمهم — جدد الله البركات الروحانية عليهم — وهو أن الواصل إلى عندكم أخونا الحبيب ، الفاضل اللبيب ، العابد الناسك ، الخائف من الله ، الأسقف المكرم بكل نوع ، أنبا إبرام ، وهو أسقف عليكم وصار له السلطان من قبل النعمة التى نالها من الروح القدس إليه ، أن يحل ويربط ، ويكرز الكنائس الجدد والميا كل ، ويقسم الكهنة والقسوس والشمامسة مجاناً كما أخذ مجاناً . ويعمل جميع ما تعمله الأساقفة أمثاله . »

« وهو أبوكم وراعيكم ، ورئيسكم ومدبركم فى ناموس الله كما يرضى الله . وله السلطان ؛ يتصرف فى كرسيه كما يريد بخوف الله تعالى ؛ بعلمه ودينه وفضله . ولينظر فى تدبير المصالح الروحانية اللائقة من المطلوب منه بحسب القوانين الرسولية القائلة للأساقفة : ارْعَوْا رعية الله بالمخافة والرهبة ، كما تسلم من روح القدس المعطاة لكم .

فعند حضوره إلى عندكم مصحوباً بمسك السلامة ؛ تبادرون أنتم الجميع فى استقباله وخدمته وطاعته . وتبذلون له الطاعة الكاملة ، والمودة الحقانية . وتعاملونه كالأب بالمحبة الروحانية . ولا تخرجوا عن كل ما يشير به من القوانين الشرعية . »

« وتحافظون على الأصوام المفروضة ، والصلوات المنصوصة ، والقداسات

المرفوعة ، والسهرانات بالتراتيل المسموعة ، والصدقات على محاويجكم بقدر طاقتكم . ورفع القرابين من بكوركم وثمار غلاتكم . وتحافظون على طهارة النفس والجسد والقلب ؛ فإنه بغير الطهارة لا يعاين أحد مجد الله » .

«وتعتمدوا على الصوم والصلاة فى أوقاتها المفروضة ؛ فإنها سراج الاستنارة .. ولا تخرجوا عن كل عمل صالح ، ومسعى روحانى عن رأى أبيكم الأخ المشار إليه ولتكونوا له فى المعاونة مستمزين بالدعاء مبتهلين ، وعلى خدمته بالنصح مشتملين ، وعلى سماع وعظه غير متبرمين . ولتتجنبوا الأفعال الشنيعة ، والأعمال التى لا تجيزها الشريعة ، والزيجات المحرمة الممنوعة » .

« وليكن اجتماعكم فى البيعة بروح طاهر ، وقلب واحد ، لكى لا يوجد فيكم مؤاخذ لأخيه ولا واجد . ولا يتأخر واحد منكم عن ملازمتها ، لأن البيعة عامود الحق وأساسه ، وفيها تهزم جيوش العدو وتكسر أتراسه . فمن تأخر عنها عمداً يصير لسهام المحارب هدفاً ، لأنه لم ينضم نبيت الله ولم يتخذه كنفاً »

« ولا يجب على أحد من النصارى أن يجذب رفيقه إلى دار الولاية ، ويقصد إضراره بحيف أو سعاية . ولا يتعدى أحد فى أرض المزارعة ولا يستحس الزنا والمخاصمات والمنازعة » .

« وقد توخينا الاختصار خشية من الملل والإضجار ، وعوناً على أبيكم القادم عليكم إن شاء الرب واختار أن يروى عطشكم من ينابيع تعاليمه الروحانية ، وهو يشكر الله بذلك ، وقادر بمعونة الله سبحانه أن يرفعكم من الانحطاط إلى المراتب الطوبانية » .

* * *

فنلاحظ أن هذا التقليد أو المنشور قد بدأ بالدعاء لأفراد الطائفة القبطية على

اختلاف مراتبهم . وأخبرهم أنه عين لهم مطرانا لرعاية مصالحهم ، والسهر على ما فيه خيرهم وبصامم بطاعته واحترامه .

ثم أخذ يعظهم ويرشدهم ، ويحضهم على الاستقامة والتمسك بأهداب الدين من المواظبة على القيام بفرائضه من صلاة وصيام ، وإحسان إلى الفقراء . وحثهم على مداومة الاجتماع بالكنائس وأداء الصلوات فى أوقاتها . وطلب منهم أن يتآخوا فيما بينهم ، وأن يحب بعضهم بعضاً ، ويتركوا الكذب والوشاية والنميمة ، والأمور الذميمة .

ويميل أسلوب التقليد إلى السجع أحياناً ، ولكنه على العموم يحرص على سهولة العبارة ليفهمها عامة الناس إذا ما تلى عليهم فى الكنيسة .

* * *

ولم يصلنا شىء من الأدب القبطى فى خلال العصر العثمانى ، مع أن هذا العصر كان بالنسبة للأقباط خيراً من عصر المماليك . فلذلك نرانا مضطرين إلى الانتقال إلى العصر الحديث .

الباب الثانى

الأدب القبطى فى العصر الحديث

كان الأقباط يتلقون مبادىء العلوم فى كتاتيب خاصة بهم يديرها عرفاء . وكانت هذه الكتاتيب التى لبثت حتى العصر الحديث تتخذ بجوار الكنائس ، أو فى منزل العريف . ولم تكن تختلف عن كتاتيب المسلمين . وكان الصبيان يتلقون فيها مبادىء الدين ، ويحفظون جانباً من الإنجيل ، ويتلقون مبادىء الحساب .

وأما الذين يريدون مواصلة التعليم فكانوا يدرسون الأدب العربى ، والنحو والمنطق ، والعروض على أساتذة من المسلمين . وليس هناك مايثبت أنهم كانوا يحضرون حلقات الدروس فى المساجد مع المسلمين . قالت صحيفة الوطن (٣ — ٥ — ١٩١٦) «ويذكر متتبعو التاريخ أنه كان للأقباط قديماً رواق بالأزهر المعمور ، يتلقى فيه أبناؤهم العلوم المنطقية والشرعية ، إذ لم تكن توجد وقتئذ مدارس لتدريس هذه العلوم غير هذه الجامعة العظيمة » .

« وممن درسوا فى الأزهر من الأقباط : أولاد العسال قديماً ، وميخائيل عبد السيد صاحب جريدة الوطن ، ووهبى بك تادرس ، وغير هؤلاء كثيرون» .

وذكرت الصحيفة المتقدمة فى ١٤ — ٢ — ١٩١٤ تحت عنوان « الأقباط فى الأزهر » مانصه : « يتردد كثيرا على حلقات الدروس المختصة بعلوم المنقول والمعقول فى الأزهر جماعة من إخواننا الأقباط . وقد برع بعضهم فيما تلقوه من دروس المنطق ، والنحو ، والصرف ، والبيان ، والبديع ، والهيئة ، والجبر » .

وإذا كان من الثابت حقاً أن بعض الأقباط قد درسوا فى الأزهر فى العصر الحديث ، إلا أن ذلك لم يثبت بالنسبة إليهم فيما قبل هذا العصر . نعم ، إن

المذهب الحنفى لايمنع من ذلك ، ولكن كتب التاريخ لم تذكر شيئاً عن دراسة الأقباط فى المعاهد الدينية الإسلامية ، ولم ينقل إلينا أحد خبراً عن وجود رواق للأقباط بالأزهر . حقا إن ثقافة أبناء العسال ثقافة عربية إسلامية ، ولكن لم يذكر أحد منهم أنه درس فى معهد إسلامى ، لافى الأزهر ولا فى غيره . فلعلهم أخذوا هذه الثقافة فى منازلهم .

* * *

ومن الذين درسوا فى الأزهر فى العصر الحديث : ميخائيل عبد السيد . التحق بالأزهر ، ولما أنشئت مدرسة دار العلوم انتقل إليها ودرس مع طلبتها جنباً إلى جنب . ودرس من علوم الدين الإسلامى : فقه المذهب الحنفى .

وكذلك درس فى الأزهر : جندى إبراهيم الصحفى المشهور الذى انتقلت إليه ملكية صحيفة الوطن بعد أن تخلى عنها ميخائيل عبد السيد . وقد التحق بالأزهر تحت اسم « الشيخ ابراهيم الجندى » فأمضى سنة تلقى فيها النحو ، والصرف ، وآداب اللغة .

وممن درسوا بالأزهر : تادرس وهبى الشاعر المشهور ، ولم يعرف بين أدباء القبط من تأثر بالثقافة الإسلامية مثل تادرس وهبى . لقد حفظ القرآن وفهمه فهماً جيداً ، وكان يكثر من الاقتباس من الآيات القرآنية ، والإشارة إلى الأحاديث النبوية .

وفرنسيس العتر الذى كان يحضر دروس الشيخ محمد عبده مساء كل يوم . وقد رحب به الشيخ وأدنى مجلسه ، وكان ذلك سنة ١٩٠٢ م .

* * *

ولما أنشئت المدارس الحكومية ومدارس الإرساليات الأجنبية أقبل الأقباط على الالتحاق بها . وافتتح الأنبا كيرلس الرابع أول مدرسة قبطية فى مدينة القاهرة سنة ١٨٥٣م. وقد حاول العرفاء أن يقاوموا حركة افتتاح المدارس القبطية لأنها ستقطع عنهم مورد رزقهم ؛ فطافوا بالمنازل وأخذوا يحرضون الآباء على عدم إرسال أبنائهم إلى تلك المدارس . وذكروا أن الحكومة ستأخذ أبناءهم من المدارس وتجندهم فى الجيش وترسلهم إلى ميادين القتال . ولما شعر الأنبا كيرلس بحركتهم هذه استرضاهم بأن عينهم فى وظائف التدريس بالمدرسة القبطية . فكانوا يدرسون الأطفال مبادىء القراءة والكتابة ، ويدرسون الدين لجميع التلاميذ .

ثم أخذت المدارس القبطية تنتشر فى جميع جهات القطر . وظهرت مدارس التوفيق القبطية ، ومدارس ثمرة التوفيق ، ومدارس الإيمان ، والإخلاص ، والمحبة وغيرها . وامتد هذا النشاط العلمى إلى ربوع السودان .

وكانت هذه المدارس تقيم الاحتفالات فى مناسبات شتى . فتارة تحتفل بعيد الميلاد ، ومرة تحتفل بعيد القيامة ، وآونة تحتفل بانتهاء العام الدراسى . وفى هذه الاحتفالات تلقى الخطب ، وتنشد القصائد ، وتمثل الروايات ، وتردد الأغانى والأناشيد . فكانت من عوامل نهضة الأدب القبطى .

مثال ذلك قول عياد بشاى فى حفلة مدرسة الأقباط بفاقوس « الوطن ٢ — ١٢ — ١٩١٣ » .

ياعِلْمُ شرَّفتَ الديارَ وأهلَها	لكَ ألفُ ألفِ مُؤازرٍ ومُنادِى
ياعلم هَذِّبْ نشأةً عصرية	تُحْيِي لمصرَ حضارةَ الأجدادِ
كنا نساق إليك رغمَ أنوفنا	فإذا بنا من أشوقِ الرُّوّادِ

إنا لفى زمن تقـــدم طفله أشياخَه فى العـــلم والإرشادِ
إن ارتقـاء الشعب فى مجموعه وسعـادة المجموع فى الأفرادِ

وقال نصر لوزا الأسيوطى بمناسبة الاحتفال بمرور خمسين عاماً على إنشاء كلية الأمريكان بأسيوط سنة ١٩١٥ من قصيدة طويلة :

أحييتِ يا دار علم مَيْتَ سؤددنا فأنتِ فى مصر مثلُ الرُّوح فى الجسدِ
وأنتِ فى كل أدوار الحياة لنا أَحْنَى على القطر من أمٍّ على ولدِ
أبليتِ خمسين عاما غيرَ وانيةٍ ولا تزالين فى أعوامك الجُددِ
أبليتِ خمسين عاما كلهنَّ هُدًى وسوفَ تبْلِينَ أعواما إلى الأبدِ
أبليتِ خمسين عاما كنتِ قاهرةً فيها الصعابَ بجيش العزم والجَلَدِ
ألخ .....

* * *

وكانت بعض الجمعيات الخيرية القبطية تقيم أسواقا للإحسان تباع فيها ماتنتجه المشاغل والملاجىء من صناعات يدوية ، ومن رسوم لبعض المناظر الطبيعية والمشاهد الدينية وغير ذلك . وكان شعراء الأقباط وكتابهم يبذلون جهدهم فى الدعاية لهذه الأسواق ، وترغيب الأغنياء فى الإقبال عليها ، والتبرع لها حتى تستطيع أن تؤدى رسالتها الإنسانية السامية . مثال ذلك قول نصر لوزا الأسيوطى فى سوق من هذه الأسواق .

أهلاً بسوقِ البِرّ والإحسـانِ لكِ بيننا يومٌ عظيمُ الشّانِ(١)
سوقٌ تُباع الصالحاتُ ويُشْتَرَى فيها الثوابُ بأبخسِ الأثمانِ

(١) الوطن فى ١٩١٤/٣/٧ .

عُرِضت بساحتها المروءةُ والندَى ومحبـــةُ الإنسان للإنسانِ
سوق بها الشارى يثوب وربحه فعل الجميلِ وراحةُ الوُجدانِ
سوق على رأس الهدى دَلاَّلُهــا داعى الصلاح وصادق الإيمانِ
لله دَرُّ القائمين بها إذا وقفَ الأنامُ بحضرةِ الدَّيانِ

الخ . . .

وهذا كاتب يدعو إلى تشجيع هذه السوق فيكتب تحت عنوان[1] : « لله أنت يا سوق » فيقول :

« لله هذه الأيادى البيضاء التى تمتد فى كل يوم لإنعاش نفس الفقير . لله تلكم النفوس العالية لا تبيت إلا على تخفيف الشقاء عن عواهل البؤساء » .

« لله سوق تفتح أبوابها فى هذا النهار ليدخل إليها أنصار الإنسانية ورجال الخير ، ترفع الغطاء عن محتوياتها لتجذب إليها نفوس الأجواد ، وتستندى أكفهم السخية » .

« لله سوق قامت لخير البائسين ، وشيدت من أيدى الكرماء . هذا يوم تنفتح فيه أبواب السماء لتسمع صوت الفقير يرفع أكف الضراعة إلى العزة الإلهية لتثيب الخيرين على خيراتهم ، وتستنزل البركة والرحمة على قوم قد دفعتهم أريحيتهم ، وهزهم كرمهم لزيارة سوق الإحسان » .

* * *

وكان من أثر ظهور الدعوة إلى تحرير المراة أن وجه الأقباط عناية كبرى إلى تعليم البنت ، وأصبح هذا الموضوع الشغل الشاغل لشعرائهم وكتابهم . فنظموا

(١) الوطن فى ١٢/٣/١٩١٤

القصائد الطويلة ، وحرروا المقالات لحث الهمم ، وإنهاض العزائم لفتح المدارس المجانية لتعليم أمهات المستقبل .

وفى سنة ١٩٠٨ افتتحت كلية البنات الأمريكية الكائنة بشارع رمسيس بالقاهرة ؛ فظهرت بين أبناء الطائفة الأرثوذكسية فكرة إنشاء كلية قبطية للبنات . وكانت هذه الطائفة تخشى على بناتها أن يعتنقن مذاهب المدارس الأجنبية التى يتعلمن بها ، ويتركن مذهب آبائهن . وفى هذا خطر عظيم يهدد تلك الطائفة لذلك شمر أدباؤهم عن سواعدهم للدعاية لهذا المشروع ، وأخذوا يعقدون الاجتماعات ويلقون فيها الخطب والقصائد حاثين على التبرع للمشروع الذى انتهى بإنشاء كلية البنات القبطية بالعباسية . وقد افتتحت سنة ١٩١٦ ، أى بعد ثمانية أعوام من ظهور هذه الفكرة . ولما كانت الدعوة إلى إنشاء الكلية المذكورة جاءت فى نفس الوقت الذى قامت فيه الدعوة لإنشاء الجامعة المصرية ؛ فإن الأقباط لم يهتموا بهذه الجامعة ، وشرعوا فى تأليف لجان تطوف بالأقاليم لجمع التبرعات لكليتهم . قال نصر لوزا فى الدعوة[1] لهذا المشروع من قصيدة طويلة :

العلمُ فرضٌ على الجنسِ اللطيفِ كما … قد صار فرضاً على شبانِنا النُّجُبِ
الأمُّ تحتاجُ عِلماً يَستضىء به … أبناؤها مثلما يحتاج خيرُ أبِ
ربُّوا الفتاة ترَوْا أمّاً مهذبة … تعلم الطفل ما يخلو من الكتبِ
البنت إن هُذِّبت صارت لنا مَلَكاً … يجثو لها كل مخلوق على الرُّكَبِ
لا يستقيم مدى الأيام حالُكُمُ … إلا بكلية فرّاجةِ الكُرَبِ
كليةٍ لبنات العصر تُبْلِغُنا … أقصى المرامِ وما نرجو من الرُّتبِ

(١) الوطن فى ٢٣/٥/١٩١٢ .

دعا لتأسيسها قـــوم غطارفة　　بالنظم والنثر ، والأشعار والخطبِ

وقال من قصيدة[1] أخرى :

دعا بِكُمُ الدَّاعون حتى تؤسسوا　　لمنّ بناء للعلوم مُشَيَّدَا
همُ مهدوا المشروع بالرأى والحجا　　أتموا لنا بالمال هذا المُمَهَّدَا
فياو يحنا إن قيل ما استطاع جمعهم　　وقد صاح دوماً أن يشيد معهدا
فلا تبخلوا يا قبط بالمال إنكم　　غداً تتركون الكنز والمال للعدَّا
نجدتم مجاريح الحروب فمالكم　　بخلتم على جرحى الجهالة رُقَّدَا

وقال نخر سليم نجار[2] من قصيدة :

يا بنت خفرعَ والعلا يرنو لها　　قومى فأنتِ منارة الظلماتِ
قومى انظرى فالنيل يذرف دمعه　　ويئن محزوناً من الحسراتِ
يبكى على الجنس اللطيف وما به　　ويواصل العبرات بالعبراتِ
يبكى على أم البنينَ وحالها　　فى مصر أضحى عِلَّةَ العلاَّتِ
هيا انشطى فالجهل داء قد فشا　　فينا وخالط غالب الطبقاتِ
والجهل داء كالبـــلاء مروِّع　　يقضى على الأقباط بالنكباتِ

الخ . . .

وقال بسطا بشاى[3] :

لأمة القبط ذاتِ الفهم والشمم　　أروى حديثاً به درسٌ لمغتنم

ومنها :

---

(١) الوطن فى ١٩١٣/٢/٢٨ .
(١) الوطن فى ١٩١٣/٣/١٩ .
(٣) الوطن فى ١٩١٣/١/٢٧ .

إنى لأعلم أن القوم أشغلهم ... عنها حوادثُ كانت بَرَّحتْ بهم
أمّا وقد زالت الأسباب وانتبهوا ... فإنهم قارنون الجودَ بالخِدَمِ
وبعد بضعة أيام تمر بنا ... ترينَ أسيوط قد قامت على قدمِ
هناكَ تغدِقُ سحبُ الجود فى أفق ... يُرَى النُّضار به ينهلُّ كالدِّيَمِ
فكم بأسيوط من جود ومن كرم ... ومن سخاء ومن فضل ومن شمَم
ومثلها مصر كم فيها بحورُ نَدًى ... تسيل أنهار جود من أكفهم
وفى الأقاليم كم من محسن كَلِفٍ ... بالفضل منتدب للبذل معتزم
وهكذا كل قبطى يجود لها ... بالجهد مما حباه الله من نعم
معاشر القبط إن تبغوا حياةَ عُلاً ... فدونكم حلية الإحسان والكرَمِ

وكانت هذه الدعوى تتضمن حملات عنيفة على الأغنياء ، وتنسب تأخر تنفيذ مشروع الكلية إلى بخلهم وشحهم ، أو إلى إيثارهم الإنفاق فى سبيل ملذاتهم الخاصة على موائد الخمر والميسر ، أو على النساء . وقد انتقد بعضهم هذه الحملات فكتب يقول[1] :

« تقريع أغنياء الطائفة وسبهم وتحقيرهم والتشهير بهم عند كل مناسبة ، ونسبة تأخر كل مشروع إلى بخلهم ، وقد نالهم شىء من ذلك لمناسبة مشروع كلية البنات »

«وأستطيع أن أقول إن بعض هؤلاء الشتامين قد يكونون مخلصين، ولكنهم ليسوا أبداً منصفين . فإنهم حسبوا الشتائم دواء ناجعاً لداء البخل الذى يصفون به أغنياءهم ، ولكن ساء فعلهم لأنهم بالرغم من تجربتهم هذا الدواء عدة أعوام

(١) الوطن فى ١٩١٦/٣/١٧ .

وتأكدهم من عدم نفعه ، لم يقلعوا عنه ولم يجربوا دواء خلافه : بل تمادوا ونطوحوا إلى أن قال بعضهم على رءوس الأشهاد : تعالوا نضع على باب الكلية لوحة نكتب عليها : « لتخجيل الأغنياء والكبراء » . فمن تقريع الأغنياء قول نصر لوزا [1] :

بحّتْ من الحث أصواتُ الألَى طلبوا	هذا البناء ولم تصغوا إلى الطلبِ
أعطى لكم ربكم مالاً لينفعكم	للصرف في الخير لا في اللهو واللعبِ
المالُ فانٍ ولا يبقى لصاحبه	مَدَى الدهور سوى الإحسان للعقِبِ
لا أسألنّ الذى ضاعت دراهمُهُ	على الخلاعة بين الكاسِ والحَبَبِ
ولا البخيلَ الذى أمواله وُضعت	من شدة الحرص فى ألف من الحجُبِ
وإنما أسأل الأخيار مَن بلغت	أفعالهم فى العطايا همّةَ العربِ
كلية العلم نادتْ وهْيَ صامتةٌ	لا أبصر اليوم أعمالا سوى الصّخَبِ
يا قبط إن ترفعوا فيها دعائمها	ترفع بناتكمُ من وهدة العطبِ
لا تنظروا نحوها إلا بعاطفة	ملأى من الصدق، لا بالشك والرِّيَبِ

لما فكر الأقباط فى هذا المشروع سنة ١٩٠٨ ، قدر المال اللازم له بعشرين ألف جنيه . وقد بلغ جملة ما حصلوه حتى سنة ١٩١٢ مبلغ ٤٥٠٠ جنيهاً مع أنهم كانوا يملكون [2] فى ذلك الوقت خمس ثروة مصر من الأراضى الزراعية والمبانى. كانوا يملكون نحو مليون ونصف مليون فدان تقريباً ، ونحو ٣٠٠ ألف بيت . هذا غير ما كان لهم من مئات ألوف الجنيهات فى المصارف .

قال رمزي [3] تادرس مؤلف كتاب « الأقباط فى القرن العشرين » :

---

(١) الوطن فى ١٩١٣/٥/٢٣ .

(٢،٣) الأقباط فى القرن العشرين جـ ١ ص ١٧٤ — ١٧٦ ط جريدة مصر سنه ١٩١٠

«على أن هذا الغنى العظيم الذى تتخذه الأمم دليلا على النجاح والإصلاح والرقى؛ أصبح من عوامل التأخر والانحطاط بيننا ، لأن السواد الأعظم من أغنيائنا أو قل كلهم لا يهمهم ارتقت الأمة ، أو تأخرت ، عاشت أو ماتت ما داموا فى رخاء وعيش رغيد . زد على ذلك أن بعضهم يبذل الدنانير الصفراء على مائدة الخمرة ، أو على بنات الهوى ، أو على طاولة الميسر ، ولا يمد يده بدرهم واحد لصالح أمته . ولا يغرنك ما تسمعه عن الذين يتبرعون منهم بالمال لتشييد صروح العلم و إقامة المستشفيات ، ومساعدة الجمعيات الخيرية ؛ فإنهم — سامحهم الله — يتبرعون قولا حبا فى إحراز الشهرة الذاتية ، و يضنون فعلا بما يجودون قولا » .

وقال « اللهم حنانيك بنا ورفقا ، أماتت العاطفة الكريمة التى أودعتها فى صدورنا للعطف على الفقير ، والرفق بالضعيف ، والأخذ بيد الصانع والعامل والنابغ ؟ أماتت تلك العاطفة التى كان يتبارى فيها أجدادنا مباراة خلدت لهم ذكرا ، وأبقت لهم عملا حسنا ؟ نعم ! ماتت وذهبت ، ولم يبق لنا بعدها إلا التأسى والذكرى » .

« ولا يشك واحد بينكم فى موت تلك العاطفة ، وأرونى غنياً من أغنيائنا الذين يتفاوت ريعهم السنوى بين خمسة آلاف وأربعين ألفاً من الجنيهات بسط يده كل البسط فى مشروع خيرى . بل أرونى رجلا واحداً صرف من ريعه ألف جنيه فى أى مشروع مع أنه لو صرف هذا المبلغ لما تغير نظام معيشته ، ولما تحول هناؤه وغناه إلى فقر . إنكم لن تجدوا هذا الرجل » .

« وضعوا أنفسهم موضع القادة للأمة ، فأرونى أى عمل أنجزوه غير تزاحمهم على الرئاسة ؟ وغير تقاتلهم على تضحية الأمة فى سبيل أمانيهم و إثرائهم ؟ فقوموا وقولوا لهم : إن لنا نصيباً وافرا مما تملكون . إن لنا عليكم حقوقاً يجب أن ننالها

عفواً أو قسرا . بل قوموا واصرخوا فى آذانهم بأصواتكم العالية لعلهم يسمعون . بل قوموا لتعلموهم — إن كانوا لا يعلمون — بأن بقاء سبعة أعشار الأمة فى الفقر والجهالة وعدم القدرة على تدبير شئونها لما يؤخر الثلاثة الأعشار مهما كانت مرتقية ومتحضرة » .

« قوموا وقولوا لهم : إن من الحرام فى شريعة الله وشريعة الإنسانية أن تقفوا أيها الأغنياء سداً منيعاً فى وجوهنا . فلا أنتم تعملون لصالحنا ، ولا أنتم تتركونا نعمل بأنفسنا وقوة نوابغنا وعقلائنا للمحافظة على كياننا ومستقبلنا . قوموا واطلبوا من الصحف أن لا تكبر وتمجد فيهم إلى درجة الألوهية ليعلموا أن الغنى هو من ضحى حياته وماله لخير أمته ، لا الغنى الذى يتخذ أمته سلماً يصعد عليه إلى جبل الذهب وهيكل الفضة » .

« علموهم أن أغنياء الأمم الأخرى يهبون أموالهم لأمتهم ووطنهم وهو ثمرة جهادهم الطويل . علموهم أن يتركوا أموالهم لأمتكم ، والعلم والتربية الصالحة لأولادهم ، فهى أحسن تراث لهم . علموهم أن المال من الوطن ومن الأمة ، ويجب أن يعود إلى الوطن وإلى الأمة » .

« أما أنتم أيها الأغنياء فتذكروا أن عليكم واجبات مقدسة . تذكروا ذلك ، واعلموا أنى ما كتبت بالقلم الصارم لأجرح عواطفكم ، بل لأمس أوتار قلوبكم ، وأحرك نخوتكم وشهامتكم وقوميتكم . وحسبى من هذا الحض رفع شأن أمتى ، وحسبكم من النخوة بقاء الذكر ، ومن الشهامة حسن الأثر ، ومن القومية بعد الصيت » .

وفى هذا المقال تحريض سافر للفقراء من الأقباط على الفتك بالأغنياء من أبناء دينهم ، لأن استخدام القسر فى أخذ الحقوق لا يكون إلا بقتل الأغنياء

والاستيلاء على ثرواتهم . أو بالنهب والسلب ، وهذه أمور لا يسمح بها أى دين من الأديان ، ولا يقرها قانون من القوانين .

* * *

وعلى كل حال فقد كثر فى الأدب القبطى التحدث عن الفقراء والأيتام، وتصوير ما يلاقونه فى الحياة من البؤس والشقاء ، والذل والهوان فى صورة تستدر العطف وتستدعى الشفقة ، وترقق القلوب . مثال ذلك قول نصر لوزا الأسيوطى من قصيدة[1] .

طفلان : هذا رافل فى عزّه ... فرح ، وذاكَ مُرَوَّعٌ ومُضامُ
يارَبِّ فى الأحكام إنك عادل ... حاشا تجور لعدلك الأحكامُ
يارب أنت أبو اليتيم وعمه ... إن فاتت الآباء والأعمامُ
لله أقوام ترقُّ قلوبُهم ... وتعالج المقدورَ وهْوَ جِسامُ
شُغِفوا بإسداء الجميل فعلهم ... بين الورى الإحسان والإنعامُ
لو أبصروا مُتَيتما متألما ... يتألمون كأنهم أيتامُ
بهمُ تُكَفْكَفُ لليتيم دموعُه ... وتُخفف الأوجاع والآلامُ
فاضت أكفهمُ بِشُؤْبُوبِ النّدى ... ومن الأكف سحائبٌ وغَمامُ

وله من قصيدة أخرى[2] :

تُعَيِّد اليومَ بين الأهل فى جَذَلٍ ... والجار فى فقره أنَّى له الجَذَلُ
ماذا يفيدكَ مالٌ أنت عابدُهُ ... لا المالُ ينفع فى الأخرى ولا الحُلَلُ
إن كنتَ تبغى ادِّخارا فادَّخِرْ عملا ... يبقى دواما إذا ما ينقضى الأجلُ

(١ ، ٢) الوطن فى ٥ — ٤ — ١٩١٦ ، ٣ — ١ — ١٩١٢ ، ٢٧ — ١٢ — ١٩١٢ .

تبددُ المالَ فى لهو وإن أحَدٌ رجا نوالا يفاجئْ كفَّكَ الشَّلَلُ
من أين تهرب من يوم الحساب وما يحميك سهل من العُقْبَى ولا جبلُ؟!
إن كان فى الدين تفضيل نَقِرُّ بِهِ فالجود أفضل ما حثَّت به الملل

الخ . . .

وقال رياض غبريال[1] :

وابنة الكوخ من يصغى لصرختها ولوعة الفقر قد أدمت مآقيها
أتندب الجوع أم تشكو التَّعرِّىَ أم تبكى التجرُّدَ من إلفٍ يواسيها
تُغالب الدهرَ والأيام تغلبها فالبؤس ينشرها والبؤس يطويها
لو كنتُ صخراً وجاءتنى بدمعتها لذوب الدمع صخرى فى تلبِّيها

كثر هذا النوع من الشعر عند الأقباط كثرة هائلة ، وكانت القصائد التى تنظم فى المناسبات الدينية تتضمن الدعوة إلى البذل والإنفاق فى سبيل الخير ، والحض على التبرع للمشروعات الخيرية التى يراد بها مساعدة الفقراء والتخفيف عن آلامهم ، وتبشر المنفقين أموالهم فى هذا السبيل برضا الله ورضوانه . وتنذر البخيل بسوء العاقبة ، لأنه أمسك أمواله وتركها للصدإ . فهو لم يعمل شيئاً ينتفع به فى الدنيا أو فى الآخرة . وتنذر الذين ينفقون أموالهم فى ملذاتهم مع إمساكهم عن مساعدة الفقراء بغضب الله وعقابه .

* * *

ونرى من الشعر الذى أوردنا بعضه فى مشروع كلية البنات أن هذا المشروع كان محور الدائرة عند الأقباط ، وأنهم نظروا إليه على أنه مسألة حياة أو موت

(١) الوطن فى ٥ — ٤ — ١٩١٦ ، ٣ — ١ — ١٩١٢ ، ٢٧ — ٤ — ١٩١٢

بالنسبة لهم . وأن مستقبلهم مرتبط بتنفيذه ؛ إن نجحوا فى ذلك فقد ضمنوا لأنفسهم حياة المجد والرفعة ، والغلبة والنصر ، والتقدم والرقى . واستحقوا أن ينسبوا للفراعنة ، وازدادت آمالهم فى استعادة مجد الآباء والأجداد . وإن أخفقوا فالويل لهم ، والعار يلحق بهم ، والموت الزؤام ينتظرهم .

وليس من السهل علينا ولا على الأقباط أنفسهم ، أن يدركوا كيف نبتت هذه الفكرة فى الأوساط القبطية ؛ أى فكرة ارتباط مستقبلهم بنجاح هذا المشروع أو إخفاقه . قد يكون الخوف من سلطان المدارس الأجنبية وتأثيرها فى عقيدة أبنائهم و بناتهم خلق عندهم هذه الفكرة . ولكن هل إنشاء كلية للبنات فى مدينة القاهرة يكفى لحماية العقيدة الأرثوذكسية بين أقباط مصر من أسوان إلى الإسكندرية ؟ لعل هؤلاء الأدباء استوحوا فى شعرهم و نثرهم ما كان يقوله كتاب المسلمين وشعراؤهم فى مشروع الجامعة المصرية . مثال ذلك قول حافظ إبراهيم :

ولا حياة لكم إلا بجامعة ... تكون أمًّا لطُلاَّب العلا وأبَا

* * *

ولما افتتحت كلية البنات[1] فى ١٧-٣-١٩١٦ اشتد فرح الأقباط ، وعظم سرورهم . قال جندى إبراهيم :

يَرَاعُ العلا سطِّرْ فإنِّىَ مُغرَمٌ ... بتسطير آيات بها القبطُ تكْرَمُ

وبيِّن لهذا الدهر ما أنت أهلُهُ ... فإنك إن لم تنظم الدرَّ تُحْطَمُ

سمعتُ نداء من سمائكَ عالياً ... يُنادى أجيبوا صوتنا وتعلموا

(١) الوطن فى ١٨/٣/١٩١٦

فذكَّرنى صوتٌ كريمٌ سمعتهُ ... مُناجاةَ موسى يوم ناجاهُ مُنْعِمُ
وأبصرتُ إثْرَ الصوتِ شمساً جديدةً ... تغالب شمس الكون قهراً وتهزِمُ
وأنَّى لها تبدو ويشرقُ نورُها ... لدينا وشمسُ العلم أزهى وأعظمُ
تجلَّتْ عروسُ القبط فى مهرجانها ... وبين أياديها كواكبُ خُدَّمُ

* * *

وكان شعراء الأقباط ينظمون القصائد الطوال فى المناسبات القبطية كعيد الميلاد ، وعيد القيامة ، وعيد النيروز وغيرها . قال نصر لوزا[1] الأسيوطى من قصيدة طويلة فى عيد الميلاد :

لأَنْتَ أفضل يوم بتُّ أرقبه ... وأنتَ تاج لهام الدَّهر معقودُ
ففيك لاح الهدى للخلق أجمعهِ ... إذ جاء من مريمَ العذراء مولودُ
وجاء مريمَ جبريلٌ يبشرها ... وبان نجمٌ له فى الشرق مسعودُ
من ذا الوليدُ الذى خرتَّ لهيبته ... له الرُّعاة وحَيَّته الأناشيدُ ؟
من ذا الذى عاش فى الدنيا بلا خَطَلٍ ... وكان دَيدَنَهُ الإحسانُ والجودُ ؟
من ذا الذى كان يُحْيِى الميتين ولو ... ضَمَّتهمُ فى الثرى تُرْبٌ وجُلمودُ ؟
الله أكبر فلْتَخْشَعْ قلوبُكم ... هذا المسيح الذى للخلق معبودُ
ابن المهيمن فادينا وخالقنا ... مَن بابُه مِن جميع الناس مقصودُ
تذكروا يومَ ميلاد المسيح ولا ... تنسَوا ففى ذكره لله تمجيدُ
تذكَّروا يومَ ميلاد المسيح ففى ... ذكرى المسيح لكم طُهرٌ وتجديدُ

الخ . . .

وفى هذه القصائد تظهر بوضوح معتقدات المسيحيين فى عيسى ابن مريم .

---

(١) الوطن فى ١٩١٢/١/٩

وقد نوه الشاعر بميلاده والمعجزات التى جرت على يديه . وصاغ ذلك فى أسلوب الاستفهام المراد به التقرير . ثم انتهى من هذا الاستفهام إلى الإشادة بعظمة عيسى وسمو مقامه وعلو محله . فقال إنه الخالق والفادى الحبيب ، والمخلص والمنقذ من الضلال . ثم دعا أبناء طائفته إلى تعظيم يوم الميلاد وتمجيده ، والاحتفال به احتفالا يليق بهذه المناسبة . وقال إن ذكرى الميلاد تطهر الأجسام والأرواح . وتبعث الإنسان بعثاً جديداً ، وأن الاحتفال بهذه الذكرى يقرب الإنسان من الله .

وقال رفائيل[1] نخلة اليسوعى فى عيد الفصح :

فى يوم عيد الفصح تزهو القاهرهْ	من فيض أنوار الربيع الباهرهْ
بقيامة الفادى تكامل سعدها	وبدت بشاراتُ السرور النادرهْ
فسماؤها زرقاء صافية خلت	من دُكنة السحب العبوس الماطرهْ
قام المسيح إلهنا من مدفن	ألقته فيه ذنوبنا المتكاثرهْ
فأرى النصارى كلهم فى شخصه	إن الصليب ينيل مجد الآخرهْ
غنى أيا يا أجراسُ إن شقاءنا	دربٌ لأفراح السماء الطاهرهْ

إلخ . . .

مزج الشاعر بين وصف مدينة القاهرة فى أيام الربيع ، وما بدت عليه من بهجة وسرور بمناسبة عيد الفصح . ووصف سماءها الصافية ، وجوها اللطيف ، وأشجارها المورقة . والأجراس التى تدق فى الكنائس لتعلن عن عيد القيامة المجيد .

---

(١) ديوانه ص ١٩٨ ط الإحسان بحلب سنة ١٩٥٣

وقال : إن المسيح صلب ليخلص الناس من أوزار خطاياهم ، وأنه قام من قبره ، وصعد إلى السماء . والنصارى كلهم يتمثلون فى شخص المسيح لأنه أبوهم وفاديهم ومخلصهم . وكل مسيحى يحمل صليبه ويتمسك بتعاليم دينه يظفر بالحياة الأبدية . وما يتحمله من البلاء والمصائب إن هو إلا امتحان من الله له ، فإذا نجح فى هذا الامتحان دخل الجنة .

***

وقال نصر لوزا[1] فى عيد القيامة من قصيدة طويلة :

رفعتَ لنا عيسى المسيح ابنَ مريم ... إلى موطن فيه الإله يرحّبُ
تظلله وقتَ الصعود سحابة ... يحف بها من عسكر الله موكبُ
على عرش مجد الله يجلس آمراً ... ومن حوله أملاكه تتأهبُ
صحائف كل العالمين بكفه ... مزيلُ خطايا الناس أيانَ تطلبُ
من البدء موجود ولليوم كائن ... وفى الغد مثل البدء واليوم يقربُ
هو النور ما بين السموات والهدى ... على الأرض وهو الروح والإبن والأبُ
إلى مريم العذراء جبريلُ قد أتى ... وزفَّ لها بشرى لها الأرض تطربُ
وحلت بها روح الإله فأنجبت ... غلاماً إلى الله المهيمن ينسبُ

ومنها وفيه إشارة إلى ما فعله اليهود معه :

أحاطوا به كى يقتلوه تعمداً ... وحقداً وقالوا إن ذلك يصلبُ
تلاميذه ولَّوْا جميعاً فما رأى ... من الناس مخلوقاً إلى الصلب يُسحبُ
فأنكره فى الضيق بطرس جاهداً ... وسلمه عمداً يهوذا المذبذَبُ

ومنها :

(١) الوطن فى ١٩١٢/٥/١ .

فبينا مسيح الرب تجرى دماؤهُ ... إذ الشعب يلهو كالصغار ويلعبُ
يناديهمُ هاتوا من الماء جُرْعة ... بها يستقى قلبى الكليم ويشربُ
فأعطَوْا له كأساً من الخل علقماً ... كأن الذى فى الكأس سم مُذَوَّبُ
فسلم روحاً للإله وديعــــة ... ونام ببطن الترب لا يتهيَّبُ
ثلاثة أيام قضاها بحفرة ... وقام كما قال المسيح المغلب
شعوبك ضلَّتْ يايسوع وقد بدا ... لكل امرئ فى مذهب الشر مذهب

أنخ . . .

تحدث الشاعر فى هذه القصيدة عن موضوع صلب المسيح كما يعتقد . فذكر ما فعله اليهود به قبل صلبه ، وكيف هرب تلاميذه واختفوا حرصاً على أنفسهم وخوفاً من بطش اليهود . وكيف أنكره بطرس وتبرأ منه . وكيف خانه يهوذا الأسخريوطى حين أرشد اليهود إلى مكانه نظير مبلغ ضئيل من المال . وتحدث عما جرى على المسيح وهو على الصليب ، وكيف أن اليهود قدموا له الخل ليشربه حين طلب قليلا من الماء . وذكر موته ودفنه ، ثم قيامه من القبر وصعوده إلى السماء تظلله سحابة بيضاء ، وتحيط به الملائكة إلى أن وصل إلى العرش الإلهى وجلس عليه يأمر وينهى ، والحرس حوله على قدم الاستعداد لتنفيذ أوامره . وقال إنه مطلع على خطايا البشر ، وأنه يزيل هذه الخطايا متى التمس أصحابها ذلك وأظهروا التوبة .

وهذا الشعر الدينى يمتاز بصدق العاطفة ، وتدفق الأحاسيس ، وتوقد المشاعر . وهذه كلها من عناصر الإجادة فى الشعر .

* * *

وظهر فى العصر الحديث عدد كبير من الصحف والمجلات القبطية . فمن الصحف : صحيفتا مصر والوطن . والأولى مازالت تصدر إلى اليوم وإن كانت محصورة فى عدد من المشتركين. ومن المجلات التى كانت تصدر : مجلة فرعون، ورعمسيس ، والمنارة المرقسية ، والأسد المرقسى ، والشبيبة القبطية ، ومجلة التوفيق التى رجعت إلى الوجود مرة أخرى بعد أن اختفت مدة طويلة . ومجلات : الإخلاص ، والصخرة ، والفدا ، ورسالة المحبة وهى من المجلات التى تصدر اليوم وهى واسعة الانتشار بين الأقباط .

وكان لهذه الصحف والمجلات أكبر الأثر فى خلق الحركة الأدبية بين الأقباط . فغدت منابر لشعرائهم وكتابهم ينشرون فيها ما تجود به خواطرهم فى مختلف الأغراض . وتعتبر الفترة التى سبقت الحرب العالمية الأولى — ١٩١٤ — العصر الذهبى لأدب الأقباط وصحافتهم .

الباب الثالث

القومية الفرعونية وأثرها فى الأدب القبطى

يعتقد الأقباط أنهم من نسل الفراعنة ، لم تختلط دماؤهم بدماء أجنبية عربية وتركية أوغيرها . قال رمزى تادرس[1] تحت عنوان «الشعب القبطى» مانصه : «الشعب القبطى بقية أمة عريقة فى المجد ، تليدة فى الشرف ، كبيرة فى السلطان ضخامة الملك » ولذلك أخذوا يروجون للقومية الفرعونية ويفضلونها على سائر القوميات ، ويدعون إلى التمسك بها . وكانت تعجبهم مقالات أحمد لطفى السيد فى الوطنية المصرية ، والقومية المحلية . ومما جاء فى إحدى هذه المقالات :

« إن[2] منا من لاينفك يفخر بانتسابه إلى العرب الأولين كأنما انتسابه إلى الجنس المصرى نقص وعيب . ولايزال بعضنا ممن دست فيه العروق التركية يميل إلى تضحية العصبية المصرية للعصبية التركية ، كما أن منا من يفضل الرابطة الدينية على الروابط الجنسية والوطنية . فإن لم نذهب عنا — بعزيمة — هذا التحلل تمت أسبابه ، وفشت نتائجه ، وتعذر علينا أن نوسع بيننا دائرة المشابهات ونضيق دائرة الفروق . وبقينا كما كنا فى الماضى نقضى حياتنا القومية تابعين للصدفة ، بعيدين عن أشرف الأغراض القومية ؛ وهو الاستقلال » .

ويعلق كاتب قبطى على هذا الرأى فيقول[3] :

« ... فالقبطى له أن يفخر لإحيائه عيداً مصرياً — عيد النيروز — وروحا

---

(١) مقدمة تاريخ الأقباط فى القرن العشرين .

(٢) الجريدة فى ٥ — ٢ — ١٩٠٨ .

(٣) الوطن فى ٧ — ٢ — ١٩٠٨ .

مصرياً . القبطى مصرى قبل كل شىء . فإذا ماهو عيد وحده العيد المصرى : فهذا موطن نخر له ، لأنه حافظ على جنسيته ولم يعتنق جنسية أخرى . ولو كان المصريون أحلوا الاعتبار الجنسى محل الاعتبارات الأخرى ، وحافظوا على الجنسية المصرية قبل كل شىء آخر ؛ أقول لو كانوا فعلوا ذلك لـكان شأنهم غيره الآن » .

« نحتفل نحن الأقباط بعيد النيروز ، عيد رأس السنة المصرية ، لا كما يعيد غيرنا غربياً كان أو شرقياً عيداً دينياً بحتا » .

« نحتفل بذلك العيد فنبقى على كل شىء من ممثلات مصريتنا الممزقة ، ونحفظ أثراً لازم الحفظ ، دالا على وجود حى ، دالا على مصر ، ولا شخصية غير الشخصية المصرية البحتة ، ولا نسبة غير النسبة المصرية » .

« هل نعاب إذا أحيينا شيئاً يدل على مصر ووجود مصر ، ويبعث فينا روحاً مصرياً نحيا له ونموت لأجله ؟ » .

« ماالذى أضعفنا سوى إماتة الروح المصرية ، والقضاء على كل صبغة مصرية ، وشخصية مصرية ؟ حتى كدنا نـكون ولا شخصية معينة لنا ، ولا يحفظ الأمم سوى الاحتفاظ بمشخصاتها » .

« مالنا نهرب من مصريتنا كأنها داء الجرب ؟ ومالنا ننكرها كأنها عار ؟ » .

* * *

وفى هذا المقال تعريض بالمسلمين لأنهم يحتفلون بأعيادهم الإسلامية ، والإسلام دين غريب عن مصر كما يقول ، فلا ينبغى أن يحتفل بأعياده ، بل يجب أن نحتفل بالأعياد المصرية فقط . وهو يعيب على الغربيين كذلك احتفالهم

بالأعياد المسيحية لأنها أعياد أجنبية عنهم . فكأنه والحالة هذه يدعو إلى ترك الأديان المسيحية والاحتفالات الدينية كلها الإسلامية والمسيحية . إن الدين السماوى لا ينزل لأمة معينة فى وطن معين ، وإنما ينزل للناس كافة . فأى عيب إذا اشترك الناس من أبناء الدين الواحد فى مشارق الأرض ومغاربها فى الاحتفالات الدينية ؟ ولم يقل أحد من المفكرين إن القومية تستلزم التخلى عن الدين والاحتفالات الدينية .

وعلى كل حال فإن فكرة القومية الفرعونية ظهرت لمعارضة فكرة الجامعة الإسلامية التى كان يروج لها الحزب الوطنى بنوع خاص ، وحزب الإصلاح الذى كان يرأسه الشيخ على يوسف صاحب جريدة « المؤيد » وحدث أن انهزمت تركيا فى الحرب العالمية الأولى ، وظهر مصطفى كامل الذى أخذ بفكرة القومية التركية ، وتخلى عن كل فكرة إسلامية ، وتبرأ من السمات الشرقية ، وصبغ بلاده بالصبغة الأوربية ؛ حينئذ اختفت فكرة الجامعة الإسلامية من مصر ، بل من جميع البلاد التى تدين بالإسلام . وأقبل المصريون جميعهم على اتخاذ الشعارات الفرعونية .

* * *

وكان الأقباط قد اتخذوا من اسم « رمسيس » شعارا لهم ، ولقبوا أنفسهم بأحفاد رمسيس ، وأنشأوا ناديا خاصاً بهم يحمل هذا الاسم ، وظهرت مجلة « رعمسيس » . ولما وسع اللورد كتشنر ميدان باب الحديد وجعله بالصفة التى هو عليها الآن وكان ذلك سنة ١٩١٣ م اقترحوا عليه أن يحلى الميدان بتمثال من تماثيل هذا الملك . فوافق على الاقتراح على أن ينقل التمثال الذى كان بالبذرشين . قالت صحيفة الوطن (٩ / ٧ / ١٩١٤) « قال المسيو ما سبيرو

فى حديث له مع إحدى الجرائد الإفرنجية إنه يعلم عن ثقة أن لورد كتشنر ينوى أن يفتح اكتتاباً فى انجلترا لجمع المال اللازم لنقل تمثال رمسيس ونصبه فى ميدان باب الحديد ، وذلك حتى لا يكلف الخزينة المصرية هذه النفقة » وقد تم نقله سنة ١٩٥٥ وهو المقام حالياً فى ميدان رمسيس « باب الحديد » .

وكان بعض الأقباط يطلق على أبنائه أسماء فرعونية .

* * *

وفى سنة ١٩١٣ سافر وفد من أدباء الأقباط إلى مدينة الأقصر ، وذهبوا إلى معبد الكرنك . ولما صاروا أمام أحد تماثيل رمسيس الأكبر انبطحوا على الأرض ، وتمرغوا فى التراب ، وتقلبوا فى العفار والهَبَاب ، ورفعوا أصواتهم بالبكاء والعويل ، وسالت دموعهم كل مسيل . واشتد الصياح ، وعظم النواح .

وكان نصر لوزا الأسيوطى يقول[1] :

رمسيسُ قموانظر الأحفادَ كيف هُمُ ... ذَلُّوا وكيف على بلواهمُ صبروا
رُحماكَ رُحماكَ قم وانظر بعينك ما ... قد خبَّأتْه ليالى الغـدرِ والقهرُ

وأخذوا يرددون هذين البيتين وهما من قصيدة طويلة بكى فيها الشاعر على زوال دولة الفراعنة ، وتغنى بأمجادهم ، ومطلعها :

قف عند طيبةَ يا مَن فاتَه الأثَرُ ... عسى يجيبك إن ناديتَه الحجرُ
وسائِل الصخر عن قوم مَضَوْا وَبقَتْ ... أفعالهم ، فهناكَ الخُبْرُ وَالخـبَرُ
هناكَ تلقى مـلوكَ القطر باقية ... فيها وكم من ملوك العالم اندثروا
هناكَ تلقى بها الأمواتَ راقدة ... كأنهم نُوَّمٌ أضنـاهُمُ السهرُ

---

(١) الوطن فى ١٩١٣/٨/١٦

هناك تلقى من الأحجـــار أبنية　　نظيرها ما بنى بدوٌ ولا حضَرُ
هناك تلقى صروحِ المجد قائمة　　تــكاد تنطق فيها الآىُ والسُّوَرُ
هناك قف واعتبر كيف انقضت دولٌ　　فى العـالمين عساهـا تنفع العِبَرُ

* * *

وانظر تجدْ فى توابيتٍ فراعنةً　　لـكل جيل بهم وعظ ومُزْدَجَرُ
هم حاربوا كل شىء غيرَ أنهمُ　　على محاربة المقـــدور ما قَدَرُوا
تضمنتهم بطونُ الأرض مظلمة　　وكم زهت بهمُ التيجان والسُّرُرُ
ضاقت بهم كل أرض ينزلون بهـا　　لهفى عليهم وما ضاقت بهم حُفَرُ
قد صيروا أمم الدنيـــا مُسَيَّرَةً　　فالنهىُ إن هم نَهَوْا والأمر إن أَمَرُوا
يا ويح سهمِ المنايا كيف جار على　　فراعنِ الدهرِ مَن شادوا ومَن ظفروا

* * *

يَمَّمْتُ طيبة ملتاعاً لرؤيتهـا　　ونار قلبى من الأشواق تستعرُ
أسعى إليها وقبلى ما سعى أحد　　إلا تَوَلَّاه فى وصف لها الْحَصَرُ
سارت إليها شعوب الأرض قاطبة　　كأنهـا عند بيت الله تعتمرُ
فى كل عام لهم حَجٌّ وَمُنْتَجَعٌ　　وإن تمادَى النَّوَى أو أتعب السفرُ
كأنها جنة رَادُ الربيع بهــــــا　　بين المـــــلا زُمَرٌ يتلوهمُ زُمَرُ
يأتون كى ينظروا فعل الفراعنِ مَنْ　　سادوا على كل من فى الأرض وانتصروا

* * *

لهم على الأرض بنيان له عُمُدٌ　　تحار فى صنعه الألبابُ والفِـكَرُ
هل مثل كرنك فى الآفاق أبنيةٌ　　أو مثل بِربةَ ما بين الورَى أثرُ؟!
يا ناظر الكرنك اخشع إن دخلت به　　فأنت فى معبد تاريخه عِــــبَرُ

كم فيه صلّتْ ملوك وابتغت أمم   صفحَ الإله لكى يُقضى لها وَطَرُ
فيه البخورُ إلى ذا اليوم مرتسمٌ   فى سقف هيكله لم تمحه الغِيَرَ
فيه التماثيل كالأقوام شامخة   كأن فى أنفها مما بهم كبرُ
تعنو الجباهُ إليها وهْىَ خاشعة   منها ويقصر عن إدراكها النظرُ
كذاك ربة رمسيس بها نُصُبٌ   تكاد تنطق لولا أنها حجرُ
بها تماثيل رمسيس وزوجته   قد بات يطريهما التاريخ والسِّيَرَ
أسرى الفراعن فى حيطانها رُسمت   رهنَ القيود وهذا بعض من أسروا
من بين أسراهم فى صخر ربتهم   الفرس والروم والأحباش والتتر

* * *

رمسيس قم وانظر الأحفاد كيف هُمْ   ذلُّوا وكيف على بلواهم صبروا
رُحماك رحماك قم وانظر بعينك ما   قد خبَّأته ليالى الغدر والقَهَرُ
أصبحت إن أنظر الآثار دارسة   ترى الدموع على عَيْنَىَّ تنهمرُ
تركتها بعد فرط الحزن ملتمساً   دار الحبيب لينأى عَنىَ الكَدَرُ
ثم انتهينا لأبواب الملوك بها   حيث الفراعن فى أجوافها قُبِرُوا
رأيت فى الصخر أنفاقاً ذُهلت بها   فقلت هذى بناها الجن لا البشرَ
وقد يحار الفتى فيها هناك إذا   رأى النقوشَ التى من حولها الصورُ

* * *

قبور موتى ولكن كالقصور إلى   أمثالها المرء فى سُكناه مفتقرْ
مَنْ أبصرَ النقش فيها ظن ناقشها   قد بات حيًّا لنيل الأجر ينتظرُ
لا يوجدُ اليوم تحت الشمس مُخْتَرَعٌ   إلا وكان لهم من بعض ما ابتكروا
هناك فى طيبةَ المعروفُ أنطقنى   بالشعر فوراً فلا عجزٌ ولا حَصَرُ

وشيخها الشهم أطرانى وأكرمنى   فالتف حولىَ من أتباعه نفرُ
قد حرَّم السحرَ موسى غير أن له   آيات سحر حلال دونها الدرر
نسيت فى حَيِّهم أهلى ولا عجبٌ   ففضلهم من قديم الدهر مُدَّخَرُ
واليوم يطربهم قولى ويمدحهم   للنـــاس منتظم منى ومنتثر
ولست ماعشت أنسى مدة قُضيت   بأرض طيبة حتى ينقضى العُمُرُ

وله قصيدة أخرى طويلة نشرت تحت عنوان « على سفح الأهرام[1] » أوردناها فى المختار من شعره .

وقال عزيز بشاى من قصيدة[2] طويلة فى توتنخ آمون :

خالىَ المجد أعد فينا المقـــاما   عاد فرعون إلى الدنيا وقاماَ
رُبَّ مَيْت ملأ الدنيا علاً   وأعاد المجـــد فيهــا وأقاماَ
لا تقل مَيْت وقل حىٌّ علَى   قبـــة العلياء ما ملَّ المقاماَ
إيه يا « توتنخ آمون » الذى   لم تنم عينــاه حين الدهر ناماَ
كذبوا إن قيل أفناك الردى   أنت أفنيت الدنا عاماً فعاماَ
يا جلال الملك أيقظت الورى   ومنيرَ التاج أعليت الأناماَ
أنت سرٌّ باحتِ الدنيا به   فأنار السرُّ فى الدنيا الظلاماَ
ملكَ الوادى استفق من رقدة   فلقد أكثرت فى الوادى المناماَ
ألقِ عن جنبيك جلباب البِلَى   ربما اسطعتَ من الموت القياماَ

ألخ . . .

---

(١) المقطم فى ١٩١٢/٨/٥ .
(٢) السياسة فى ١٩٢٢/٣/١٠٢ .

وقال رفائيل نخلة[1] تحت عنوان « موعظة الأهرام » :

فيكُنَّ قد راعَتْنِيَ الأجرامُ　　　يا فخر وادى النيل يا أهرام
لم ندر قبلك أن أكوام الصفا　　　ترقى إلى حيث استقر غمامُ
لم ندر قبلك من رموس عواهل　　　ستين عاماً شادها الأقوامُ
آلافُ آلافٍ بنَوْكِ وأُلحدوا　　　أفنتهم الآراب والأسقامُ

ألخ . . .

وقد أوردناها كلها فى المختار من شعره .

* * *

وفى الانتساب إلى الفراعنة[2] يقول إسكندر قزمان من قصيدة :

إن فُقتِ يا ابنةَ رمسيسٍ فلا عجبٌ　　　عن أمهاتك فى طيبا وآبائكِ
كم شدتِ فى مصر صرحاً للرقّ وما　　　علياء غيرك إلا بنت علياكِ

وقال تادرس وهبى[3] من قصيدة فى مدح بطرس غالى حينما تولى رياسة الوزارة سنة ١٩٠٨ .

فيا سلالة مينا والشىء بالشىء يذكر

وكان تادرس وهبى فى طليعة كتاب القبط الذين تغنوا بأمجاد الفراعنة . فمن ذلك قوله فى مقدمة تمثيلية : « عنوان التوفيق فى قصة يوسف الصديق » . « إن لمصر فى التاريخ لشأناً دونه الفرقدان ، وفخراً يرويه عنها من أبناء الزمان قاص ودان ، لأنها البقعة المباركة التى ضربت فيها سرادقات العمار ،

---

(١) ديوانه ص ٢٢٩ .
(٢) الوطن فى ١٩١٣/١٠/١٧ .
(٣) الوطن فى ١٩٠٨/٥/١ .

والكعبة التي كان بها للطائفين هناك اعتمار . ولكم يؤمها الآن حريص من العلماء على مشاهدة آثار القدماء ، فيتهيب أنّى جاء تلقاء أبي الحجاج أو الهرمين تهيُّبَ جماعة الحجاج ساعة زيارة الحرمين . ولو هاله أبو الهول وهو يحدق لعين شمس ، ويفرق بين حاله اليوم وما كان عليه بالأمس لارتضي بالدلالة الالتزامية قولا شارحاً لعظم هاتيك القرون ، حينما كانوا يبيعون المعارف لسواهم من الأمم ولا يشترون . ثم أوسعهم الدهر حسداً ، وكر عليهم بصروفه أسداً . فاضطروا لأن يستبدلوا الإقدام بالإحجام ، وأن يدينوا وهم صاغرون للملوك الأعجام الذين طفقوا يقيمون عليهم من حيث لا يحتسبون أدلة ، وإذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة » .

* * *

وظهرت حركة ترمى إلى إحياء اللغة القبطية ، لأنها كما قالوا لغة البلاد المصرية ، ولغة العبادة ، ولغة المدنية القديمة والجديدة . قال أحدهم :

« لكي تتوفر[1] القومية المتينة فى شعب من الشعوب لابد لأفراده وجماعاته من الاتفاق فى وجوه ثلاثة : الوطن ، واللغة ، والدين . وعلى نسبة توفر هذه الوجوه تكون قوة التماسك فى ذلك الشعب » .

« إننا نتكلم بلغة غير لغتنا . ودييننا قد انمسخ بتعاليم غريبة لم نجن من ورائها غير التنابذ والشقاق . فإذا أردنا أن تكون قوميتنا سليمة قوية فلابد من كنيسة واحدة ، ولغة واحدة ننضم تحت لوائهما ونحبهما ونفتخر بهما . وأما حال التذبذب وعدم الاكتراث التى نحن فيها هذه فإن هى إلا من مقدمات الخذلان

(١) مجلة المفتاح عدد فبراير سنه ١٩١٢ .

والموت ، لأن الإنسان لا يمكنه أن يحب كنيستين أو يفتخر بلغتين ، كما لا يمكنه أن يخدم سيدين » .

وقال آخر (١) :

« إن هذه اللغة — القبطية — ليست من اللغات الجامدة أو الميتة التى يضيع الوقت فى إحيائها عبثاً .. بل هى لغة كانت فيما مضى لغة أمة عظيمة ذات تاريخ وآداب ومعاملات . ولابد أنها فى تلك العصور الخالية كانت كافية بحاجتها ، حافلة بالألفاظ والتعبيرات الدالة على كل التصورات والأفكار التى تتكون من مجموعها حياة الأمة . فما أوصلها إلى هذه الحالة إلا الإهمال والترك اللذان نشآ عن الظروف السياسية القاهرة . فإذا أبدل الأقباط إهمالهم بالهمة والجد والنشاط فى تعلمها جددوا شبابها لا محالة ، وألبسوها حلة قشيبة من الحياة . عدا هذا فإن هذه اللغة ستبقى ما بقى الجديدان لغة العبادة . فمصلحة الأقباط الدينية تقضى عليهم أن يفهموها جيداً حتى لا يظل بينهم و بين كنيستهم هذا الحاجز الذى نراه الآن » .

« إن مصر اليوم تقول : أيها المصريون ، مهما أنكرتمونى بتعلم اللغة العربية أو الفرنسوية ، أو الإنجليزية ؛ فإن الألفاظ القبطية منتشرة على ألسنتكم وأنتم لا تدرون . فاذهبوا إلى المراكب تجدوا أصحابها يقولون « هيا ليصة » أى المساعدة . اذهبوا إلى الحقول تجدوا الفلاحين يقولون « الدميرة حضرت » أى الطمى البحرى جاء . وغير هذا كثير » .

« فهذا دليل ظاهر على أن أصلهم مصرى قبل أن يكون عربياً ، وكذلك يجب أن نتعلم اللغة القبطية » .

---

(١) الوطن فى ١٩١٦/١/١٣

وكتب فرنسيس العتر فى مجلة « الحكمة »[1] سنة ١٩٤٠ مقالا حاراً جاء فيه :

« هُبّوا من رقادكم ، واعملوا على إحياء لغة آبائكم وأجدادكم ، فلا يفرط فى تراث الآباء والجدود إلا ابن نغل حقت عليه اللعنة وباء بالخسران » .

« نعم . إن الأمم القاهرة قد فطنت منذ القدم إلى أن خير خطة تجرى عليها فى تقرير فتوحاتها ، واتقاء سورة المغلوبين إذا استفزهم من ناحيتها ضيم ، إنما هى خطة إضعاف اللغة القومية ، والنزول بها إلى الحضيض . وتقوية اللغة الأجنبية والصعود بها إلى السماكين . ولكن على الشعب المغلوب على أمره أن يجاهد فى سبيل صون جنسيته بإحياء لغته بين طبقاته عامة ، وطبقة المربين خاصة . لأنه ما دام للشعب لسان بلغته ناطق ، وجنان بأمنيته خافق ، وعزم فى إرادته صادق ، فتحقيق أمنيته مكفول ، ونجاحه لا ريب مأمول » .

« ويالشقاء قطر غلب على أمره ، ثم أغفل قادته شأنه فلم تجتمع عزائمهم على إحياء لغتهم الناطقة بسالف عزهم » .

« يالشقاء هذا القطر إذا استسلم للهزيمة ، وجعل لغته بين الغنيمة ، ويالشقاء أمة كانت لغتها على لسان السلف أفصح من نظرة المحب ، فأمست على لسان الخلف أسقط من حجة القاصر . وكانت لها دولة فباتت وليس لها من أثر غير كتب تقتنى كما تقتنى التحف والعاديات . وكانت على شفتى أهلها ابتسامة فغدت على جبيننا عبوسة ودمامة . وكانت ألسنة آبائنا تتداولها للتفاهم فأصبح معظم إكليريكيينا يرددونها ترديد الببغاءات لما تسمع من عبارات . وأصبحت

---

(١) عدد فبراير .

ألسنة الشعب الأرثوذكسى والكاثوليكى والبروتستانتى الفاضل كألسنة أصحاب برج بابل » .

« فمن لنا بمن يبعث إلى أبناء أمتنا بآخر إنذار علّهم يتنبهون لما تنطوى عليه جوانح الأقدار ؟ ثم من لنا بمن يتشبهون بأساتذة المدارس فى بلاد المجر مثلا فيعلمون النشء أن اللغة القبطية — لا المجرية — لغة الذات الإلهية ؟ فيشبون على هذه العقيدة حتى إذا ما أتقنوا دراستها أدركوا أن تلك الحكمة إنما وضعها حكماؤهم لحثهم على دراسة لغتهم ، وتعلم لسان أمتهم الناطق بعظمة جامعتهم ومجد كنيستهم » .

وظهرت كتب مبسطة لتعليم هذه اللغة ، منها كتب نحو ومطالعة ، ومنها قواميس وكتب ترجمة .

وافتتحوا مدارس ليلية فى القاهرة والأقاليم لتعليم اللغة القبطية مجانا . وكانت المدارس القبطية تعلم اللغة القبطية لتلاميذها وتلميذاتها .

* * *

إلا أن المسيحيين لم يكونوا كلهم على رأى واحد بخصوص إحياء اللغة القبطية ، فقد كتب أحدهم فى مجلة المفتاح مقالا جاء فيه :

« . . . [1] وغنى عن البيان أن هذه الأقوال كلها نظرية كلامية . فإن سعادة الشعوب فى العصور الحاضرة وترقيتها فى أمورها الاجتماعية والدينية لا يكون بحفظ لغة أماتتها الأيام » .

« ولست أدرى كيف تأتى العصبية من إبدال لغة حديثة بلغة قديمة . كذ

(١) عدد مارس سنة ١٩١٢ .

لا أدرى لماذا تقبل الصلوات باللغة القبطية أو السريانية أو اللاتينية ، ولا تقبل بالعربية أو الفرنسية أو الإنجليزية) .

(وإذا وافقنا على أن اللغة القبطية قد كتبت بها علوم المصريين ، ووافقنا جدلا كذلك على أن هذه العلوم هى أساس الحضارة الحديثة؛فهل يريد الداعون إلى إحياء اللغة القبطية أن ينصرف الأقباط إلى درس الآثار ، والانعكاف على بحث الموميات والمسلات والبرابى ؟) .

(فلتبق اللغة القبطية لرجال الدين ، ولينصرف الشبان الأقباط إلى إتقان اللغة العربية وإحدى اللغات الأجنبية ؛ فإن ذلك أولى بهم وأجدر من صرف سنة أو سنتين فى درس لغة كنائسية عتيقة لا تؤدى إلى غرض دينى أو مادى ، عاشت أو ماتت) .

ونادى بعضهم بترجمة كل ما يتلى فى الكنائس من الصلوات والقداسات والابتهالات إلى اللغة العربية المفهومة من الشعب إلى أن يتم للقائمين بإحياء اللغة القبطية ما يريدون من تعميم هذه اللغة ونشرها . ومتى أصبحت مفهومة فلا بأس باستعمالها دون غيرها . وقالوا إنهم يريدون تعلم اللغة القبطية ونشرها لأنها لغة آبائهم وأجدادهم فقط لا غير .

* * *

والملاحظ أن الذين نادوا بإحياء اللغة القبطية لم يقصدوا إحياءها بين النصارى فقط ، بل كان غرضهم إحياءها بين المصريين أجمعين ؛ المسلمين منهم والنصارى ، وذلك لأن الألفاظ القبطية منتشرة على ألسنة الجميع مما يدل دلالة قاطعة على أن أصلهم واحد ، فهم مصريون من نسل الفراعنة ، وليسوا عرباً .

وعلى كل فإن هذه الحركة باءت بالفشل إذ لم يستجب لها النصارى أنفسهم فضلا عن المسلمين الذين لم يرحبوا بهذه الدعوة ، بل قابلوها بالهزء والسخرية .

* * *

ودفعهم تعصبهم للقومية الفرعونية إلى محاربة المدارس الأجنبية ، لأنهم رأوا فيها خطراً عظيماً على قوميتهم وعقيدتهم الأرثوذكسية ، وهم محقون فى ذلك . قال رمزى[1] تادرس :

(ولو انتقلنا إلى القرون القديمة ، وحولنا النظر إلى الشعب لرأيناه فى أتم حالات الوحدة . ذلك لأن الأسلاف كانوا يتعلمون فى أمكنة واحدة ، على نسق واحد . ويهذبهم مهذبون من إخوانهم تهذيباً دفعهم بقوة الاختلاط والمعاشرة إلى محبة أمتهم ووطنهم ، وإلى المحافظة على عوائدهم الأصلية ، وعقائدهم الصحيحة وهى صفات وجيهة إن لم يستطع الأخلاف صيانتها فلأنهم انكبوا على التعلم فى المدارس الأجنبية حتى مزقتهم وأضعفت رابطتهم ، وذهبت بجوهر قوميتهم) .

« إن الفريق الذى تعلم فى المدارس الأجنبية شب على ميول جديدة تخالف طباعنا وأخلاقنا وعاداتنا ، لا من حيث رقيها وانحطاطها ، بل من حيث تطورها بصورة لا تلائم حياتنا الحاضرة ولا المستقبلة . وهذا ما أشرب نفوس هذا الفريق روح الكبرياء ، ودفعه إلى أن ينظر إلى الفرق الأخرى بعين الاستخفاف والاحتقار ، ويستنكف أن يجتمع عليهم فى بعض أمهات المسائل العامة ، أو يعد

---

(١) الأقباط فى القرن العشرين ج ١ ص ١٩ .

من مجموعهم ، كأنه خليقة جديدة جاءت خيراً من الخلائق . ولا شك فى أنه لولا تلك المدارس وتسلطها على أخلاقه وعواطفه قبل أن تختمر بين جوانحه وتصرفها فيها وفقاً لأهوائها وغاياتها بلا معارض ولا منازع لانحطاط التربية العائلية ؛ لما انصرفت رغباته عن القيام بواجباته نحو أمته و بلاده ، ولما نسى حقوقه الشرعية بينهم ، ولما تعالى متكالبزا ، أو متفرنساً ، أو متمركناً) .

(أما الفريق الذى تعلم علومه الأولية فى مدارسنا الأميرية والأهليه فقد شب على نفس طباعنا وأخلاقنا . فعرف واجباته نحو أمته ووطنه . وأدرك كيف يعامل إخوانه ، و بأى الطرق يستميلهم إليه لسابقة الألفة والاختلاط) .

لا ريب فى أن رمزى تادرس قد أصاب كبد الحقيقة . ور بما كانت هذه الحالة التى صورها المؤلف من الأسباب القوية التى دفعت الأرثوذكس إلى الترويج لفكرة القومية الفرعونية واللغة القبطية ، وذلك لما تعرضت له معتقداتهم من خطر الزوال على أيدى المدارس الأجنبية . وهذا الشعور بالخطر قد ترك أثره فى أدبهم ، فنظموا القصائد الطويلة فى التغنى بالأمجاد الفرعونية .

ومما يؤيد كلام رمزى تادرس أن عظماء الأقباط وأغنياءهم الذين تعلموا فى المدارس الأجنبية تخلوا عن جنسيتهم المصرية ، ووضعوا أنفسهم تحت حماية دول أجنبية ، وتعينوا وكلاء لقناصل تلك الدول . فلم يكن يخلو مركز من المراكز من وجود وكلاء لقناصل الدول الأوربية ، وكلهم من المسيحيين الخارجين على الكنيسة الأرثوذكسية ، وعلى القومية الفرعونية .

* * *

وفكر « أخنوخ[1] فانوس » فى تأليف حزب سياسى مسيحى . وكان من زعماء الطائفة الإنجيلية ، ولكنه استهوى عدداً كبيراً من المسيحيين بما كان يظهره من التعصب ضد المسلمين ، و بما كان ينادى به من وجوب تعيين النصارى فى الوظائف الإدارية الكبرى . وقد بدأت هذه الحركة سنة ١٩٠٨ . قال إبراهيم حنين[2] :

أخنوخُ يا بطلٌ يا فخرِ أمته ... أخنوخ يا رجلٌ يا خيرَ مفضالِ

أقسمت أنك لا تخشى مقاومة ... فأسس الحزب توًّا دون إمهالِ

واعمل بحزم وعزم غير مكترث ... بما تصادفه من حزب جهالِ

ثابر على خدمة الأوطان معتمداً ... على الإله ولا تعبأ بأنذالِ

لا تحفلنّ بهم ، لا تيأسنّ فهم ... لا يفهمون ، وليسوا غير أطفالِ

من كل غل سفيه لا خلاق له ... وناقص العقل ختال ومحتالِ

مصر التعيسة يا أخنوخ نائحة ... مصر العزيزة ترثى مجدها البالى

فانهض على عجل أخنوخ إن غداً ... يغير الله من حال إلى حال

---

(١) ولد أخنوخ فانوس ببلدة أبنوب سنة ١٨٥٦ وتعلم بالمدرسة الإنجيلية بأسيوط . ثم سافر إلى بيروت والتحق بالكلية الأمريكية هناك سنة ١٨٧٠ وانتخب عضواً بمجلس شورى القوانين سنة ١٨٨٣ ، وعند افتتاح المحاكم الأهلية سنة ١٨٨٤ اشتغل بالمحاماة .

(٢) الوطن فى ١٩٠٨/٨/١٤ .

الباب الرابع

اختلاف الأقباط فيما بينهم
وأثر ذلك فى أدبهم

قامت حركة فكرية فى المحيط الأرثوذكسى تهدف إلى إصلاح الشئون الدينية لتلك الطائفة . وكان أول صوت ارتفع صوت طالب بالمدرسة الإكليريكية اسمه « ملطى » الذى عرف فيما بعد باسم القمص « مرقس سرجيوس » وأصله من مدينة جرجا . وقد التحق بالكتاب القبطى بالمدينة ثم بالمدرسة الابتدائية بها ثم حضر إلى القاهرة ودخل المدرسة الإكليريكية .

وفى سنة ١٩٠٣ وقف خطيباً بين إخوانه مبيناً المستقبل السيىء الذى ينتظرهم . وقد أفلح فى إشعال نار الحماسة بين زملائه ، فاجتمعوا وحرروا عريضة ضمنوها مطالبهم وهى :

١ — اختيار المعلمين من كبار رجال اللاهوت .

٢ — لا يعين قسيس لكنيسة إلا إذا كان من خريجى المدرسة الإكليريكية . وعلى البطركخانة أن تتكفل بمرتبات الوعاظ الذين يتخرجون من تلك المدرسة .

٣ — تنظيم داخلية التلاميذ فى طعامهم وكسائهم وكتبهم ؛ بأن تقوم بها البطركخانة ، حتى لا يهتم التلاميذ بأمر غير الدروس .

وهذه من غير شك مطالب عادلة ومعقولة ، ولكن أصحاب الشأن لم يهتموا بها ولم يظهروا استعداداً لإجابتها . فاعتصب الطلبة وأضربوا عن تلقى الدروس ، فطردتهم البطركخانة . ولما لم يجدوا من ينتصر لهم اضطروا إلى الرجوع إلى

مدرستهم صاغرين . فألفت لجنة لمحاكمتهم ، أو على الأصح لمحاكمة الطالب « ملطى » .

وانتهى الأمر بالعفو عنهم . وطلبوا من ملطى أن يتزوج ليرسموه قسيساً .

وفى سنة ١٩١٣ سافر إلى الخرطوم ، وهناك أصدر مجلة « المنارة المرقسية » وأخذ يقارن بين نشاط الإرساليات الأجنبية فى مصر والسودان ، وما أنشأته من مدارس وملاجىء ومستشفيات ومكتبات . وبين تأخر طائفة الأقباط الأرثوذكس .

على أن الموازنة بين نشاط الإرساليات الأجنبية وتخلف الهيئات الأرثوذكسية موازنة غير سليمة . فهذه الإرساليات جاءت بإيعاز من الحكومات التى تتبعها لأغراض سياسية . وكانت هذه الحكومات تمدها بالأموال الطائلة . وكانت تتمتع بالامتيازات الأجنبية ، وتمنحها الحكومات المحلية فى مصر والسودان الأراضى الواسعة دون مقابل إرضاء للدول التى ينتمون إليها . فماذا يفعل الأرثوذكس الفقراء بإزاء هذه الإرساليات ؟

وتكلم « سيرجيوس » عما رآه فى أنحاء السودان من انحطاط الروح الدينى بين الأقباط لضعف رجال الدين وجهلهم . وأبان الخطر المحدق بالكنيسة الأرثوذكسية من جراء تعميم مبدإ الرهبنة فى جميع الوظائف الكهنوتية . وشرح بعض عيوب الكنيسة .

وحركة سرجيوس هذه ظهرت فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه حركة الإصلاح عند المسلمين التى كان يتزعمها الشيخ محمد عبده .

* * *

ولما حضر سرجيوس إلى القاهرة فى إجازه أصدرت البطريركية أمرها بإيقافه عن عمله ومحاكمته أمام المجلس الإكليريكى فى ٣ – ١٠ – ١٩١٣ وكانت التهم الموجهة إليه هى :

١ — سعيه فى تقسيم أبناء الكنيسة إلى قسمين ، واستعانته بأحدهما ضد الآخر لتنفيذ مآربه .

٢ — أباح سر الاعتراف .

٣ — تداخل فى العائلات تداخلا لم يكن الغرض منه نشر السلام والصلح ، بل بذر بذور الخلاف والشقاق والخصام .

٤ — إصداره مجلة تدعى المنارة المرقسية ، واستعمالها ليس للتعليم والإرشاد ونشر العقائد الأرثوذكسية ، بل بالعكس جعل دأبه الطعن والتحقير على طقوس وتقاليد الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بعبارات شائنة .

٥ — تشهيره بحضرات الآباء المطارنة والأساقفة والرهبان ، وباقى رجال الإكليروس فى المجلة ، وفى خطبه ومواعظه .

* * *

وقد أوشكت هذه القضية أن تحدث فتنة بين الأقباط فى مصر والسودان . وهدد بعضهم بإعلان العصيان السامى على رجال البطريركية . وأخيراً تدخل حاكم السودان فى الموضوع ، فقبل البطريرك أن يعفو عن «سرجيوس» بعد أن يعتذر عن استعمال الشدة فيما كتبه ضد رجال الدين . واعتذر ، وانتهى الموضوع .

ودعا بعض الأقباط إلى وجوب إلغاء الأديرة والرهبنة ، لأن الظروف التى نشأت فيها الأديرة قد انتهت . فالأديرة نشأت نتيجة لاضطهاد عنيف كان يصيب المسيحيين ، فاضطروا إلى الهرب والسكنى بعيداً عن الحكام .

وكتب بعضهم منادياً بوجوب زواج البطريرك والأساقفة والمطارنة .

وقد انضم القمص سرجيوس إلى هذا الفريق .

* * *

مشكلة الأوقاف القبطية :

على أن أهم مشكلة قامت بين الأقباط هى مشكلة الأوقاف . وقد كان النظر فى أمر هذه الأوقاف محصوراً فى شخص البطريرك بناء على الفرمانات الشاهانية التى أعطت الطوائف المسيحية فى الدولة العلية الاستقلال فى إدارة أحوالها الشخصية .

وفى سنة ١٨٨٣ تغير مركز البطرك ، وانتقلت منه السلطة إلى مجلس تحت رآسته . على أن هذا الانتقال لم يدم طويلا ، لأن الحركات التى قام بها الأقباط فى سنوات ١٩٠٧ ، ١٩٠٨ ، ١٩٠٩ بشأن موضوع الأوقاف اتخذت شكلا عدائياً لشخص البطرك ، فلم تظهر نتيجة لهذا النظام . وانتهى الأمر بأن عدل بمرسوم صدر ١٩١٢ وقد أعاد هذا المرسوم السلطة إلى البطرك فى معظم الأوقاف .

وحدث بعد ذلك أن تحول ديوان أوقاف المسلمين إلى نظارة سنة ١٩١٣ فهاج بعض الأقباط وتحرك فيهم الميل إلى انتزاع أوقافهم من يد الإكليروس . فأيد بعضهم فكرة ضم الأوقاف إلى الحكومة ، وعارضها بعضهم الآخر .

واشتد الجدل بين أنصار الإكليروس وخصومه على صحفات الجرائد والمجلات . وتبودلت التهم ، وكثر التشنيع على رجال الدين وبخاصة الرهبان وكتبت مقالات

كثيرة تتناول حياتهم الخاصة وسلوكهم بالطعن والتجريح .

فمن ذلك ما كتبته مجلة « فرعون »[1] لصاحبها توفيق حبيب (١٨٨٠ — ١٩٤١) سنة ١٩١٣ « وقد ظهر أن أحد رؤساء الأديرة بدد خلال أعوام قليلة مائة وستين ألف جنيه . ولما طلب منه أن يقدم مستندات الصرف لم يقدم إلا بما قيمته أحد عشر ألف جنيه ، والباقى اتضح أنه ذهب إلى حيث لايعلم بمقرها غير الله سبحانه وتعالى » .

« وليست هذه الحادثة هى الوحيدة ، بل وقعت حوادث كثيرة من هذا النوع فى جميع الأديرة » .

* * *

وكان رأى رجال الإكليروس ينحصر فى أن أوقاف الأديرة يجب أن تبقى للأديرة ، لأن شروط الواقفين نصت على ذلك بصريح العبارة . وقالوا إن أملاك الأديرة جمعها الرهبان بعرق جبينهم من عمل المقاطف والحصر والصلبان التى كانوا يبيعونها ويقبل الناس على شرائها على سبيل التبرك .

* * *

وقد وجهت جمعية الإخلاص القبطية إلى المسيحيين الأرثوذكس رسالة[2] جاء فيها .

« تعلمون حضراتكم أن أم مسائلنا الطائفية ، وعقدة العقد ، وعقبة العقبات عندنا هى مسألة الأوقاف ، وحق لها أن تكون كذلك . إذ هى تلكم الأموال

---

(١) عدد اكتوبر سنة ١١٩٣ .

(٢) الوطن فى ٥ / ٩ / ١٩١٣ ، ٧ / ٨ / ١٩١٥

الطائلة ، والكنوز الثمينة ، والخيرات الكثيرة التى تضيع هباء منثوراً بين أيدى نفر قليل من رؤساء الأديرة ، لا يشبعون جوعا ، ولا يروون ظمأ » .

« ولو صرف جزء منها فى وجهه لما شكا فقير عوزاً ، ولا حرم تلميذ علماً ، ولما أعوز مريض دواء ، ولما رأينا راعيا دينياً جاهلا . حينذاك تقر العيون الباكية ، وتثلج الصدر المكتئبة . أما وجود هذه الأموال الطائلة فى أيدى الرعاة الدينيين فمدعاة إلى إهمال واجباتهم المقدسة ، والتفرغ إلى إدارة شئونها مما لا يجعل لديهم مجالا للتبشير والعبادة . وقد ورد فى الإنجيل : لا يقدر أحد أن يخدم سيدين : الله والمال » .

وأخذ بعضهم يوازن بين الدور الإيجابى الذى تقوم به وزارة أوقاف المسلمين بإزاء المنشآت الإسلامية ، والدور السلبى الذى يقوم به المشرفون على الأوقاف القبطية بإزاء أبناء الطائفة . فكتب أحدهم تحت عنوان[٢] « أوقافهم وأوقافنا » مقالا جاء فيه . . .

« أيتها المدرسة الإكليريكية . يا منبع العرفان ، ومهد اللاهوت ، ومطلع شمس حقائق الدين . لقد ظلموك فبخسوك حقك ، وغضوا أبصارهم عنك ، فتضاءل شعاع نورك » .

« أنت عروس مدارسنا ، وزينة معاهدنا . عشقناك فلم تتدللى ، ومحنا لك بما بين الجوانح فعطفت علينا » .

« أنت المورد السائغ الذى نرتشف منه كئوس الدين ، والمعين الذى منه نستمد اليقين ، والقرص الذى يرسل شعاعا يهدى الضالين . فأنت جديرة

---

(١) الوطن فى ٦ / ٩ / ١٩١٣ ، ٧ / ٨ / ١٩١٥

بالعناية ، حقيقة بالإصلاح . ولكن أهملوك فخففنا عليك أن ينضب مَعينك ، ويخبو نور علمك ؛ فنَنساء فيك وأنت عزيزة علينا » .

« حدا بنا إلى ذلك ما قالته الجرائد من أن وزارة الأوقاف تمد دار الوعظ والإرشاد التى أسسها صاحب مجلة « المنار » بخمسمائة جنيه فى العام تتعاون بها على إصلاح حالها لتخرج للأمة الإسلامية الكريمة وعاظا يقوّمون الأخلاق ، ويحضون على التحلى بالفضائل » .

« فماذا تمد أوقافنا المدرسة الإكليريكية وهى التى تعلق الطائفة عليها الآمال فى تخريج الوعاظ الأكفاء الذين ينهون عن الرذائل ويحضون على الفضائل ؟ »

* * *

وقد رفع إبراهيم حنين البباوى قصيدة إلى بطرس باشا غالى سنة ١٩٠٩[1] جاء فيها .

هيهات أن يتولَّى عزمك الكَلَلُ ... أو أن يسود على نفس لك المَلَل
فأنت أنت ولا أُطريكَ ذو هِمَمٍ ... شمَّاء سار بها يا بطرسُ المَثلُ
ولستُ أجحدك الرأى السديد فلم ... يزل يُحدِّث عنه الحادث الجَلَلُ
وكم وكم لك فى حَلِّ المشاكل مِن ... علمٍ غزير به قد أُعجِبت دُوَلُ

* * *

أجل ! فما ترى فى حال طائفةٍ ... تكاد تودِى بها الأسقام والعِللُ ؟!
فى كل يوم لها شكوى ونحن بها ... ندرى وأنت بها أدرى فما العمل ؟
ماذا تقول ؟ وماذا ترتئيه لها ... فى أمر مجلسها المِلىِّ يا بطلُ ؟

(١) الوطن فى ١٥ / ١١ / ١٩٠٩

هذا الذى كانت الأقباط تَنْشُدُهُ والیوم قد دبَّ فى أعضائه الشللُ
ولم يَعُـــدْ قط من نفع نؤمِّلهُ فيهم ولا سيما بعد الأُلَى اعتزلوا

* * *

يشكو لك البعض من أعمال بطركنا وليت شِعْرِىَ ما ذا يفعل الرجل ؟!
شابت نواصيه من أفعالهم هَلَعاً وكادَ يُدْرِكُ هذا المجلس الأجلُ
حال يَفيض لها حزنا إذا ذُكرتْ قلبى ويمنعنى من ذكرها الخجلُ
يُغريهم البعض مدفوعاً وما علموا بأنه الذئب يبغى الشرَّ لا الحَمَلُ

* * *

إذا كتبنا فوجَّهنـا نصيحتَنا بالاعتدال لهم قالوا بهم خَبَلُ
أو إن خطبنا فقلنـا الاتحـاد به وفيه خير لكم غَضُّوا وما قَبلوا
سل إن أردت فقد تُنبيك قاعتُهم كم مرةٍ حضروا أو كم قد اكتملوا
وكم وكم من مرار عدة خرجوا منها ولم يفعلوا شيئاً كما دخلوا
هُمُ ونحن إذا رحنا نعاتبهم يوماً عتابَ غَيُورٍ مخلصٍ حملوا
وهكذا سادت الفوضى ويا أسَفِى حتى لقد سَخِرت من حولنا المِللُ
وهكذا أصبحت فى مصر سَيِّئَةً أحوالُنا ولقد ضاقت بنا الحِيلُ
مولاىَ أمرك بعد الله محترم فينثار وإنَّا له لا ريب نمتثلُ
فَمُرْ بما شئتَ نفعله على عجل إنى أرى ههنا لا يحملُ المَهَلُ
وليس يحسن فى عهد الوزير بنا ألاَّ نفوزَ، وأن لا يدركَ الأملْ
فكِّرْ وَدَعْنِيَ فى سِرِّى وفى عَلَنِى أدعو بتوفيقك المولى وأبتهلُ

* * *

وقال(١) :

علامَ الخلاف ؟ وفيم العنادْ ؟ فإنّا ضللنا طـــريق الرشادْ
أمَا آنَ أن يتصافى الـكرام ويرعَوْا عهود الوَلا والوِدادْ ؟
أما آن أنْ نتآخَى جميعـــاً لنحظى بنيل المُنَى والمــراد ؟
سلوا إن جهلتم ولا تغضبوا وقولوا متى الانشقاقُ أفاد ؟

* * *

كفى الانقسامْ ويكفى الجفا بحقّ الجدود وربٍّ العبادْ
كفانا جدالا فليس بعدل ولا من صواب ولا من سَدَادْ
أيرضيكمُ الحال أنّا غدَوْنا حديثَ التهكُّمِ فى كل نادْ ؟
أيُرضيــكمُ أن نُعَابَ وأنتم رجاء لأمتــكم واعتمادْ ؟
سؤال مهم وأما الجواب فأ كبر ظنى يسرُّ الفؤادْ
وإلا فإنى لزمت الحيادْ وكنت بِوَادٍ وأنتم بِوَادْ

* * *

وقال(٢) :

تروح فلا غيرَ قِيلٍ وقالْ وتغدو وليس سوى سوء حالْ
فماذا تظن إذا الأمر دامَ على ما تراه وطال المِطَالْ
إذا ما اختلفنا فماذا عساه يكون المصير بنا والمآلْ ؟
أليس بَوَاراً ؟ أليس بِعارْ أليس دماراً ؟ أليس وَبالْ ؟

* * *

---

(١) الوطن فى ١٠ / ٣ ١٩٠٨ .
(٢) الوطن فى ١٩٠٨/٣/٣٠ .

تقول صحيح ، فهل هكذا تكون فعال كرام الرجالْ ؟
وهل هكذا يعمل المصلحون ؟ وهل هكذا المكرمات تُنَالْ
بَعِيدٌ ، بعيد ، وألف بعيد مُحالٌ محالٌ وألف مُحالْ
وكنتُ لأقطع حبل الرَّجا ء وأطلبُ من ساعتى الاعتزالْ
ولكننى خفت من أن تقولَ دعوه ولم يستطع فاستقال
وأنت الذى قلت لى فلسـ وف ترانى صبورا على كل حالْ
وأنت الذى قد أجزت المقال وأفسحت للأدباء المَجالْ
فأرجوك بالله يا سيدى لتنشر لى اليوم هذا السؤالْ
أصلحٌ يا هؤلاء جميلٌ ويكفيكمُ ما مضى من جِدالْ
أصلح فَنُثْنى عليكم ونُهدى إليكم عقود الثنا من لآلْ
وإلا خلاف نويتم عليه فأُعلن رأيى بخير مقالْ
وأُعرب عن شر آمالكم وعما تريدون غيرَ مُبالْ

* * *

وكانت مشكلة الأوقاف هذه سبباً فى عزل الأنبا كيرلس الخامس ونفيه إلى الدير سنة ١٨٩٣ حيث بقى مدة ، ثم سمح له بالعودة إلى مباشرة أعمال منصبه . ولما عاد أكثر شعراء القبط من مدحه ، وقوبل عند وصوله إلى محطة القاهرة مقابلة حافلة من أنصار الإكليروس . وكذلك كانت سبباً فى عزل الأنبا يوساب سنة ١٩٥٥ .

وفى ٣٠ أغسطس سنة ١٩٦٠ صدر قرار جمهورى بتنظيم الأوقاف القبطية نص على استبدال الأراضى الزراعية الموقوفة على جهات البر العامة . واستثنى القرار من أحكام قانون استبدال الأراضى الموقوفة على جهات البر

الأراضى الموقوفة على بطرك وبطريركية الأقباط ، والمطرانيات ، والأديرة ، والكنائس وجهات التعليم القبطية ، وذلك فيما لا يتجاوز مائتى فدان لكل جهة . ومثلها من الأراضى البور . وتدير هذه الأوقاف هيئة تسمى « هيئة أوقاف الأقباط الأرثوذكس » برياسة البطريرك .

* * *

ونادى بعض الأقباط بوجوب إلغاء المجالس الملية ومحاكم الأحوال الشخصية للأقباط . فكتبت صحيفة « الوطن » فى ١٥ / ١ / ١٩١٥ تقول : « ظهر رأى يقول إن الطوائف المسيحية لا حاجة لها بمجالس ملية ، أو بقضاء شخصى مستقل عن القضاء العام ، لأن المجالس الملية ، أو نظام البطريكخانات ما هو إلا نتيجة اختلال الأحكام فى الدولة العثمانية وعدم الثقة فى إمكانها حكم رعاياها المختلفى الأديان على نظام عادل واحد ينفذ على الجميع . وما دام أن علة ذلك النظام قد زالت من مصر ؛ فأحر بالنظام نفسه أن يزول هو أيضاً » .

ولكن قضاء الأحوال الشخصية بقى فى يد البطركخانة حتى سنة ١٩٥٥ ، إذ صدر قرار بجعله من اختصاص المحاكم الوطنية ، كما ألغيت المحاكم الشرعية الخاصة بالمسلمين .

الباب الخامس

العلاقات بين المسلمين والأقباط

وأثرها فى الأدب القبطى

حينما اشتدت الحركة الوطنية أدرك الإنجليز مبلغ الخطر الذى يتعرضون له من جراء تلك الحركة. ورأوا من صالحهم أن يفرقوا بين أبناء الوطن الواحد، ويوهموا الأقلية بألا حياة لها إلا فى ظل الاحتلال. فالاحتلال وحده هو الذى يحميها من خطر الأكثرية، ويضمن لها كافة حقوقها.

فإذا انقسمت الأمة إلى معسكرين، وانشغل كل معسكر بمهاجمة الآخر، نصرفوا جميعا عن المطالبة بالاستقلال والجلاء، وهكذا يضمن الإنجليز لنفوذهم البقاء والخلود فى وادى النيل.

وقد وجد الإنجليز فى بعض الأقباط من يأتمر بأمرهم، ويضع نفسه فى خدمة سياستهم. فبدأت صحيفة مصر فى مايو[1] سنة ١٩٠٨ تنشر مقالات تهاجم فيها المسلمين هجوما عنيفا. مثال ذلك مانشر بإمضاء « ناطق بالحق » وجاء فيه.

« ... فيظهر من كل ماتقدم أن الأقباط هم المصريون الحقيقيون أصحاب البلاد بكل معنى الكلمة. وأن جميع الذين وطئت أقدامهم أرض مصر من بدء الإسلام إلى اليوم سواء من العرب، أو الترك، أو الفرنساويين، أو الإنجليز ليسوا فى الحقيقة إلا احتلاليون »

---

(١) مصر فى ٢٢ — ٥ — ١٩٠٨

« وأن الأصل فى الوطنية هو للأقباط بلا نزاع ، فهم دون سواهم حافظوا على جنسية آبائهم وأجدادهم المصريين الحقيقيين ، وعلى دينهم أيضا . فعجيب أن يرى القبطى نفسه مضطرا إلى ترك هذا الدين الذى حافظ عليه فى أظلم الأوقات»

« فإذا قال قائل إن البلاد إسلامية ؛ وجب أن يعد مارقا عن الوطنية . و إن قولا كهذا يجعلنا نسمى البلاد عن حق بلادا قبطية، والتاريخ أعظم مؤيد لهذا القول »

«وفى الواقع ونفس الأمر إن تسمية البلاد إسلامية فيه دوس لحقائق الأقباط ، وامتهان لهم فى بلادهم مما لا يرضاه واحد منهم ».

و يلاحظ هنا أن الكاتب تجاهل الاستعمار الرومانى الذى خضعت له مصر أربعمائة سنة . وتجاهل الحقائق التاريخية التى يظهر منها وقوف الشعب القبطى موقفاً سلبياً من الفتح العربى ، فلم ينهض لمقاومته بل سارع إلى الترحيب بالعرب. وأما ديانة آبائهم وأجدادهم فلم تكن المسيحية ، و إنما كانت الوثنية .

* * *

وكانوا يأخذون على المسلمين اهتمامهم بالشئون الإسلامية ، وعنايتهم بتعرف أحوال إخوانهم فى البلاد الأخرى . وحاربوا فكرة الجامعة الإسلامية لأنها كما قالوا تتنافى مع فكرة الوطنية . فكتب أحدهم تحت عنوان «لا وطنية مع الدين، ولا دين مع الوطنية » مقالا جاء فيه :

« إنك إذا فتحت كل الصحف الوطنية فى أى يوم شئت ، وأية ساعة أردت ؛ فلا ترى فيها ولن ترى إلى ما شاء الله شيئاً عن أحوال مصر ، والطرق الموصلة لرقيها واستقلالها ؛ مما تراه فيها وستراه إلى يوم القيامة من الرسائل الممتلئة حماساً وشعورا فى ذكر الإسلام والمسلمين فى الهند والصين ، وفى أفريقيا وأوربا ، والأسباب الموجبة لاتحادهم والدافعة لرقيهم ليصلوا إلى عز لايدانى ، ومجد لايرام.

إذا رأيت ذلك ألا يأخذك العجب ؟ ألا تقول لنا : هيهات إن أفلحتم مادمتم مشتغلين بأمور غيركم وشئونهم » .

ثم تكلم عن الخطابة السياسية فقال :

« فإذا خطب أحدهم خلط بين الدين والوطنية ، فجعل الوطنية المصرية عبارة عن الجامعة الإسلامية » .

* * *

على أن أشد ما وجه إلى المسلمين من المطاعن ما جاء فى مقال كتبه قبطى مغمور اسمه فريد كامل ، ونشرته « الوطن » فى ١٥ / ٦ / ١٩٠٨ وهو :

« مضت دهور ، وكرت أحقاب ، والظلم سائد فى العالم ، والعبودية محكمة فى الأعناق. والناس يئنون من نير الخسف والاسترقاق حتى فى ظل المدنية ، وتحت ستار الحضارة ، وفى نفس بلاد النور والعلم ، و باسم القوانين والنظامات الدستورية »

ثم قال :

« فإذا رجعت إلى تاريخ الإسلام فى عهد زهوه وعزه ، وعظمته ومجده ، وأردت أن تستخرج من الدفائن المكنونة سر ذلك العز الخالى ، وسبب تلك العظمة البالية ، وكشفت مواطن الرجال الذين قاموا بالفتوحات ، واطلعت على دخائل وخفايا القلوب والسرائر فى تلك الأيام الماضيات ؛ لعرفت أن الأثرة هى التى أراقت الدماء ، وأن الأنانية هى التى أزهقت الأرواح وطوحت بالمهج الغالية فى هوة البوار . ولأدركت أن الاعتزاز بالقوة ، والاستهتار بالضعف هما الحجران اللذان بنى عليهما ما يسمونه مجد الإسلام » .

« ولا شك أن دول أوربا المسيحية ، ومملكة اليابان الوثنية هى أيضاً تعمل عمل الإسلام فى هذه الأيام، فتسطو كل منها على الأمم الضعيفة وتنزع منها نعمة

استقلالها بدعوى أنها تجود عليها ببركة المدنية فلا تلبث قليلا حتى تحكم قدمها فى الرقاب ، وتنشب فى أحشائها الأظافر والأنياب » .

ثم ختم مقالته بهذه العبارة «ليصعق المخالفون فكفاهم تعذيباً للإنسانية. كفاهم تمزيقاً لجسمها ، كفاهم ما أنزلوه عليها من مجالدهم الجهنمية ، وليسقط المنافقون والمكابرون » .

* * *

كان هذا المقال دافعاً الشيخ عبد العزيز جاويش إلى كتابة مقاله الشهير المنشور تحت عنوان « الإســـــلام غريب فى بلاده » فى اللواء بتاريخ ١٦ / ٦ / ١٩٠٨ وهو :

« أتت جريدة الوطن أول أمس بجريرة عظيمة ضاعفت بها سخط الناس عليها . فقد لوثت فى ذلك اليوم صفحاتها بما اعتادت أن تلوث به وجهها كل يوم من قاذورات المطاعن ، وأدران المسالب . جاءت بتلك المقالة لذلك الكويتب الذى شهر بنفسه كل التشهير بما سجل عليها من الجهل بالتاريخ ، والكفران بنعمة الإسلام عليه وعلى أسلافه . إذ لو كان الإسلام على ماجاء فى تلك المقالة ؛ لما سمح لفريد كامل وصاحب الوطن أن يتنقلا من أصلاب إلى أرحام حتى ظهرا فى ذلك الزمن بأرواح شيطانية تقمصتها أجسام بشرية » .

« انتشلكما الإسلام أيها الجاهلان من أيدى الروم بعد أن عبّدوكما القرون العديدة ، وأنتما كالأنعام تتداولكما الأيدى بالاستخدام ، والألسن بالسب ، والأرجل بالضرب . »

« رميتم بأنفسكم فى أحضان الإسلام فحقن دماءكم ، واستحيا نساءكم وأولادكم ، وذاد عن حياضكم . ولو كان الإسلام كما ذكرتم لسحقكم سحقاً ،

ولمحقكم محقاً ، ولذرى بقايا رفاتكم فى الهواء ، وطهر الأرض المصرية من طلعتكم السوداء ، ولا ستأصل ألسنتكم فلا تنطقون ، وفرى أصابعكم فلا تكتبون . ولكن قبلتم عهده فآوا كم ، وأخذتم بذمته فأيد كم بنصره ، وألحقكم بأهله ، إذ جعل لكم مالهم ، وعليكم ماعليهم . ثم أباح لكم أن تتولوا تدبير أحكامكم والقضاء فيما بينكم إلا إذا تراضيتم أن ترفعوا بعض شأنكم إلينا مختارين أحكامنا ، راضين قضاءنا . فكيف إذن تتعذب الإنسانية كما تقولون أيها الأغبياء بين أناس ذلك دينهم الذى يدينون له ، وشرعهم الذى يعملون به ؟ ؟ »

« أقمتم في أحضان الإسلام زهاء ثلاثة عشر قرنا يعلكم وينميكم حتى ازداد عددكم ، وامتلأت بالمال خزائنكم . ولو كنتم عشتم ربع ذلك الزمن مع الإنجليز لألحقوكم بالجنس الأحمر فى أمريكا ، والصنف الأسمر فى استراليا . فكنتم اليوم كالحيوانات العجم فى الفيافى والقفار ، ترعون الكلأ ، وتأوون إلى الكهوف »

« ولو كنتم من رعايا الملك ليوبولد فى بلاد الكونغو لاتخذ من شعوركم حبالا ، ومن جلودكم نعالا ، وازق أجسامكم بالسياط وأنتم ترسفون فى الأغلال ، وتنوءون بالأحمال الثقال . ولو كنتم من أيرلندا لنبذكم الإنجليز نبذ الحذاء الخلق ، ولأخرجوكم من دياركم مهينين مقهورين »

« عشنا فى هذه البلاد دهرا طويلا فكنا كما شاء لنا الإسلام إخوانا فى الوطنية ، شركاء فى المرافق الحيوية . نتجاور ونتزاور ، ونتشاور ونتسامر ، ونتعاشر ونتناصر . فما الذى بدل شئونكم وجعلكم غير ما كنتم ؟ ألعلكم رأيتم المحتلين على دينكم فأردتم أن تبيعوا منهم بلادكم وذممكم ، وتلقوا بأيديكم

إليهم ؛ لتقطعوا تلك الأوصال التى ارتبطنا بها القرون العديدة . كذلك فليفعل الخونة المارقون ! »

« علت صيحتكم حتى بلغت عنان السماء ؛ تريدون التسوية فى المناصب العالية الإدارية . وتقولون إن الإسلام هو الذى ذللكم وعبدكم ، وحرمكم من تلك المراكز السامية . ثم تبجحتم فوصفتم المسلمين بالضعف والذلة والمسكنة . ثم تهددتموهم أن آن أوان القصاص منهم »

ثم ختمها بقوله :

« اخسآ أيها المستهتران فإن أمامكما لحسابا إن أغفلته الحكومة فإن من ورائه أحد عشر مليونا من المسلمين لا يفرطون فيه »

« وها نحن أولئك قد نبهنا الحكومة إلى واجباتها ، وذكرناها بقانونها ، وحذرناها عاقبة التلكؤ والتباطؤ ، فإن عليها من المسلمين جميعهم لرقيبا ، وكفى به حسيبا »

* * *

وقع هذا المقال على المسيحيين وقوع الصاعقة . قالت صحيفة الوطن فى ١٩ — ٦ — ١٩٠٨

« وقعت كتابة الشيخ عبد العزيز جاويش رئيس تحرير اللواء وقعا أليما على كل إنسان حساس ، ونفس حرة ، وضمير شريف . وأصيب المسيحيون فى كل مكان بذهول شديد من جراء تأثيرها المريع على أذهانهم ، لتمثيلها بشرفهم تمثيلا فظيعا ، ولأنها انغمست فى بؤرة الرذائل والفساد والتعصب . فأخرجت للناس حاوية لكل قبيح من اللفظ ، دالة على كل فساد فى التربية ، ونذالة فى الأخلاق ، ورداءة فى الطباع ، وخسة فى النفوس »

« إن المسيحيين فى مصر الذين لم تر أعينهم فى أجيال الاضطهادات القديمة وجها أسوأ من وجه ذلك الإنسان، ولا وقرت أسماعهم أقوالا تضاهى الأقوال الأخيرة فى قلة الحياء والأدب ؛ صعقوا من تلك القبائح والمنكرات ، وظنوا أن بالرجل مسًّا من الجنون ، أو أنه كتبها وهو فى ذهول ، بعيد عن الصواب »

« هاج الناس وماجوا طالبين مقابلة الشرير بشره ، ورد مفاسده إلى نفسه تخليصا لما ألصقه بشرف أسياده من الإهانة والعار . ولكننا نقول لهم إننا مهما ابتعدنا من الأدب ، ومهما فتشنا فى قواميس السفاهة والقباحة فلسنا نجد نقطة من بحر ذلك الذى جاء من كلية « اكسفورد » أستاذا فى الهجو والطعن ، وشيخا فى السب واللعن . وأصبح بقاؤه فى أرض مصر عارا عليها ، وعلى بنيها المسلمين قبل الأقباط »

« إن هذا الدخيل الذى قذفته إلينا بلاد تونس ؛ أظهر كوامن حقده ، وهو ينفث سموم تعصبه ضد المسيحيين المصريين بأقوال مثيرة للخواطر ، محرضة على الفتنة ؛ تدل على أنه راغب فى إبادتهم عن آخرهم ، آسف على بقاء الباقين منهم إلى الآن »

* * *

وهاجم « أخنوخ فانوس » الشيخ جاويش هجوما مرا فى مقال نشرته « الوطن » بتاريخ ٩ — ٧ — ١٩٠٨ جاء فيه :

« . . . فإذا كان الرومان قد عبَّدوا مصر ، وهى محط العلم والفلسفة والمدنية الباذخة ، وتناولت أيديهم وأرجلهم الأقباط بالضرب ؛ فقد فعلوا بأجدادك أكثر مما فعلوا بالقبط . لأن قومك معروفون فى تاريخ الأمم بالبربر ، وهم أخلاط أقوام لا مجد لهم ولا سلطان . وقد تولى السيادة على قومك : الأسبان وغيرهم

حتى فتح بلادكم الإسلام . وقد صبرنا على ديننا ، وأما قومك فلم يستطيعوا على دينهم صبراً ، فباعوه قبل أن يساموا فيه سبباً » .

« فإن اعتبرتم احتضان الإسلام للأقباط تعييراً ؛ فقد احتضنكم كما احتضنهم . »

وقال الكاتب إن الشيخ جاويش ليس قرشياً ، وإنما هو من البربر ، لأن سحنته تدل على ذلك . ثم قال :

« وأما إن حسبت للدين فيه مزية تفاضل ونخار لمن دان به ؛ فأنت اليوم فى هذا مرجوح لا راجح ، حيث تسود المسيحية على جميع بقاع الأرض بسلطانها ونفوذها . ولو نسينا شأننا الوطنى كما نسيت ، وفاخرنا كما تفاخر الصلعاء بشعر بنت خالها ، وكما فاخرت ؛ لهززنا عليك أعطاف الخيلاء الباطلة كما هززت . وما كان لك إلى دفع نيرها من سبيل » .

« بماذا تفاخرنا يا هذا وقد ساد عليك وعلى قومك الإفرنج ؟ وفى فكم الكمامات ، ترزحون تحت الأثقال ولا يفسح لكم أن ترغوا . فأين كان أسدكم الرابض يوم ناحت بكم النوائح ، وبكت العيون ؟ »

« سلمتوها وأنتم صاغرون تصطك مفاصلكم جزعاً ، وترجف قلوبكم وجلا . فلم ترفعوا فى وجوههم عصاً تبدون بها أثر الحمية عن حمى أودار أوذمار . فبأى وجه لنا تُعيِّرون ؟ »

« إن أسيراً مثلك ومثل قومك كمثلنا ، وذليلا كذلنا ، ومقهوراً كقهرنا ؛ لأحق أن يبكى مع بكائنا ، وينوح مع نواحنا ، لا أن يقف على تل باطل يقاوينا ويطاولنا ويفاخرنا ؛ وهو مثلنا أعزل ؛ لا قوة له ولا طول ولا فخر . فإن ذلك

أدعى لحنان رب السماء عليه وعلى قومه من الوقوف موقف عُتُوٍّ كاذب ، وزعم خائب . تلبس جلد الأسد ، وتهجم علينا مكابرة ، عتوا وجبرا بلا داع للهجوم . »

والحق إن الشعب التونسى لم يستسلم للاحتلال الفرنسى ، بل ظل يجاهد حتى ظفر باستقلاله . ولبث محتفظاً بقوميته ولغته ودينه على الرغم من المحاولات الكثيرة التى بذلها المحتلون للقضاء على كيانه وشخصيته .

* * *

وقد سعى عقلاء الأمة من الفريقين لوضع حد لهذه الخصومة التى لا تعود على أحد بفائدة . فعقدت اللجنة الإدارية للحزب الوطنى فى ٢٠/٦/١٩٠٨ وأصدرت قراراً جاء فيه :

حيث إن عقلاء العنصرين أظهروا استعدادهم للاتفاق ، وأنهم لا يجدون محلا للمناقشات الداخلية بين عنصرى الأمة ؛ الأمر الذى يمقتونه من أعماق قلوبهم ؛ فبناء على ذلك :

يعلن الحزب الوطنى الأمة المصرية على اختلاف أديانها أنه لا يوجد شقاق بين عنصريها . وأن كل جريدة وشخص مهما كان دينه يثير الخواطر بنشر الطعن على الأديان ، أو على أى عنصر من عنصرى الأمة المصرية ، أو يطلب ما يكون من ورائه إيجاد البغضاء والشحناء بين عناصر الأمة ؛ هو وحده المسئول عن عمله ؛ فهو لا يعبر إلا عن فكره الخصوصى » .

« والحزب الوطنى ؛ كما هى مبادؤه ؛ يمد يده لجميع المصريين من أقباط ومسلمين وإسرائيليين ، ويدعوهم إلى الانضمام للمطالبة بحقوق الأمة من مغتصبيها ، ويرجو الجميع أن يغلق هذا الباب » .

ونشر فريد كامل مقالا حاول فيه أن ينفى عن نفسه تهمة الطعن فى الإسلام تحت عنوان : « وجادلهم بالتى هى أحسن » جاء فيه :

« لا يعجب اللواء إذا رآنى أتوج ردى بهذه الآية المأثورة لأنى قد أكون أعرف منه وألم بآداب الإسلام فى الجدل . ولأنى أريد أن يقابل القراء بين ما أكتب أنا اليوم ، وما كتبه هو بشأن مقالتى التى نشرتها بعنوان «الإنسانية تتعذب» فيدركون أن هناك فرقًا بين أدب الكاتبين ، وأدب الكتابين » .

« زعم اللواء بأن مقالتى تضمنت طعناً فى الإسلام ، وتحقيراً لشأنه . فإن كان يعنى بالإسلام : الدين الإسلامى ، فقد أخطأ فى الفهم ، وتسرع فى الحكم ، لأن عنوان المقالة ومتنها وتضاعيف سطورها خالية من ذكر الدين ظاهراً و باطناً » .

* * *

« إنى لا أريد أن أحاسبه على أقواله التى قذف بها من حالق أدبه ، فتخطت دائرة الأدب . ولا أريد أن أقابله بمثل ما يستحق أن يقابل . ولكنى أقول : إن مجد الإسلام لا يقصد به مجد الدين ، بل مجد الدولة . والقرائن الدالة على هذا القصد جلية فى المقالة كلها من أولها إلى آخرها . بل هو لو سمح لذاته بمراجعتها لوجد أنى عطفت حالا على الدول المسيحية ، ودولة اليابان الوثنية ، وقلت عنهما ما قلت عن دول الإسلام ، من حيث إن هذه الدول جميعاً فى ماضيها وحاضرها سواء تعتز بقوتها ، وتغتر بسلطانها فتكتسح الأمم الضعيفة » .

---

(١) الوطن فى ١٩٠٨/٦/٢٠ .

« ولو كنت أريد الطعن فى الإسلام ؛ وحاشا لله أن أفعل ذلك ؛ لما ألحقت به المسيحية والوثنية . وأنا فضلا عن كونى مسيحياً أحترم الأديان ، وألوم بشدة كل من يعرضها فى سوق الجدل والمناظرة » .

* * *

وأخذ بعض الشعراء من المسلمين والنصارى ينظمون القصائد فى الدعوة إلى المحبة والاتحاد ، وترك الخصومة ، والتخلى عن الأحقاد . فمن شعراء المسلمين الذين قاموا بهذه الدعوة عبد الرحمن شكرى . قال :

بنى البهاليل من علياء شاهقة ... ومحتدُ الصيد لا تمشى له الرِّيبُ (1)
إذا تناءى بكم عن مجدنا نسبٌ ... فأنتم فى مراقى مجدكم عرَبُ
إن التآلف لم يترك لنا نسباً ... يلوى بكم دوننا من دونه نسبُ

* * *

أما وقومى وقومى خير مَألُكَة ... إذا حلفتُ تدانى المجد والحسب (2)
إذا الأواصر لم تجعل لنا سبباً ... فحرمة الود فيما بيننا سبب (3)
إذا هفوتم رميناكم بمعتبة ... فإن هفونا فلا يملككم الغضب
يدان إن تقطعونا تقطعوا يدكم ... كذاك نحن لنا فى عزكم أَرَبُ
إنى على شغفى بالأهل يطربنى ... أنى إليكم إذا فاخرت أنتسب
فإن فَخَرْتُ فبالصيد الأولى أسروا ... حوادث الدهر لم يخذلهم الغلبُ
كانت لهم دولة غراء ثابتة ... فى مُرْتَقَى العز تبغى شأوَها الشُّهبُ

---

(1) البهاليل : جمع بهلول وهو السيد .
(2) المألكة ، بضم اللام وفتحها ؛ الرسالة .
(3) السبب : العلاقة والصلة .

كنتم تُطِلُّون فوق النجم من أَنَفٍ حتى تركتم سُهَيلا قلبه يَجِبُ[1]
ما زلتمُ وصروف الدهر آبيــةً حتى أدانت على أيديكم النُّوَبُ[2]

وقد علقت صحيفة الوطن على هذه القصيدة بقولها :

« لا يسعنا إلا الإعجاب بما تضمنته هذه الأبيات الرشيقة من المعانى الشائقة ، والمغازى الرقيقة . و يا حبذا لو تسابق الشعراء ؛ وهم ملائـكة السلام ؛ فى بث هذه الروح ؛ روح التناصر والارتباط بين العناصر الوطنية فى الأفئدة بما لهم من القدرة على امتلاك نواصى القلوب ، وما فى أيديهم من السلطة على المشاعر . والأمل عظيم فى أن إخواننا المسلمين يقدرون هذا التسامح الذى بدأ أولا من جانب الأقباط حق قدره ، و يمدون إلينا أيديهم كما مددنا إليهم أيدينا » .

إن قول صحيفة الوطن بأن التسامح بدأ أولا من جانب الأقباط غير صحيح . فقد كان كتاب الأقباط هم الذين بدأوا بالهجوم على المسلمين كما مر بنا ، وظلوا على الرغم من الأيدى التى مدت إليهم ، والمحاولات الـكثيرة التى بذلت فى جمع الشمل وتوحيد الصفوف ، ظلوا يعملون على تفريق الـكلمة والهجوم على المسلمين هجوماً مراً كما يظهر ذلك من المقالات المتقدمة ، ومما سيجىء فيما بعد من الشعر والنثر . .

وقال عبد الرحمن شكرى من قصيدة أخرى[3] :

ومن البلية أن نـكون وجمعنــا متقسم والشامتون بمرصدِ

---

(١) يجب : يخفق .
(٢) صروف الدهر : حوادث الدهر ونوائبه .
(٣) الوطن فى ١٩٠٨/٤/١٠ .

هل سركم يومَ اللجاجة أننا ... ندنى على الأحقاد عادية الغد
لولا اللجاجة والمراء وعصبة ... رصدت لكل مؤلف وموحد

* * *

يا ابن الفراعنة الأولى ورثوا العلا ... إرثَ الأماجد سيداً عن سيد
قم نرجعِ الفضل الصريح ودولة ... يمشى إليها الخطب مشى مقيد
يدحو عليها العزُّ حُسن رُوائه ... ويردد الإسعاد صوتُ مغرد
هذا مقال شُبْته بنصيحة ... فتلقَّ فيه رِقة المتودد

* * *

وقال محمود رمزى نظيم (١) :

أىُّ شىء أحبُّ من أن ترانا ... عيسوياً مصالحاً أحمديا
رُفعت راية الهلال علينا ... وجرى النيل باسْمِنا وطنيا
أيها الشعب لا تكن فى شقاق ... وتقدم وكن شجاعاً قويا
واجتمع واتحد فسعدك وافَى ... صرت بالاتحاد شعباً قويا
سوف يبدو صوت من النيل عال ... يسمع الغرب منه صوتاً شجيا
صوت شعب مجاهد لحياة ... شهد الله إنه كان حيّا

ونظم أحمد شوقى كثيراً فى الدعوة إلى الاتحاد بين العنصرين ، وجادت قريحته بشعر رائع . مثال ذلك قوله :

أَعَهدْتنا والقبط إلا أمة ... للأرض واحدة تروم مراما
نُعلِى تعاليم المسيح لأجلهم ... ويوقرون لأجلنا الإسلاما

---

(١) الوطن فى ١٢/٤/١٩٠٨ .

هذى ربوعكم وتلك ربوعنـــا متقـــابلين نعـــالج الأياما
هذى قبـوركم وتلك قبـورنا متجاورين جماجماً وعظاما
فبحرمة الموتى وواجب حقهـــم عيشوا كما يقضى الجوار كراما

وقد كثر مثل هذا الشعر عند أحمد شوقى .

***

ونظم بعض الشعراء المسيحيين قصائد فى الدعوة إلى الاتحاد ، فمن ذلك قول عوض واصف [1] ، فى الاحتفال السنوى بعيد إنشاء جمعية الشبان المسيحيين :

أبناؤها عبد المسيح وأحمدٌ والموسوىّ وليس ثَمَّ دَخِيلُ
لا فرقَ بين العالمين وأرضُهم وطن وحيد والجميع سـليل
ماذا جناه الناس فى نزعاتهم يا صاحبىّ وما جنى التفضيل ؟
هل فى السماء مذاهب وعناصر هل ثَمَّ إلا صاحب وخليلُ ؟
فعلام نتخذ الخلاف صناعة فى الأرض وهى لُحَيظةٌ وتزولُ ؟

وقال شاعر قبطى آخر من قصيدة طويلة :

فالدين لله يوم الحشر يسألنـا عنه ويسألـكم والخلق تزدحمُ
ما للديانة دخل فى صوالحنـا بتنـا شطورا وبات الغير يغتنمُ
شطر يضيع وشطر سوف يتبعه والشرق فى هرج والغرب يقتسمُ
ما للنصارى وللإسلام قد غفلت عن شرعه الصفح ، لا جان ولا تُهَمُ
ما للجرائد باتت موقداً وغلت مراجل الحقد فيها وهى تبتسم

---

(١) الوطن فى ١٩٠٩/١/١٩

تخفى اللهيبَ عن الأعيان ، تنكره | وكل سطر به الأحقاد تضطرمُ
حتى تخط بأقصاب على ورق | منها السموم بها الأعمار تنصرمُ
رُمنا الوداد ، وقالوا نعم ما طلبوا | شدنا وشادوا على صرح وما ندموا
لولا الدعامة كانت خدعة لَبَقتْ | وكل دار على رمل ستنهدم

* * *

وقال إبراهيم حنين تحت عنوان « القبطى يعاتب أخاه المصرى العربى ، ثم يتصالحان للسلام » .

تعالَ يُعاتِبْ بعضُنا البعض أوّلاً | إذا كان هذا العتب شرعاً مُخَلَّلاَ
وليس لشىء ما عتابى وإنما | لتعرف مَن منا الذى قد تحولا
وأى فتى منا أطاع زعيمه | ولبّى نداهُ دون أن يتعقلا
كذلك مَن منا استبد برأيه | فلاذ بأكناف الخصومة والقِلَى
ومن ذا الذى أصغى لقول شقيقه | ففسَّرَ معناه بعكسٍ وأوّلاَ
وأقسمَ إلا أن يناصبه الغدا | فأغمط من حق له وتعللاَ
ولم يَذَّكِرْ عهداً ولم يرعَ حرمة | من الوُدِّ ما أبهى وأسمى وأجملا
فشنَّ عليه غارة بعد غارة | وظل على هذا العناد مُعَوِّلا
ولم يتركِ الأحقاد حتى أثارها | كما لم يَدَعْ بابا إلى الهجر مُقفَلاَ
وكم راح يرميه بكل نقيصة | وانحى عليه لائماً مُتقوِّلا

وهذه القصيدة ليست من باب الدعوة إلى الاتحاد ، وإنما فيها اتهام للمسلمين بأنهم انقادوا انقياداً أعمى إلى بعض زعمائهم ، وأنهم تعمدوا مواجهة المسيحيين بالخصومة ، وأنهم هضموا حقوقهم ، ولم يحفظوا عهد الإخاء والمودة الذى يربط بينهم وبين المسيحيين .

والحق إن شعراء المسيحيين لم يتجاوبوا كلهم مع شعراء المسلمين ، بل لزموا جانب الصمت ، أو نظموا القصائد فى اتهام المسلمين بالظلم ، والدفاع عن مزاعم أبناء طائفتهم . وذلك لأن نفوس الأقباط لم تكن قد تهيأت لقبول دعوة الاتحاد ، وهذا راجع إلى دسائس المحتلين .

* * *

ولا شك فى أن بعض عقلاء الأقباط وبخاصة مرقس حنا ، وويصا واصف بذلوا جهوداً كبيرة لخلق جو تسوده المحبة والمودة ، ولكن جهودهم لم يكتب لها النجاح فى ذلك الوقت .

فمثلا حدث أن دعا أحمد لطفى السيد المسلمين إلى الاحتفال بعيد الهجرة النبوية فى ١٣ ـ ١ ـ ١٩١٠ فكان من ضمن الحاضرين مرقس حنا الذى وقف وألقى خطبة جاء فيها :

« هذه السنة ـ يعنى السنة الهجرية ـ ليست سنتكم فقط ، بل سنة المصريين أجمعين ، لأننا نرى هذا الاحتفال قد ضم بين جوانبه الشبيبة المصرية كلها . فقد احتشدت فيه الشبيبة الإسلامية ، وشاركتها الشبيبة المسيحية للاحتفال برأس السنة الهجرية لدين شريف مبدؤه أن محبة الوطن من الإيمان . »

« وعلى هذا المبدإ أقول إننى مسلم ومسلم ، جئت لأقول لكم كلمة صغيرة فى مبناها ، كبيرة فى معناها ؛ وهى : مهما قيل ويقال عن تقاطعنا وتدابرنا فنحن إخوان فى الوطنية » .

« إذا حدث خلاف بين مصريين ومصريين فلا يعد ذلك دليلا على عدم وجود إخاء ، وإنما هو من مستلزمات الحياة » .

« أنا واثق بأننا لا نحيد كلنا ـ مسلمون وأقباط ـ عن ذلك المبدإ القويم ، وهو أننا كلنا إخوان فى الوطنية . »

و بعد أن انتهى من خطابه نهض الشيخ عبد العزيز جاويش ونوه بالأخوة الوطنية التى تربط بين عنصرى الأمة ، فقوبلت كلمته بتصفيق حاد . ثم إن جريدة الوطن فتحت صدرها لنشر الخطب والقصائد التى ألقيت فى الاحتفالات بعيد الهجرة النبوية .

ولكن جاء مقتل بطرس غالى فى ٢١ ـ ٢ ـ ١٩١٠ فبدد تلك الجهود الطيبة . فعادت الحال إلى أسوإ مما كانت عليه . ومع ذلك فإن عقلاء الأقباط لم يتخلوا عن الدعوة إلى الصفاء .

* * *

قلنا إن الدسائس الإنجليزية هى التى أوجدت تلك الخصومة التى نشبت بين العنصرين .. وقد وضع أخنوخ فانوس نفسه فى خدمة تلك السياسة . قال سالم سيدهم تادرس فى صحيفته « التيمس[1] المصرى » سنة ١٩٠٨ تحت عنوان « كيف يخونون ؟ » ما نصه « لقد أصبحت ـ يعنى أخنوخ فانوس ـ الشخص الذى إذا مر فى الطريق قلنا : هذا أحد صنائع الإنجليز فى مصر ، والآلة التى يحركها المقطم . اتق الله أيها المجتهد فى الباطل . »

وكتب مقالا آخر جاء فيه :

« ولكنى أقول فقط إن مصلحتها ـ أى انجلترا ـ دوام الحال الحاضرة ، و بقاء الاحتلال إلى الأبد . وهى تستخدم لذلك بعض الخونة الذين لا ضمير لهم يردعهم عن العمل المتواصل لقتل روح الوطنية » .

---

(١) عدد سبتمبر سنة ١٩٠٨ .

« هؤلاء أعداء مصر ، وهم لسوء الحظ من أبناء مصر ، فيجب أن نتبرأ منهم ، لأنهم بسوء فعالهم انفصلوا عنا ، فلا هم منا ، ولا نحن منهم » .

« يستخدم هؤلاء الخونة فى صدر أمهم الحنون سهمين جارحين : هما سهم الدين وسهم السياسة . وهم يمزجونهما مزجاً ظاهراً ، ويلصقون ذلك بأقوى حزب مصرى قام إلى الآن ، وهو الحزب الوطنى » .

* * *

وقد أنشأ أخنوخ فانوس هيئة سماها « مجتمع الإصلاح القبطى » وجعل وظيفتها إشعال روح الفرقة والخصومة بين المنصرين فى جميع جهات القطر . وقد كتب ويصا واصف مقالا فى اللواء بتاريخ ٤ ـ ٦ ـ ١٩٠٨ محذراً إخوانه المسيحيين من مجتمع الإصلاح ، ومما جاء فى هذا المقال :

« . . . تشكلت جمعية سميت بمجتمع الإصلاح القبطى . فانتخب لها رئيس الطائفة الإنجيلية ـ يعنى أخنوخ ـ رئيساً . ثم دعتنا إلى الانتظام فى سلكها . فسألناها : ما غرضك ؟ وإلى أى شىء ترمين ؟ إن كنت حزباً سياسياً فنحن لك أعداء ألداء ، لأن السياسة يجب أن تكون بعيدة عن الدين . وقد وصلنا والحمد لله إلى أن جميع الأحزاب السياسية المصرية جعلت قاعدتها الأساسية التمييز بين الدين والسياسة ، فلا معنى لوجود حزب سياسى قبطى . »

« فأجابت : إنى بعيدة عن السياسة ، والغرض من تشكيلها إصلاح الشئون الطائفية ، بدليل أن كثيرين من أعضائى موظفون عموميون . »

« فاعترضنا عليها اعتراضاً وجيهاً ؛ إذ قلنا لها إن للأقباط المصريين ثلاث طوائف ، إحداها : أرثوذكسية ، والثانية : بروتستانتية ، والثالثة : كاثوليكية . فإصلاح أى طائفة تقصدين ؟ وأنت تقولين إن بين أعضائك الأرثوذكسى ،

ورئيسك بروتستانتى . فلم تجبنا على هذا الاعتراض » .

« إن مجتمع الإصلاح هذا اسم على غير مسمى ، لأنى لا أحسب حساباً لبعض خدمة السكة الحديد الذين لم يدخلوا فيه إلا لعلمهم طبعاً بأن المسائل السياسية محرمة على المجتمع – يعنى مجتمع الإصلاح – »

* * *

إلا أن أخنوخ استطاع أن يتملق عواطف المسيحيين ويظهر نفسه بمظهر الغيور على مصالحهم، المدافع عن حقوقهم . فرجحت كفته ، وجاءته برقيات التأييد من أبناء طائفته فى القاهرة والأقاليم . وقد نشر فى صحيفة مصر كتابا مفتوحا إلى الأمة القبطية جاء فيه(١) :

« مجتمع الإصلاح القبطى العام يطالب الحكومة بالمساواة بين الأقباط وإخوانهم المسلمين فى جميع الحقوق بلا تمييز بسبب الدين ، وأن تعطى الوظائف مهما كانت لأرباب الكفاءة والاستحقاق من المسلمين والمسيحيين بصرف النظر عن الأديان والمذاهب »

فتلقى أخنوخ عددا كبيرا من برقيات التأييد من المسيحيين فى جميع جهات القطر ، وأخذت صحيفتا الوطن ومصر تنشران هذه البرقيات فى صدر صفحاتهما .

وكانت صحيفة اللواء لسان حال الحزب الوطنى قد أهملت كل إشارة إلى مثل هذه الحركات منذ مقال « الإسلام غريب فى بلاده » فلم ترد على الصحافة القبطية فيما أثاره أخنوخ فانوس بخصوص موضوع الوظائف . إلا أن

صحيفة « الدستور » لصاحبها محمد فريد وجدى فتحت صدرها للرد على المسيحيين . فشرع عباس محمود العقاد ينشر المقالات الطوال مسفها مزاعم أخنوخ فانوس ومن لف لفه وحذا حذوه من حمقى النصارى . قال تحت عنوان «مستقبل مصر على يد المسلمين »

« زين الغرور لهذه الفصيلة من الأقباط أن يوفدوا إلى إنجلترا وفدا يترجم عن إحساسها . وما هو إحساسها ؟ إحساسها أنهم يؤثرون العبودية على الاستقلال ، وأنهم لا يعدون المطالبة بحرية مصر إلا هوسا وجنونا . وأنهم مدلهون بحب الإنجليز ، يضعونهم فى هيا كل آبائهم الأولين ، و يعبدونهم آلهة من دون الله . كل ذلك ليكون أحدهم فى يوم من الأيام مديرا أو وكيل مديرية يمضى الأوامر ، و يعيد إلى ذاكرته مجد الفراعنة »

« ووهموا أن فى ذلك وقيعة بالمسلمين . وهم لقصر نظرهم يحسبون أن المسلمين أعداءهم الألداء ، وضرتهم فى وادى النيل . وفاتهم أن إنجلترا تعلم قبل سواها أنها لم تدع فى يد المسلمين نفعا فيحبسوه ، أو ضرا فيطلقوه . وأن الأمر فى مصر بين الإنجليز ، إن شاءوا رفعوهم إلى السماك ، وإن شاءوا خفضوهم إلى الحضيض . وما حملهم على الاستهانة بهم واستضعاف شأنهم إلا تذبذبهم وتزلفهم إلى كل من يتوهمون أن بيده نفعا يرجى ، أو ضرا يخشى حتى أصبحوا مثلا فى الخسة والاستماتة وموت الوجدان . »

« هذه الفئة يتبرأ منها الأقباط قبل سواهم . فإن كان المسلمون يأنفون أن يكون فى أبناء وطنهم مثل هذا الصغار ، فإن الأقباط ألصق بهم ، لأنهم عليهم من بابين : باب الوطنية و باب الدين . »

* * *

(١) الدستور فى ١٨ — ٥ — ١٩٠٨

وكتب مقالا [١] آخر جاء فيه :

« يريد الأقباط أن تراعى الكفاءة فى تعيين المديرين . ومعنى ذلك أنه لا بأس فى أن يعين كل المديرين من الأقباط مادام فيهم أربعة عشر رجلا يصلحون لتولى هذه الوظيفة . وغدا يكون للأقباط مديرون ينصرفون بكلياتهم إلى تعضيد الجمعيات القبطية ، وحشر التلاميذ إلى مدارسها ، و إهمال كل ماعدا ذلك ؛ كما يفعل موظفو الأقباط الآن . »

« ثم يعيدون الكرة بعد أيام ، ويرمون المسلمين بالتعصب لأنهم لا يرضون عن تعيين وزير للداخلية من مديرى الأقباط ، كما هو الحال فى المديرين من المسلمين . فيضطرون إلى إجابتهم لأنهم لا يجدون حجة عليهم بعد أن فتحوا لهم الباب . وهناك الطامة الكبرى . »

« يعمل هذا الوزير مافى وسعه لمحو أثر المسلمين من وزارته ، واستبدالهم بأبناء دينه القبطى . لا يدع فرصة تمر إلا إذا انتفع بها واستعملها فى خدمة طائفته ، و إن كان فى ذلك ضرر بغيرها . »

« إن راق هذا للمستسلمين فليصروا على ماهم فيه من السكوت والإغضاء . أما الأقباط فهنيئا لهم ما يسلبون من حقوقنا ، وهنيئا لهم ما ينقصون من أطرافنا ونحن نتمتع بخيالات الحكمة والوفاق واتحاد العناصر الوطنية ، ولا أرى لها فى عالم الحقيقة أثرا »

وكتب تحت [٢] عنوان « كيف تذهب الأرواح والأموال فى مصلحة السكة الحديد ؟ »

---

(١) الدستور فى ١٣ ــ ٨ ــ ١٩٠٨

(٢) الدستور فى ١٧ ــ ٦ ــ ١٩٠٨

« . . . هذه سنة مطردة فى مصلحة السكة الحديدية . فلا يجوز أن يعاقب المسيحى بأكثر من استقطاع خمسة أيام من مرتبه . ولا يجوز أن يبقى المسلم وإن أتقن عمله ، وراقب الله فيما يعهد إليه . فمسيحية العامل تبرر سرقته واختلاسه ، وإهماله وتدليله ، وكل ذنب يأتيه مهما كانت تبعته جسيمة . وإسلامه يجعل حسناته سيئات ، وأمانته خيانة ، وحذقه سخفا ، وجده توانيا وجمودا ، وأدبه قحة ، وطاعته عصيانا وهلم جرا . »

« هذا هو الحق الصراح الذى لا نرى أن غيره أولى بالظهور منه . ولذلك قلناه لعله يقنع قوما لم يحسنوا إدارة الأعمال الكتابية فتطلعوا إلى الإدارية منها ، وهى التى يعوزها العدل ، وسعة الصدر ، والترفع عن السفاسف ، والنظر إلى الأمور بعين المصلحة العامة مع العلم وغزارة المادة . وقلما تجتمع هذه الصفات فى رجل لا يحرك يده إلا لنفع أبناء ملته ، وإيذاء غيرهم ؛ مسوقا إلى ذلك بدافع التعصب والحقد على المتدينين بغير دينه »

* * *

وشرع كتاب النصارى وشعراؤهم يردون على كتاب المسلمين فيما يتعلق بالوظائف . مثال ذلك ما نشرته صحيفة[1] الوطن بإمضاء حقوقى حر :

« لا تودون أن نرقى إلى وظيفة إدارية لا هى فى العير ولا فى النفير . فهلا سمعتم أو قرأتم عن تاريخ أسلافكم الذين قلدوا الأقباط أسمى المراكز العالية سواء كانت ملكية أو عسكرية ؟ » ثم استشهد الكاتب ببعض كبار الموظفين الأقباط فى عهد الدولة الفاطمية والأيوبية .

(١ ، ٢) الوطن فى ١٠ ، ١٢ — ٥ — ١٩٠٨

ثم قال « أما الآن فقد منع القبطى أو حرم عليه أن يكون مديرا بدعوى أنها وظيفة إسلامية لا وطنية ، كأنه محتم على المدير أن يؤذن فوق المأذنة قبل الصلاة ، أو يكون إمامهم وقت الصلاة ، أو يقوم فيهم خطيب الجمعة »

« على أن الحقيقة أن القبطى حرم من الوظيفة الإدارية لأنه قبطى وليس لأنها دينية كما أثبت . فهل بعد ذلك نرجو مجلساً نيابيا وقد دسنا بأقدامنا على العدالة والقانون ؟ » .

وكتب آخر[1] تحت عنوان « واجبات الأقباط وحقوقهم » مقالا جاء فيه :

« ثقوا أن الأقباط إن صمتوا اليوم لا يصمتون غدا . وقد رأوا أن الأجانب الذين استوطنوا الدولة الرومانية فى بدء نشأتها حصلوا على الحقوق التى حرم منها الوطنيون ، فكيف بهم وهم أبناء البلاد ؟ » .

« لا يهدأ للأقباط فكر ، ولا يطمئن لهم بال حتى ينالوا مطلبهم . وكيف تسوغون لأنفسكم أن تسدوا علينا منافس الحرية والحياة ؟ أطبقا لقواعد تنازع البقاء ؟ تنازع البقاء يقتضى أن تكون أبواب الرزق مفتوحة للجميع ، وأن الفائز هو السابق . »

« فإذا خرج تنازع البقاء من هذه الحدود ؛ كان توحشاً لا شك فيه ، لأن الأرواح تصبح مباحة ، والأموال تنهب وتسرق ، وغير ذلك مما نستقرؤه من الحوادث »

« أما نحن الأقباط فلا عار علينا إن قلنا إن اللوم فى اهتضام حقوقنا واقع علينا . إن تفرق قلوبنا ، وعدم اتحاد كلمتنا ، وسكوتنا وجبننا ويأسنا . إن حب

---

(١) الوطن فى ١٠، ١٢/٥/١٩٠٨

الذات ، وحب الرياسة ، إن عدم وجود روح الحياة فينا ومحاربتنا لأنفسنا ، وأكلنا بعضنا بعضا كما تأكل الأسماك بعضها ، و بعبارة أوضح إن ضعف رابطتنا الطائفية ؛ كل ذلك أوصلنا إلى هذه الحالة التعيسة » .

« إن العيب فينا ومنا . فيجب أن نتلافى هذه الأمراض و إلا سقطنا سقوطا لا قائمة لنا من بعده . يجب أن نتحد و يلتصق بعضنا ببعض فنكون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً » .

« انهضوا وألقوا الوفود لتطرق أعتاب سمو خديوينا المعظم . و إن لم تنجحوا فعليكم بالدول الأوربية ناصرة الإنسانية ، وأولهن الدولة الإنجليزية . »

* * *

وحدث أن نشر على يوسف الجريدلى اقتراحا على صفحات المقطم بتحديد نسبة للموظفين المسيحيين بمصلحة البريد ، وذلك لأن معظم موظفى هذه المصلحة كان من النصارى . فرد عليه مسيحى بإمضاء « قبطى حر » قائلا :

« حضرة [1] الأحمق على أفندى يوسف الجريدلى » .

« قرأت اقتراحك السخيف المنشور فى جريدة المقطم السافلة بكل استغراب وإنى أتعجب من تعصبك القبيح حيث إنك تريد بهذا الاقتراح أن تحرم أسيادك الأقباط الموظفين بالبوستة من حقوقهم ، مع أن حقوقهم هذه محفوظة لهم ومثبوتة بأقوى البراهين ياابن الكلب ياحمار ! ولكن قاطع الله تعصبك وتعصب أمثالك ، ولعنة الله عليك وعلى المقطم أيضاً الذى وافقك على هذا الاقتراح ونشره لك . وإنى أقول لك ولغيرك من المتعصبين إن الوظائف التى نحصلها فى البوستة قد تحصلنا عليها بالاستحقاق والكفاءة ، لأننا لسنا مثلكم كسالى بهائم »

---

(١) الوطن فى ١٩١٠/١/٢٢ .

« وإنى وكل قبطى ينظر إلى اقتراحك هذا بكل احتقار ، حيث إنك تقصد به يا ابن الكلب أن المسلمين يهضمون حقوقنا ، ولكن أقول لك : انفلقوا ، انفلقوا ، انفلقوا »

وعجيب جدا أن تنشر صحيفة الوطن مثل هذا الكلام ، ثم تتهم المسلمين بسوء الأدب وقلة الحياء ! !

* * *

وقد انحاز بعض الشعراء المسيحيين إلى الحمقى من أمثال أخنوخ فانوس وجماعته . فهذا أحدهم ينشر قصيدة فى الوطن[1] بإمضاء الشاعر المتألم، جاء فيها :

أما الحقيقة فى رأيى ومعتقدى ... فإنها الشمس لا تخفى على أحدِ
لكنها النفس قد ينتابها غرض ... حينا كما قد تصاب العين بالرَّمدِ
قمنا نرجِّى التساوىَ فى الوظائف لم ... نطلب سوى العدل ، لم ننقص ولم نَزِدِ
قالوا جننتم وقاموا ضد مطلبنا ... بحجة الدين عن غل وعن حسد
قلنا : ولا نبتغى غير الكفاءة من ... شرط عن الحق لم نعدل ولم نَحِدِ
قالوا : كفرتم ، وغالوا فى مسبتنا ... من كل لفظ ومعنى سافل ورَدِى
قلنا : اتقوا الله فيما تنطقون به ... وأنت يا شيخهم ياعلّة النَّكَدِ
هاجوا علينا وماجوا صائحين بنا ... يا ليت فرعون لم يولد ولم يَلِدِ
قلنا : مطالبنا يا قوم عادلة ... يا قوم حق ، فقالوا : نسبة العددِ
قلنا أخيراً ، ولا زلنا نقول لهم ... إن البعوضة تدمى مقلة الأسدِ
ذُكاء فيما نرى دوما إذا احتجبت ... يوما تعود إلى الإشراقِ يوم غدِ
وهى الحقيقة لا تخفى وإن خفيت ... فليس يا سادتى إلا إلى أمَدِ
هو التعصب قد أعمى عيونَهمُ ... وهو التحزب للأديان قد وقدِ

(١) الوطن فى ١٩ / ٨ / ١٩٠٨ .

فحسبنا الله فى حزب سياسته لم تُجْدِ منفعة ، كلا ولم تفِدِ
لا بدع إن هتكت أسراره و إذا أخنى عليه الذى أخنى على لَبَدِ
فطالما نصحته الناس مشفقة لكنه لم يطق سمعاً ولم يُرِدِ
و إنما الذنب للمرحوم أسسه على طريقة فرق بينهم تَسُدِ

وفى هذه القصيدة اتهام للمسلمين بالتعصب الذى أعمى عيونهم كما يقول الشاعر . واتهام للحزب الوطنى ولمصطفى كامل . ولكن هل كان الحزب الوطنى يملك حرمان المسيحيين من حقوقهم ؟ هل كان الحزب الوطنى يعين الموظفين ويرقيهم ؟ ويقول الشاعر إن مصطفى كامل جعل شعاره التفرقة بين عنصرى الأمة ليعود عليه نفع ذلك . وهذا كلام غير سليم ، لا يصدر من عاقل منصف . وهو نوع من الهراء الذى لا يستحق المناقشة . وهو يقول إن الوظائف لا ينبغى أن تراعى فيها النسبة العددية لأن العبرة ليست بالكثرة والقلة . فقد تكون القلة أشد مضاء وأعظم قوة من الكثرة . وعلى كل فهذا احتمال قد يصح وقد لا يصح . وهو دون شك غير صحيح .

* * *

وقال جرجس[1] البياضى :

ماذا جرى فى الكون حتى كشّروا للقبط عن ناب من الثعبانِ
نزعوا الحياء وجاهروا بعداوة حسبوا بها ربحا من الخسرانِ
خفروا لنا ذمم الجوار وخالفوا عهد الولاء وصحة الوجدان
أأساة مصر المدّعين قيادها أكذا تكون مبادئ العمران ؟
هل لم يرحب قبط مصر بفتحكم للقطر حين حللتُم بأمانِ ؟
فبأىِّ شرع تنكرون حقوقهم وتقابلون الوُدَّ بالعُدْوَانِ ؟
أقسمت لو عاد الزعيم لدارِنا لرثى البلاد بمدفع هتّانِ[2]

* * *

(١) مصر فى ٧ ــ ١١ ــ ١٩٠٨

(٢) يقصد بالزعيم مصطفى كامل

أين الذى أوصى النبي به من الـ معروف للأقباط. والرهبان ؟
كانت مبادؤه مساواةَ الأنا م بكل حق دون ما رجحانِ
وكذا المواثيق التى خلفاؤه قد أبرموها خشية الطغيانِ
هذى العهود بنصها محفوظة قد قصَّرت عنها يد النِّسيانِ
لولا الوثوق بقبط مصر لما رأوا فيهم حليفاً صادق الإيمانِ
فالقبط أقدم أمة ترعى الوفا وتجود بالأرواح والأبدانِ
كم فى سبيل أمانة وصيانة ضحَّوْا من الأبطال والشجعانِ
ما أبعد الشحناء عن غاياتهم مهما تغير طوارق الحدَثانِ

* * *

ما للمذاهب والسياسة إنما مصر لنا والدين للديّانِ
الدين حرٌّ فى المعابد كلِّها فى مأمن من جور ذى عُدوانِ
يامَن يُتاجِر بالمذاهب لا عباً بعقول قوم لا يَعُون معانى
رفقا بغوغاء أضلهمُ الهوى وأخشَ الإله ونَصبةَ الميزانِ
والدين معناه اعتناق فضيلة وتجنبُ الإضرار بالإنسانِ
والاتحاد شريعة الرحمن فى التـ وراة والإنجيل والقرآنِ

فالأبيات الأولى من القصيدة اتهام للمسلمين بأنهم أساءوا إلى المسيحيين وغمطوهم حقوقهم . ويقول الشاعر إن أقباط مصر رحبوا بالفتح العربى ، وصاروا حلفاء للمسلمين ، وأن النبى محمداً عليه السلام وصى بالإحسان إليهم ، وكذلك الخلفاء الراشدين من بعده ؛ يقصد عمر بن الخطاب الذى فتحت مصر فى عهده . وقال إن مبادئ نبى المسلمين وتعاليمه تنص على المساواة بين الناس ، وإجراء العدل على الجميع . وأن العرب اطمأنوا إلى الأقباط ووضعوا ثقتهم

فيهم فوجدوهم حلفاء مخلصين . وقال إن الأقباط يحافظون على العهود والمواثيق لأنهم عرفوا بالوفاء منذ القدم ، وضحوا بأرواحهم فى سبيل المحافظة على الأمانات. وقد تطهرت قلوبهم من الضغائن والأحقاد . وظلوا متمسكين بتلك الصفة على الرغم مما تعرضوا له من الظلم والتنكيل . ثم نادى بوجوب الفصل بين الدين والسياسة ، لأن الدين لله ، والوطن للجميع . ثم ندد بالذين يتخذون الدين تجارة ، وبالذين يتلاعبون بالأديان ابتغاء منفعة ذاتية تعود عليهم ، وحذرهم من عقاب الله :

* * *

ومع أن الشيخ عبد العزيز جاويش أعلن أنه لم يقصد بمقاله «الإسلام غريب فى بلاده» أن يتعرض لجميع المسيحيين ، إنما تعرض فقط لفريد كامل ولصاحب «الوطن» إلا أن النصارى عن بكرة أبيهم امتلأت قلوبهم بالحقد عليه . وهجاه كتابهم وشعراؤهم هجاء يحمل فى طياته الكره والبغض، والرغبة فى التشفى والانتقام. وكانت «الوطن» تفسح صدرها لنشر هذا الهجاء . فمن ذلك قول أحدهم :

بين عبد العزيز فى مصر وعبد العزيز فى مراكش
نسبة فى الخلال والإثم والشقا والتناقش
فاحفظ العهد واتق اللـه فى الـوا يابن جاوش

وقال آخر من قصيدة :

قلنا اتقوا الله فيما تنطقون به وأنت ياشيخهم ياعلة النكد

يقصد عبد العزيز جاويش .

وكتب أحدهم [1] مقالا جاء فيه :

(١) الوطن فى ١٥ — ٧ — ١٩١١

« ... فهو غراب البين ينعق بالشؤم والبلاء ، وجذوة تضرم نار الشحناء ، ووباء أصيب به جسم المجتمع المصرى ، وواسطة للتفريق وتشتيت الجمع ، وشهادة حية على أن فى مصر داء عقاما . وحجة للأجانب على قصور المصرى وعدم استحقاقه للدستور . »

« إن هذا الشيخ الذى قضى سوء الطالع على مصر أن تصاب بوجوده قابض على سياسة الحزب الوطنى ، يحرر المقالات باسم هذا الحزب ، ويلبس خباثته فى أكثر الأحيان لباس الوطنية والدين ، ولكنه عدو لكليهما بما ينفث من سمومه فى كل حين . »

« ... كل هذا لم يكف المحرض التونسى كأنه لم يولد حتى الساعة بغضاً فى صدور المسلمين لهذه الطوائف والأمم المسيحية ، حتى أن الرجل نشر آخر آيات سمه ، وأسقم زلات قلمه فى مقال نشره عن البروتستانت ، وهم كما يعلم التونسى ، طوائف مسيحية راقية عظيمة . إن هذا الشاويش التونسى المعجب بشاربيه ، العامل على حط القطر المصرى إلى الحضيض ، المستأجر للتخريب والتدمير قال أقوالا تعد عاراً على الصحافة المصرية . قال المحرض التونسى إن البروتستانت ينمون روح التعصب الممقوت ، وأنهم يعمدون إلى الحيل . وقد استغووا عدة آلاف من أقباط مصر ، وحولوهم إلى مذهب البروتستانت . فهو هازئ بالأمريكان والأقباط معاً فى هذا الهراء السقيم .

* * *

ووجه صاحب « الوطن » خطاباً مفتوحاً إلى العميد البريطانى فى ٢٦ـ١٢ـ١٩٠٨ نشره تحت عنوان « النفى النفى » قال فيه :

« مولاى السير

« إنك تمثل فى وادى النيل الدولة البريطانية التى دخلت هذه البلاد لإصلاحها . فلذلك لا أجد بدا من الاعتقاد بغيرتك على صالح هذه البلاد كما يقضى الواجب والذمة والضمير » .

ثم تكلم عن الضائقة المالية واضطراب الأمن ، وقال إن سبب هذه المصائب: محمد بك فريد ، والشيخ عبد العزيز جاويش ، وإن الأمة تطالب بنفيهما.

* * *

ولم تنحصر مطالب المسيحيين فى المساواة فى الوظائف، بل تجاوزتها إلى أمور أخرى . كتب « حقوقى حر » فى الوطن مقالا سنة ١٩٠٩ جاء فيه :

« القبطى ملزم ككل وطنى أن يدفع الضرائب والأموال بكل أنواعها. فكان يجب بمقتضى القانون العام أن ينتفع بها بقدر ما ينتفع بها المسلم . ولكن الحكومة المصرية التى تعتبر نفسها مسلمة أكثر منها وطنية أظهرت تحيزاً لفريق من رعاياها دون فريق . فأسست دورا علمية دينية خصوصية لذلك الفريق تصرف عليها من أموال الأمة كلها كمدرسة القضاء الشرعى ، ومدرسة المعلمين الناصرية « دار العلوم » والكتاتيب « المدارس الأولية » ومدارس معلمات الكتاتيب ، ومدرسة البوليس حتى أوجب ذلك استياء المنصفين . »

« آمنا أن مدرسة المعلمين الناصرية ، ومدرسة القضاء الشرعى والكتاتيب إسلامية، لأن الشريعة الإسلامية والدين يعلمان فيها، فليس للأقباط حق فى دخولها وإن كانت نفقاتها تؤخذ من جيوب الأمة كلها . ولكن لماذا يمنع القبطى بواسطة منشورات سرية من الدخول فى مدرسة البوليس ، وهى مدرسة عمومية للأمة ، لا يعلم فيها دين ولا شريعة ؟ إنها لأمور تضحك منها الجهلاء ، ويبكى منها العقلاء » .

ويجب أن نعلم أن مدرسة البوليس كان يسيطر عليها الإنجليز فى ذلك الوقت ، بل إنهم كانوا يسيطرون على وزارة الداخلية كلها وعلى جميع الوزارات . وقد رفض السير الدون غورست حينما كان يعمل مستشاراً لوزارة الداخلية أن يعين مسيحيا فى وظيفة مأمور مركز . وأما شكوى الأقباط من حرمانهم من الالتحاق بمدرسة القضاء الشرعى فهى التى تستحق الضحك .

* * *

وكان المسيحيون قد فكروا فى عقد مؤتمر قبطى سنة ١٩١٠ ليتبادلوا وجهات النظر فيما يتعلق بمطالبهم ويرفعوا بها مذكرة إلى الحكومة المصرية ودار الاحتلال . إلا أن مقتل بطرس غالى قد أجل انعقاد هذا المؤتمر . وفى سنة ١٩١١ ظهرت عندهم فكرة المؤتمر من جديد . وبهذه المناسبة كتب الشيخ جاويش مقالا لا يقل شدة وعنفاً عن مقاله « الإسلام غريب فى بلاده » ونشره بمجلته « الهداية[1] » ومما جاء فيه .

«أما ما توهمتموه من أن المسلم أخذ يكيد لكم المكايد ، ويبيت لكم السوء ؛ فأنتم تعلمون أن هذا ليس من طباعه ولا مألوف عادته . ولو كان المسلم ممن يحمل الضغائن ويسع صدره الحقد لما نسى لكم ما فعلتموه أيام الاحتلال الفرنسى لهذه الديار ، حين أعوزت المحتلين القوة والجنود ، فتقدمتم إليهم طائعين فرحين، فألفتم جيشكم الذى كان على رأسه كبير منكم . ثم لما أعوزهم الزاد والمال التزمتم لهم بيوت المسلمين ، وقد كنتم كتابها وأمناء خزائنها ومصرفى شئونها . التزمتم تلك البيوت فاستبحتموها ولم تذروا لها حرمة إلا انتهكتموها ، حتى أن أحدكم

---

(١) عدد فبراير سنة ١٩١١

كان يتفقد ما يقدمه له أفراد الأسرة الإسلامية من مصوغاتهم وجواهرهم وصنوف حليهم ؛ فيعدها واحدة واحدة ، ثم يحاسبهم على ما غاب منها وهو بها أعلم ، فإنه الذى اشتراها بيده وعرف مكانها يوم كان أميناً على خزائن الأسر ، مديراً لشئونها . فماذا أنسى المسلم أمثال هذه الحادثة سوى أنه كريم جواد هين لين ؟ »

« أرأيتم لو وضع منكم مدير على رأس مديرية ما ، وأخذ يجمع حوله الوكيل القبطى ، والكتاب الأقباط، والقضاة الأقباط ، ووكلاء النيابة والمهندسين الأقباط والمحامين الأقباط ، والتجار الأقباط ، والفلاحين الأقباط ؛ فمن ذا الذى ينصف المسلم المسكين إذا وقع بين مخالب هؤلاء ؟ وأنتم تعلمون ما يصيب المسلمين اليوم على يد الموظفين الأقباط دون أن يجتمعوا ذلك الاجتماع . أين يذهب المسلم إذا تحولت مديريته مستعمرة قبطية ذلك شكل حكومتها ؟ »

« أأخبرك أيها المظلوم بما فى برنامجك ، وبما مر الآن فى صدرك ؟ أنا مخبرك وكاشف سرك . يترك هذا المسلم أطيانه وعقاره ويتأبط هراوته ومزادته إن تمكن منها ، ثم يخرج مسرعا إلى بلد آخر . ولا يزال المسلمون يخرجون سراعا على ذلك النحو ، وعلى نحو ما نرى فى مصالح الحكومة منذ جيل حتى تخلو المديرية لبنى الطائفة . »

« ثم تقولون فى الباقية ما قاله بعضكم يوما ما وقد هنئ بوظيفة سامية : هذه بضاعتنا ردت إلينا . »

* * *

ولم يكن البطريرك راضياً عن هذا المؤتمر ، فأصدر منشورا[1] جاء فيه :

---

(١) المؤيد فى ٤-٣/١٩١١ .

« . . . إلا أن جعل المفاوضة على مثل هذه الصورة ، ودعوة الجم الغفير من أبناء الطائفة للاجتماع والمفاوضة فى مثل مدينة أسيوط ؛ ربما يوجد إشغال البال ، و يسبب قلق الخواطر لعدم تعود أهالى تلك الجهات عموما على مثل هذه الاجتماعات التى لا تخلو من أمور قد يحدثها بعض أصحاب قلة النظر فى العواقب. وشفقتنا الأبوية ، ومحبتنا الكبيرة نحو الجميع تدعونا إلى إبداء النصيحة لأبنائنا الأعزاء بأن ينظروا فى مصالح طائفتنا المحترمة بغير الطريقة الشارعين فيها ؛ أى حشد الجم الغفير فى مثل المدينة المذكورة حتى لا تكون مساعيهم فى رقى الطائفة عرضة للتقول ، ولا يحدث عنها ثوران النفوس والتهييج . »

وقد أرسل البطريرك صورا من هذا المنشور إلى المطارنة ، ومع كل صورة خطاب لإبداء النصيحة لأبناء الطائفة بأن يعدلوا عن عقد هذا الاجتماع الذى لا تضمن عواقبه .

إلا أن مطران أسيوط لم يستطع أن يقاوم التيار فاضطر إلى أن يفتتح المؤتمر بكلمة قصيرة لم تتضمن سوى الدعاء لأبناء الطائفة بالتوفيق ، ثم الدعاء للمصريين أجمعين ، وللخديو .

* * *

وكان المعتمد البريطانى السير الدون غورست قد وقف فى وجه تطرف المسيحيين بالمرصاد . فقام بزيارة لبعض مديريات الوجه القبلى التى يكثر فيها النصارى ، ولما رجع من رحلته أوعز إلى مراسل روتر بنشر النبأ الآتى :

« زار السير[1] الدون غورست المديريات التى يكثر فيها الأقباط ، و بحث

---

(١) المؤيد فى ٢٠ ـ ٢ ـ ١٩١١

فيما يسمونه المطالب القبطية بحثا مستفيضا ، فوجد أنه ليس للقوم شكوى جدية خارج مدينة مصر . وهو يقول إن الأقباط والمسلمين يعيشون بالصفاء معا إذا تركوا وشأنهم . وإن أشد الأمور ضررا بالأقباط اعتبارهم طائفة قائمة بنفسها . ووجد السير الدون غورست أن مطالب الأقباط المتعلقة بالتعليم منظورة فى مجالس المديريات فى كل جهة بما يحق لها من الاهتمام . »

ولما اطلع المسيحيون على هذا التصريح هاجوا وماجوا ، وأرسلوا البرقيات الكثيرة إلى الصحف البريطانية محتجين أشد الاحتجاج على ما نشره مراسل روتر . وأخذوا يحملون على المعتمد البريطانى و يفندون أقواله .

وأخيرا اضطر السير الدون غورست بعد إلحاح ، و بعد أن تلقى برقية من وزارة الخارجية البريطانية بموافقتها على عقد المؤتمر — إلى السماح للمسيحيين بالاجتماع فى مدينة القاهرة ، فأبوا إلا أن يكون اجتماعهم فى أسيوط ، وذلك ليثبتوا أن شكوى النصارى ليست منحصرة فى سكان القاهرة المسيحيين ، بل عامة فى جميع أنحاء القطر . ولأن مدينة أسيوط — كما ذكروا — عاصمة الأقباط . فوافق على ذلك بعد اطلاعه على برنامج المؤتمر ، ولكنه أضمر فى نفسه العداء لهذه الحركة كلها ، ووطد العزم على مقاومتها . وكان قد أبدى تخوفه للحكومة البريطانية من قيام المسلمين بحركة مضادة، وعقد مؤتمر لهم أسوة بالمؤتمر القبطى ، وحينئذ تزداد العلاقات بين العنصرين سوأ ، وربما يفضى الأمر إلى مالا تحمد عقباه .

وقد خصص السير الدون غورست حيزا كبيرا من تقريره عن سنة ١٩١١ للكلام على حركة المتطرفين من المسيحيين . قال :

« شغلت(١) شكاوى رجال من القبط من معاملة القبط بالنسبة إلى معاملة مواطنيهم المسلمين محلا منيفا فى الجرائد المصرية مدة من الزمن . ثم ازدادت دائرة الانتباه إليها اتساعا بعقد المؤتمر القبطى الذى ذكرت أخبار مداولاته مليا فى انجلترا . وأذكرهنا على سبيل العرض أن الذين نظموا هذا المؤتمر هم فئة صغيرة من أرباب الأطيان الأغنياء بالوجه القبلى ، لم يدعوا أنهم يمثلون أكثر من أثنى عشر ألفا من سبعمائة ألف قبطى فى مصر . »

« وقد أقاموا أنفسهم بأنفسهم نوابا عن أبناء طائفتهم مع وجود فرقة نافذة الكلمة منهم لا تستصوب عملهم بل تخطئه ، ومن جملتها البطريرك الذى هو رأس الكنيسة القبطية بمصر . »

ثم قال « إن بطرس باشا الذى يعد تقلده لمنصب ناظر أزمانا متطاولة فى وزارات متعاقبة ، وتقلده رياسة النظار أخيرا ، دليلا يدحض دعوى من يدعى أن الأكفاء من الأقباط ممنوعون من تقلد الوظائف العالية . »

« وعندى أن اعتبار فريق من الأهالى جماعة منفصلة عن غيرها خطأ لا بد وأن يضر أخيرا بمصالح الأقباط . ولا شبهة فى أن مصالحهم المادية لم تكن فى وقت من الأوقات أصلح مما صارت عليه فى السنين الأخيرة رغما عما يدعونه ويشكون منه من عدم المساواة . وما من أحد استفاد أكثر منهم من الإصلاح الذى أدخل إلى القطر المصرى على يد الاحتلال البريطانى . كما يستدل من أن كثيرين من أغنى الأهالى وأوسعهم أملاكا فى هذه البلاد هم من الأقباط »

---

(١) نقلا عن المؤيد فى ١١ / ٥ / ١٩١١

ولما ترجم هذا التقرير ونشر ثارت الصحف القبطية وأخذت تكتب المقالات الطويلة فى الرد عليه . واتهمت المعتمد البريطانى بأنه يتحيز للأكثرية الإسلامية ويحابيها على حساب الأقلية . وافتتحوا بلندن المكتب القبطى للدعاية والإعلان ، وكسب عطف الرأى العام البريطانى ، والاستنجاد به لتحقيق آمالهم والظفر بمطالبهم . ووضعوا على رأس هذا المكتب «قرياقص ميخائيل» يعاونه «لويس أخنوخ فانوس» الذى كان يدرس فى انجلترا فى ذلك الوقت .

وشرع هذا المكتب يتصل بالصحف البريطانية وبأعضاء مجلس العموم . وقد حملت الصحف البريطانية على السير الدون غورست حملات عنيفة ، وناقشت تقريره مناقشة حادة ، ووجه بعض النواب أسئلة محرجة إلى وزير الخارجية .

* * *

° وكانت مطالب الأقباط التى عرضوا لها فى المؤتمر تنحصر فى :

١ — تعليم الدين المسيحى للطلبة المسيحيين بالمدارس . وقد تحقق هذا الطلب سنة ١٩٥٥ فى ظل الاستقلال . حققته حكومة وطنية مستقلة ، لإدار الاحتلال البريطانى ، ولا وزارة الخارجية البريطانية .

٢ — أن تنفق الحكومة على محاكم الأحوال الشخصية للنصارى ، لأنها تنفق على المحاكم الشرعية . ومع أن المحاكم الشرعية كانت تدر رسوما تزيد على نفقاتها ، إلا أن مطلب الأقباط هذا قد تحقق سنة ١٩٥٥ فأصبحت المحاكم الوطنية تنظر قضايا الأحوال الشخصية للمسلمين ولغير المسلمين

٣ — تقرير يوم الأحد عطلة رسمية بالنسبة للموظفين المسيحيين فى جميع المصالح الحكومية ، وكذلك بالنسبة لطلبة المدارس والمعاهد . واعتبار أيام الأعياد

المسيحية عطلة رسمية يعفى المسيحيون فيها من الذهاب إلى أعمالهم . وقد أجيبوا إلى طلبهم فيما يتعلق بالأعياد ، فصرح لهم بالتغيب فى خلالها. أما العطلة الأسبوعية فظلت كما هى أسوة بالبلاد التى وجدت فيها أكثرية وأقلية ، ونزلت فيها الأقلية على حكم الأكثرية .

٤ — زيادة عدد الموظفين المسيحيين ، لأن نسبة عدد المتعلمين المسيحيين يبلغ ٣٥٪ من مجموع المتعلمين ، فيجب أن ينالوا من الوظائف بمثل هذه النسبة . وقد أصبحت هذه الشكوى منتهية الآن ، لأن ديوان الموظفين يجرى التعيين فى الوظائف عن طريق الامتحان دون النظر إلى الاعتبارات الدينية .

٥ — إعطاء المسيحيين حق الترقية الإدارية إلى الوظائف الإدارية الكبرى كوظائف مديرى الأقاليم . وقد عارض الإنجليز هذا الطلب . قال السير الدون غورست : « إذا عين قبطي فى وظيفة إدارية عالية وجد أن معظم الأهالى أعداء له ، لا يعاونونه ولا يطيعونه : » وقال : « إن الاختبار أظهر عدم كفاءة الأقباط لهذه الوظائف مع أهليتهم للوظائف الأخرى ، لأنهم خالون من الصفات الإدارية ، وقد جربوا فى خفر السواحل والسجون فلم يفلحوا »

والحق إن الوظائف الإدارية الكبرى فى جميع بلاد العالم لا يشغلها إلا أبناء الأكثرية .

* * *

وقد نظم شعراء المسيحيين قصائد كثيرة فى تحية المؤتمر نذكر منها قصيدة[١] بولس الشماع وهى :

---

(١) الوطن فى ٩ — ٣ — ١٩١١

بشِّر بنى فرعون بالسرَّاء فاليوم يومُ سعادة الأبناء
رمسيس قم وانظر لمؤتمر حوى من كل واد أنجب النجباء
أنا إن طربت فإنما من نخوة تعلو بنا فى سُلَّم العلياء
أنا إن سررت فإنما من نهضة تقضى على التفريق شر قضاء
إن الشعوب إذا توحد أمرها فازت بلا تعب ولا غوغاء
ويد الإلهِ مع الجماعة إن همُ خدموا بصدق طوِيَّة وولاء
نوّابَنا سيروا بنا نحو العلا إن العلا بتآزر وإخاء
واستعصموا بالله لا تتفرقوا إن التفرق أصل كل بَلاء
وحذار أن يقف القنوط أمامكم فيعيقكم عن رفعة وعَلاء
ودعوا الرئاسة للصغار إذا همُ سلكوا سبيل أمانة وَوَفاء

* * *

قولوا لمن نسج الغرور مقالَهم كالعنكبوت يزول بالأنواء
خير لكم وبلادكم لو تنهجو نَ على صراطٍ مستوٍ وإخاء
فالدين للديَّان جل جلاله والنيل مشترك بغير مِراء
لنضيف للتاريخ خير مآثر بيضاء مثل مآثر الآباء
فلكم من الشعب الأمين تحية ولكم من الرحمن خير جزاء

فبعد أن عبر الشاعر عن سروره لعقد المؤتمر ؛ دعا المسيحيين إلى ترك ما بينهم من خلاف جرت وقائعه بين الإكليروس وخصومه بسبب الأوقاف وغيرها . وأشاد بقيمة اتحاد أبناء الطائفة النصرانية ، ونادى بضم صفوفها ، لأن الاتحاد هو الطريق إلى نيل المآرب ، وتحقيق المطالب، وهو السبيل إلى النجاح . ثم قال إن المسلمين اغتروا بكثرتهم ، والكثرة لا تغنى عن الكفاءة . وأشار على

إخوانه بأن يطلبوا المساواة فى الوظائف لأن الوطن للجميع ، أما الدين فلله . وختم قصيدته بأن حيا الأعضاء باسم الشعب المسيحى ، ودعا الله أن يجزيهم خير الجزاء .

* * *

وقال رياض غبريال(١) :

بنى القبط إن القبط تُجلَّ عيونهم ... على أفقِ الآمال تعلو وتنبظرُ

بنى القبط أفنينا السنين ولم تزل ... رغائبنا مثل الضمائر تُسترُ

تفاخرت الدنيا بآبائكم فهل ... توارثتم المجد الذى كان يُذكر ؟

سلوا ما حوت آياتهم من شمائلٍ ... وصبر وإقدام ، فهل نتبصر ؟

قليل عديد الأكرمين ، نعم عسى ... يكون لنا هذا القليل الموقّرُ

ألا أيهذا « المجمع » القادم الذى ... بأسيوط يمسى ليلة فيُبكّرُ

تظل بكم هذى العيون شواخصاً ... تحييكمُ الأقباط طرًّا وتفخرُ

وفيكم سَرِىٌّ عاقل عامل كذا ... كريم يدٍ عنه المكارم تُنْشَرُ

كذلك لبيب يعرف الناس لُبّه ... وفيكم خطيبُ القبط ليثٌ غضنفرُ

إذا الليل أخفى مُبتغاكم فإنما ... نهار غد يبدى الجميل ويظهرُ

* * *

لكم سُنّة الإنجيل نُصْبَ عيونكم ... هى سُنة الإخلاص والعدل تشهرُ

هى سنة الإنصاف والبرِّ والنُّهى ... وحب ذوى القُربَى ومن بات ينفِرُ

ومن يك لا ينفك يظهر حبّه ... إلى زُمرة الأعداء ، هل يتقهقرُ ؟

نناشدكم بالله ألاّ تفرّقوا ... وسيروا على التحكيم ، والحق أقدرُ

---

(١) الوطن فى ٦ — ٤ — ١٩١١

ولا يغوكم شيطان حب رئاسة يغر ويغرى من يطيع فيحقر
ولا تفترق آراؤكم إنّ حولكم عيون بنى الأقباط باتت تحدّر
وكونوا بنى آبائكم إن تصرمت حبالٌ تشدوها فلا تتنثّر
كذا واذكروا أن الكبير صغيركم وأصغركم فى خدمة القوم أكبرُ
بذا تكرمون الحق والأمة التى دعتكم إلى غاياتها فتذكّروا

حدث اختلاف بين المسيحيين حول رياسة المؤتمر . فقد أرادها أخنوخ فانوس لنفسه ، زاعماً أنه لسان النصارى الناطق ، وقلبهم الخافق ، والمحامى عن حقوقهم ، والساعى إلى تحقيق آمالهم . ونازعه فيها « بشرى حنا » مدعياً أنه صاحب الفكرة فى عقد المؤتمر ، وأنه أول من رفع صوته بذلك ، وأنفق المبالغ الطائلة فى سبيل الدعاية له ، والإعداد لاستقبال أعضائه . وأخيراً تقررت الرياسة له حسما للنزاع .

وقال نصر لوزا[1] من قصيدة :

ولكن إذا سرتم بجد إلى النُّهى فلا تسكتوا يا قوم عن نيل مَغنمِ
وهُبّوا بإقدام إلى ذروة العلا فما دانت الأوطار إلا لِمُقدمِ
وها سلّمُ المجد المؤثَّلِ فارتقوا وهل تُرتقَى العلياء إلا بِسُلّمِ ؟

ولم يكن بعض عقلاء الأقباط مرتاحاً إلى مايقوم به المتطرفون من إخوانهم . قال تادرس[2] وهبى :

يا لقومى وقد دجا ليل خطبٍ بين آل الإنجيل والفرقانِ
كان للنازعين فيه إلى الشّـ ـرِّ كما يعلم الإله يدانِ

---

(١) مصر فى ٢١ — ٢ — ١٩١١ . (٢) الوطن فى ٣ — ٣ — ١٩١١

أ كبرتهُ الأهواء ما أنزل الله به في الأنام من سلطان
فليُوالِ الإرشادَ والنصح فينا كلٌّ ندب على المدى معوانِ
ولنفض النزاع ، فالصلح خير ولنشيِّدْ دعائم العمران
ولنمكِّنْ عهد الإخاء وأولى بمراعاة شرطه أخوانِ
ولندعْ كلَّ ما أجدَّ خلافاً من شئون الدِّين للديَّانِ

وهذا اتجاه طيب ، ودعوة حق يسودها الإخلاص والصفاء ، ويمتزج بها الود والوفاء ، ولكنها قوبلت من المتطرفين بالجفاء ، ولم تجد منهم إلا الآذان الصمَّاء .

* * *

وقال إبراهيم حنين في الدعوة[٣] إلى اتحاد العنصرين ؛ من قصيدة طويلة :

كلاَّ ولا شيء غير المجد ننشده فليس في غيره للنفس تهيامُ
نسعى إليه ونرجو أن يوفقنا في السعى ربٌّ لنا بالغيب علاَّمُ
نسعى إليه بحزم جهدَ طاقتنا وليس من دأبنا في السعى إحجام
هذا وليس سوى التوفيق ينقصنا فهل تُرَى فيه للتوفيق أقوامُ ؟
هلاَّ تخَصصْ للتوفيق ألسنة وهل تطوَّع للتوفيق خُدَّامُ ؟
هل أسرع القوم فارتاحت خواطرنا هل أسرع القوم أقباط و إسلام ؟

***

الله لو أسرعوا ، الله أكبر لو قاموا بواجبهم ، الله لو قاموا

(٣) الوطن في ١٦ — ١ — ١٩١١ .

هنـاك نحسو كئوس الحب نحن وهم . فلا يكيد لنا واشٍ ونمّامُ
ولا يجِدُّ جفـاء بيننـا أبداً فلا يكون لما نبنيه هدّامُ
هناك يرقص قلب العـز مبتهجاً هنـاك تخفق للإيناس أعلامُ
هناك تظهر شمس البشر مشرقة هناك جُرح الصفا والصـفو يلتامُ
هناك يُنْظَرُ بدر الأنس مكتملا هناك تصدق فى الآمال أحـلامُ
هنـاك تصدح موسيقى الهنا فرحاً هنـاك تُسمع للإسـعاد أنغامُ

وقد ارفض المؤتمر القبطى بعد أن قرر تأليف لجنة برياسة أخنوخ فانوس لرفع مذكرة بالمطالب القبطية إلى الخديو ، ورئيس النظار ، والمعتمد البريطانى . وقد التمست اللجنة من الخديو أن يحدد لها موعداً لمقابلته وتقديم المذكرة إليه ، فرفض طلبها وأشير عليها بأن تقدم مذكرتها إلى رئيس النظار . كما رفض المعتمد البريطانى مقابلة أعضاء هذه اللجنة .

* * *

وشرع المسلمون فى الإعداد لعقد مؤتمرهم الذى أطلقوا عليه اسم « المؤتمر المصرى » واختاروا رياض باشا رئيساً له . وقد افتتح المؤتمر أولى جلساته فى يوم ٢٩ أبريل سنة ١٩١١ ، وفى ١٨ يونيو توفى رياض باشا وتأجلت جلساته أياماً، ثم استؤنفت . وفى رياسة رياض باشا للمؤتمر يقول أحمد شوقى من قصيدة طويلة فى رثاء الفقيد :

ويرمى الدهر نادِىَ عين شمسٍ ولا يحـمى لواءهم الرُّماةُ
طلعتَ على النَّدِىّ بعينِ شمسٍ فوافتها بشمسين الغـداة
على ما كان ينـدو القوم فيهـا توافى الجمـع وائتمر السَّراةُ
تملكهم وقارُكَ فى خشـوع كما نظمتْ مقيميها الصـلاةُ

رأيت وجوه قومك كيف جلّت وكيف ترعرعت مصر الفتاةُ
أجيلَ الرأى بين يديك حتى تبينتِ الرّزانة والحصاةُ(١)
وأنت على أعنتهم قدير وهم بك فى الذى تقضى حُفاةُ
إذا أبدى الشباب هوى وزَهْوًا أشار إليه حلمك والأناةُ
فهلاً قمت فى النادى خطيباً لك الكلم الكبارُ الخالداتُ ؟
تفجر حكمة القسعين فيه فآذان الشبيبة صادياتُ
تقول متى أرى الجيران عادوا وضُمّ على الإخاء لهم شتَاتُ
وأين أولو النهَى منا ومنهم عسى يأسُون ما جرح الغلاةُ ؟
مشت بين العشيرة رُسْلُ شرٍّ وفرقت الظنون السيئاتُ
إذا الثقة اضمحلت بين قوم تمزّقتِ الروابط والصلاتُ

* * *

وقد اشتدت الحرب القلمية بين الصحف الإسلامية من جهة ، والصحيفتين القبطيتين : الوطن ، ومصر من جهة أخرى . قال زكى واصف(٢) :

ماللجرائد أصبحت مملوءة بالطعن فى الأقباط دون حسابِ
من غير ما ذنب جنينا ، لم نسىء أحداً بلفظ أو أقلّ عتابِ
قلنا مساواة بلا نظر إلى الـ أديان والأسماء والألقابِ
قامت جرائدكم علينا قومة وعلا الصراخ وفاق أعلى سحابِ
أجريمة فى شرعكم يا سادة طلب التساوى ؟ صرحوا بجوابِ

(١) الحصاة : الرأى والعقل .
(٢) حفاة : جمع حفى ، والمراد هنا العالم الذى يستقصى فى طلب العلم .
(٣) صاديات : عطشى .
(٤) الوطن فى ١٩١١/٣/٢٥

ماذا جرى حتى سعيتم ضدنا ترمون إخواناً لكم بحرابِ
هذى البلاد بلادنا ووئامنا حتماً يقلل سلطة الأغرابِ
أوَ هل نسيتم للنبى وصية تلك التى قد دونت بكتابِ ؟
أوصيكم بالقبط خيراً إنهم عَضُدٌ لكم فى شدة وصعابِ

وكان يقود الحملة ضد المسلمين أخنوخ فانوس ، وجندى إبراهيم صاحب « الوطن » وقد بذلا ما فى وسعهما ، ووجها إلى الصحف الإسلامية أقبح الشتائم ، وأقسى عبارات السباب . مثال ذلك ما كتبه جندى إبراهيم تحت عنوان(١) « أيها القارىء المحترم » وهو :

« اقرأ « الأهالى » أسبوعاً برمته ولو ثقل الأمر عليك، وكان ذلك الأسبوع أطول عليك من العصر الصخرى » .

« واقرأ جريدة « العلم » أسبوعاً آخر متصبراً متجلداً ، ولو أن قراءة « العلم » تهيج الأعصاب ، وتذهب بصبر الصادقين » .

« واقرأ هذا « المؤيد » الدنس النجس يومين فقط ، فإننا لا نستحل أن نكلفك قراءته أكثر من مرتين خوفاً على صحتك وآدابك » .

« اقرأ هذه الجرائد كما قدمنا ، وإذا كنت أيوباً جديداً ولك صبر البطاركة الأولين فطالع أعداد « اللواء » السقيم و « مصر الفتاة » الغليظة و « الجريدة » الجامدة الباردة » .

« وإذا كنت مخاطراً براحة بالك ، وبسعة صدرك إلى حد الجنون فى المخاطرة فاقرأ مجلة « المنار » واكتف بمقالة واحدة منها ، فإنك لا تقدر على

---

(٣) الوطن فى ١٩١١/٦/٢٧

حمل الجبال كلها فوق كتفيك . وربما أصابتك أعراض الكولرا من قئ وإسهال قبل أن تعمل برجائنا . فإن قراءة كل هذه السماجات والسخافات ليست من الهنات الهينات » .

«قرأت ما تقدم ، فقل لنا بحقك ماذا تجد فيها ؟ أوما الذى يبقى فى ذهنك من معانى كلامها فى هذه الأيام ؟ »

«لقد حكم الزمان الجائر علينا بمطالعة هذه المطبوعات . ومازال القوم فى كل يوم يتهمون الأقباط بدسيسة أو مؤامرة جديدة . وما فى جرائدهم غير وصف هذه الأشياء والتخوف منها مع أن الأقباط عقدوا مؤتمراً علنياً ، وطلباتهم معروفة من سنين ، وجرائدهم غير مقصرة فى الصراحة . فلسنا ندرى بم تقوم المؤامرة ؟ وعلام الدسيسة التى يتخوفون منها ، ويعيروننا بها الآن؟! »

« ولو أنهم اعتبروا سرد المطالب القبطية دسيسة ومؤامرة ، واكتفوا بهذا الوهم الصبيانى الذى يدل على صغر العقول ، وسخافة المدارك ، لخف الأمر ، وأمكن الإغضاء عنه ، ومعاملة قائليه بالحلم والصبر . ولكن الجماعة ما زالوا فى هذا الهوس يتخبطون ، ويخلطون فى كل صغيرة أوكبيرة ، حتى أنهم إذا أمطرت السماء قالوا دسيسة قبطية . وإذا اشتد حر الشمس زعموا أن ذلك مؤامرة مسيحية » .

* *

وكتب جندى إبراهيم مقالا آخر[1] تحت عنوان : « رمتنى بدائها وانسلت » جاء فيه :

« هذا المثل ينطبق على الصحف الإسلامية التى قُدَّ وجهها من الصخر ،

---

(١) الوطن فى ٢٧ ـ ٦ ـ ١٩١١

وأخصها « المؤيد » لأنها تفعل الفعلة وترتكب الجريمة ، ثم لا تخجل من إلصاقها بالصحيفتين القبطيتين » .

« نحن نعلم أن الصحيفتين القبطيتين قد خلقتا لكى تكونا قذى فى عين تلك الصحف ، وشجى فى حلقها ، وشوكة فى جنبيها ، لأنهما واقفتان بالمرصاد للدساسين والمخاتلين ، والذين يحاولون أن يعيشوا من أخس الطرق على حساب الأقباط . فتكشفان دخيلتهم . وتفضحان أمرهم ، وتسدان باب الربح الحرام فى وجوههم . ولكن من الغريب أن تلك الصحف لا تكتفى بالافتراء على الصحيفتين وحدهما . بل إنها تجاوزتهما بالافتراء على الموظفين الأقباط فى دوائر الحكومة ، واختلاق التهم الشائنة ، وتجسيم الهفوات الصغيرة ، ومتابعة المساعى الخفية ، والوشايات السافلة أمام الرؤساء وأصحاب السلطة للنكاية بهم »

« وأقرب مفترياتها عهدا اتهامها للمعلمين الأقباط فى نظارة المعارف بأنهم يظهرون التعصب ضد الطلبة المسلمين فى الامتحان الشفوى ، حتى أن المؤيد الذى هو أخبث عدو للأقباط أخذ يكرر هذه التهمة على أشكال شتى لكى تنتج التأثير المطلوب ، ويظن من يقرأ تلك الصحيفة الكاذبة أن فى الأمر شيئا . »

« على أنا أثبتنا أن تهمة التعصب والتشيع فى الامتحانات العمومية ثابتة على بعض المشايخ من جهة لأن هذه هى فطرتهم التى فطروا عليها . ومن جهة ثانية لأن نظام الامتحان نفسه يجعلهم فى مأمن من رقابة الرقباء ، فلا يبالون بقانون فوق رءوسهم ، ولا يحسبون حسابا للذعات ضمير فى داخلهم . »

« وفوق ذلك فإن عدد المعلمين الأقباط الذين يشتركون فى الامتحانات قليل جدا بجانب عدد المشايخ الذين لا يناط الامتحان فى اللغة العربية بغيرهم

فى جميع اللجان . وربما كان لا يتجاوز العاملون الأقباط الستة عدا » .

« فلا ندرى بعد هذه الأدلة كيف يتجاسر المؤيد على التمادى فى نسبة هذا العيب للأقباط ؟ وكان الأولى به أن يكسر قلمه ، و يريق محبرته ، فلا يخط حرفاً فى تهمة هى بمشايخه ألصق . بيد أن المؤيد — شفاه الله — قد مرض بداء كراهية الأقباط ، وتمكن الداء منه ، واستشرى فى عظامه كما يستشرى السرطان فلا تفيده أدلتنا ، ولا تنجع فى علاجه عقاقير أقلامنا . لأن هذا الداء عسير الشفاء ، لا يصيب إنساناً ؛ ولو كانت كل قوى الأرض والسماء من إيمانه وشمائله ؛ إلا صرعه وذهب به إلى عالم الفناء . فما أجدر المؤيد اليوم منا بالشفقة والرثاء ! »

اشتدت حملة الأقباط على صحيفة المؤيد وصاحبها الشيخ على يوسف ، حتى تجاوزت حدود اللياقة والذوق السليم ، وذلك لأن هذه الصحيفة خصصت أعمدتها مدة طويلة فى صد حملات الصحافة القبطية ، وتفنيد مزاعمها ، و إبطال حججها ، والرد على ادعاءاتها . وكان الشيخ محمد رشيد رضا يحرر فى هـذا الشأن المقالات الضافية . فى حين أن صحافة الحزب الوطنى كان يهمها أن ينتهى الخلاف بين العنصرين ليتفرغ الجميع إلى المطالبة بالاستقلال والحياة النيابية . وكانت صحيفة «الجريدة» تقوم بنفس الدور الذى تقوم به المؤيد . ولذلك رأينا أخنوخ فانوس يوجه إلى أحمد لطفى السيد هجمات عنيفة ، استخدم فيها عبارات نابية ، وألفاظا جارحة . مثال ذلك ما كتبه فى صحيفة مصر [1] :

---

(١) مصر فى ١٩١١/٢/٢٥ .

« يسفه حضرة الفاضل فكرة عقد المؤتمر القبطى ، ويبنى عليها المقاصد الخفية والظاهرة ، والمكايد المعقودة للإضرار بالأكثرية هنا وفى لوندرا ، حتى أنها تطاولت إلى الإضرار بالوحدة الوطنية العامة ، وجعلتها طعاماً مريئاً للمطامع الأجنبية » .

« أليس من عادة حضرة الأستاذ الفاضل أن يمحص الأقوال قبل نسيج بردها ؟ ويزن معانيها ودلائلها ، حتى يجعلها ذات نتيجة واضحة البيان للعيان ؟ »

« ولماذا ينظر الآن حضرة مدير الجريدة إلى الأقباط ومطالبهم المعروفة كما ينظر المحارب من أعلى عليين وحوله جيوش الأكثرية الكثيفة إلى أقلية ضعيفة مغلوبة على أمرها ، يخالها خصما محارباً ؟ »

« لماذا يسهو حضرة الأستاذ عن حكمته ويشط عن أدبه ؟ أليس من السداد والأدب أن يتناقش أبناء الوطن ويتحاسبوا فيما بينهم بالأدب واللطف ؟ أم أن العجرفة والانتفاخ فى القول من مستلزمات المحق فى قوله ؟ »

* * *

وكتب أخنوخ فانوس[1] مقالا آخر موجهاً إلى أحمد لطفى السيد ، جاء فيه :

« ألا احذروا من الكبر والعتو حذركم من معاقرة الخمر ، فإنه ينفخ الأوتار ويشدها للشر ثم للبتر . كونوا مصريين فقط ، لا أكثرية مسلمة ، ولا أقلية مسيحية . وتواضعوا مع إخوانكم ، وتقاسموا اللقمة كإخوة فيما بينكم بسلام وقسط ، فإن ذلك أولى بكم ، وأضمن لفلاحكم » .

(١) مصر فى ١٩١١/٢/٢٨

هذه بعض أمثلة مما كتبته الصحف القبطية . أما الصحف الإسلامية فإنها لم تستخدم عبارات نابية ، ولا ألفاظاً جارحة كالتى جاءت فى الصحف القبطية ، لأنها لم تكن فى حاجة إلى ذلك ، فكانت تكتفى بالمناقشات المنطقية ، والأدلة العقلية . وتسوق الإحصائيات عن عدد الموظفين المسيحيين فى المصالح الحكومية . مثال ذلك ما جاء فى المؤيد بتاريخ ٦ — ٣ — ١٩١١ .

« إذا كان عددهم — أى المسيحيين — فى مديرية أسيوط لا يتجاوز ٣٠٪ بمقتضى الغلو والمبالغة فى الحساب . إذا كان الأمر كذلك وهم يسمون أسيوط عاصمة الأقباط ، فكيف يكون حال مسلمى مديرية أسيوط لو كان عدد الأقباط فيها سبعين فى المائة والمسلمين ثلاثين ؟ بل كيف يكون حال مسلميها إذا كان عدد الأقباط فيها تسعة وتسعين فى المائة كحال المسلمين من سكان مديرية الغربية أو المنوفية ؟ »

« اللهم ننظر إلى حالة الأقباط الآن وهم أقلية لا تزيد على ستة فى المائة ، ورعية محكومة منذ ثلاثة عشر قرناً ، والموظفون منهم مع ذلك فى مجموع المصالح المصرية يزيد عددهم على ستين فى المائة ، ثم هم مع هذا يجمعون جموعهم ويتآمرون سراً وعلناً ضد المسلمين . ويرفعون شكواهم إلى انجلترا بأنهم مظلومون مضطهدون مسلوبون مهانون . فنقول : لو كان عاللمسلمين الآن من كثرة وسلطة شرعية هو للأقباط لما وجد المسلمون منهم مكاناً من وادى النيل يقطنون فيه ، بل يكسحونهم إلى مجاهل صحراء ليبيا كسحاً إن بقى لهم ظل فى الحياة » .

« لقد كان الأقباط قبل الاحتلال الإنجليزى لا يفكرون فى مثل هذه المزاعم التى يزعمونها الآن ، ولا يتجاسرون على أن يعتبروا لهم عاصمة فى البلاد تقابل عاصمة الحكومة الإسلامية . فلعلهم يعتزون بالاحتلال الإنجليزى ظناً منهم أن

هذا الاحتلال يغير من صبغة الحكومة الإسلامية في مصر شيئاً فشيئاً حتى تتلاشى وتحل محلها حكومة مسيحية » .

هذا مثل مما كانت تكتبه الصحف الإسلامية وعلى رأسها المؤيد . فهل يستحق المؤيد أن يوصف بأنه نجس دنس ؟؟

* * *

ويلاحظ أن سياسة غورست نحو الأقباط لم تختلف عن سياسة كرومر إلا في شيء واحد ؛ وهو أن كرومر كان يفتح بابه لكل صاحب شكوى ، ويقابله بلطف ، ويتحدث إليه بكلام معسول . أما غورست فإنه رفض أن يقابل زعماء الأقباط وأظهر نحوهم جفاء شديداً ، لأن سياسته كانت تهدف إلى القضاء على الحركة الوطنية ، أو بعبارة أدق على الحزب الوطني . والقضاء على الحزب الوطني لا يتحقق إلا بصرف الناس عنه وإبعادهم عن زعمائه . فلو أنه أظهر أقل عطف على المسيحيين لكان ذلك مدعاة إلى نفور الأكثرية الإسلامية منه والتفافها حول الحزب الوطني . ومن المعلوم أن انجلترا لم تحتل مصر للدفاع عن مصالح طائفة معينة ، ومحاباتها على حساب طائفة أخرى ، وإنما احتلتها تحقيقاً لمطامعها الذاتية وإشباعاً لحاجاتها الاستعمارية .

وقد تنفس المسيحيون الصعداء حينما جاءت الأنباء بوفاة غورست في صيف سنة ١٩١١ وفرحوا فرحاً لا مبرر له بقدوم اللورد كتشنر ، واستقبلته الصحافة القبطية بالمدح والثناء .

الباب السادس

الحركة الوطنية وأثرها فى الأدب القبطى

١ — من سنة ١٨٨٢ — ١٩١٩

إذا نظرنا إلى الأقليات فى مختلف الدول وجدنا أنها تقف من الأكثريات موقف الشك والحذر ؛ نتيجة للمظالم التى وقعت عليها فى عصور الاستبداد والطغيان. ولم يكن موقف المسيحيين فى مصر ليختلف عن موقف هذه الأقليات .

كانوا يعارضون النظام الدستورى معارضة شديدة ، ويرفضون بإصرار فكرة إنشاء مجالس نيابية ، لأن هذه المجالس تؤدى إلى تحكم الأكثرية الإسلامية فى الأقلية المسيحية . وتوهموا أن حقوقهم ستهضم ، ومصالحهم ستداس بالأقدام . وقد نشرت صحيفة الوطن سنة ١٩٠٩ مقالا تحت عنوان : « الأقباط والدستور[1] » جاء فيه :

« لا حاجة إلى التكرار والإعادة ، وسرد الأسباب التى تحمل الأقباط على مخالفة إخوانهم فى طلب الدستور الآن . فإن الذى نراه كل يوم من غارات الجرائد الإسلامية عند ذكر حوادث لها علاقة بالأقباط ، ومن سعى الأحزاب الإسلامية لحصر المنافع واحتكار الوظائف وإبعاد الأقباط عنها بمثل ما يجرى سراً وجهراً فى بعض النظارات . وإن الذى يسمعه الأقباط عند كل احتكاك فى هذه القرى ولا سيما فى الجنازات القبطية ، وفى زفاف الذين ينتحلون الإسلام من رعاع القبط لغرض قبيح ، أو فى غير هذه الأحوال ، إن هذا كله يكفى لإقناع

(١) الوطن فى ١٩٠٩/٨/١٥ .

أهل الأرض بأنه إذا أعطى المصريون حق الحكم الذاتى ، وجمهورهم وجرائدهم على الحالة الراهنة ؛ لجارت الأكثرية بالأقلية ، وسحقتها باسم الدستور ، وعادت إلى استعبادها وإذلالها . فالأقلية تخاف من هذا الدستور مادام فى مصر الآن ما فيها من الأميال والخواطر ، ولكنها لا تكره الدستور كرهاً مطلقاً » .

« بقى أن نذكر « المؤيد » الأغر بخطأ ظاهر كرره ، إذ قال مراراً إنه ليس فى الوجود فئة تختلف فى طلب الدستور لبلادها ، أو تتخوف من عواقبه . وهو يزعم أن الأمة القبطية تفردت بهذه الخطة ، وزعمه بعيد عن الصواب » .

« فلابد أن يذكر القراء حالة المسلمين فى الهند ، وقد أصابهم ما أصاب الأقباط هنا حتى إنهم لما سمعوا من سنتين أن فى نية الحكومة الإنجليزية إعطاء الهند حق الحكم الذاتى ؛ قاموا واعترضوا نفس اعتراض الأقباط ، وكان المؤيد أكبر ناصر لهم . فقوله بعد هذا إن الأقباط ساروا على خطة لم تسلكها أمة أخرى تماد فى الشطط . »

« ومن هذا القبيل مسلمو قبرص . ربما يذكر القراء أيضا أنهم قدموا العرائض لإنجلترا يطلبون فيها ألا يجاب طلب الأكثرية من أهل تلك الجزيرة ، والأكثرية مسيحية ، ولا ينشأ فى قبرص مجلس نيابى ، لأنهم يؤثرون حكم الدولة الإنجليزية على حكم الأكثرية من الأروام . وقد اشتهر هذا الأمر فى حينه ، ووافقت جرائد مصر الإسلامية على خطة الأقلية فى قبرص . وأما فى نفس الوطن المصرى فالجرائد الإسلامية لا تريد أن تعترف بحق الأقلية ، ولا تنصفها فى أمر من الأمور » .

« هذه أرلاندا وأهلها من الطبقة العليا ذكاء وتمدنا . ولكن معظم أهلها

من الكاثوليك ، وفيها أقلية من البروتستانت فى ولاية الستر ؛ تعرف باسم الحزب الأورانجى : فالأورانجيون مازالوا من قدم كلما طلب الدستور لأيرلندا يخالفون فى الطلب ، ويعارضون ويصرون على إبقاء أيرلندا تابعة لمجلس النواب الإنجليزى وحكومة لندن ، لأنهم يخافون أن تضيع حقوقهم فيما إذا نالت إيرلندا الدستور وصار الأمر فيها للفريق الكبير» .

« إن خطة الأقباط فى الدستور المصرى هى خطة الصدق والشرف والأمانة، وإنها خطة طبيعية لا يجوز لأحد أن يعدها عارا على الأقباط »

* * *

وفى مارس سنة ١٩١٠ زار مصر مستر روزفلت ؛ أحد رؤساء جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية ، وألقى خطبة فى الجامعة المصرية جاء فيها :

«تربية[1] الفرد وتعليمه حتى يصير صالحا للعمل يستغرقان أعواما طويلة ، وهكذا تربية الأمة وإعدادها حتى تنجح فى واجبات الحكومة الذاتية لايتأتيان فى عشر سنوات ، أو عشرين سنة ، بل يلزم لهما أجيال متعاقبة . إن بعض الدجالين الجهلاء يزعمون أن مجرد إعطاء دستور على الورق ولا سيما إذا جعلت له مقدمة ترن ألفاظها فى الآذان ؛ يجعل الأمة قادرة على الحكم الذاتى ، وليس الأمر كذلك أبدا . »

ثم قال « إن جامعتكم جامعة وطنية لا تعرف عقيدة دون أخرى ، وهذا كما يجب أن يكون . إذا ذكرت المساواة بين المسلم والمسيحى ، فإنما أذكر ذلك على اعتقاد أنه حينما يكون المسيحى هو الأقوى ؛ فالواجب عليه أن يعامل

---

(١) نقلا عن «تاريخ الأقباط فى القرن العشرين» لرمزى تادرس ١٥١/٢ وما بعدها

المسلمين بالعدل والإنصاف ، وكذلك حينما يكون المسلم هو الأقوى فالواجب أن يعامل المسيحى بالعدل والإنصاف . »

وسافر روزفلت إلى لندن وألقى خطبة طويلة عن السودان ومصر . فكان مما قاله عن السودان :

« الغرض الأكبر الذى كان أولئك السودانيون يرمون إليه باستقلالهم وحكم أنفسهم بأنفسهم ؛ لسوء الحظ ؛ هو القضاء على كل الأديان الأخرى ماعدا دينهم ، واتخاذ الحرية التامة فى المتاجرة بالعبيد . لكن هذا لا يعد نجاحا ، إنما النجاح الحقيقى فيما انتهى إليه حكمكم — يعنى الإنجليز — لتلك البلاد ، بعد أن دالت منها دولة المهدوية . ذلك النجاح المدهش الذى لا أظن مطلقا أن بلدا من بلاد العالم كله نال مثله ، إذ انتقل من منتهى الشقاء والفساد إلى أصح أنواع الحياة القومية ، ولم يكن ذلك إلا فى اثنتى عشر سنة فقط ، منذ دخل تحت حكم السلطة الإنجليزية . ولا حاجة إلى القول إن تلك البلاد السودانية كانت إلى ذلك الحين مستقلة وحاكمة نفسها بنفسها ، فليس كل استقلال ولا كل حكم . فقد كان استقلالها من قبيل استقلال الذئاب فى حظيرة واحدة ، ينحصر همها فى نهش بعضها بعضا ، والسطو على الغير . »

وقال عن مصر « إنكم — يخاطب الإنجليز — لستم فقط خفراء على مصالحكم فى مصر ، بل خفراء على مصلحة المدنية عموما . فقد قدمتم لمصر أفضل حكومة رأتها منذ ألفى عام ، وربما أفضل حكومة رأتها من بدء التاريخ ؛ لأنه لم يذكر مطلقاً أن الفلاح المصرى كان يعامل ما عومل به منذ الاحتلال الإنجليزى من العدل والرحمة تحت حكومة خلت من كل فساد وهمجية . غير أن الحوادث الأخيرة ولا سيما حادثة مقتل بطرس باشا غالى بما تقدمها وما رافقها وما جاء بعدها

من الحركات والنزعات ؛ دلت دلالة واضحة على أنكم أخطأتم فى بعض نقط حيوية بحيث تصنعون حسنا إذا أصلحتموها . وما كان هذا الخطأ لأنكم أفدتم المصريين قليلا ، بل لأنكم أفدتموهم كثيراً . ولكن مصلحة المدنية تقضى لسوء الحظ علينا جميعا أن نعامل الشعوب الغير متمدنة ، ولاسيما الشعوب المتعصبة معاملة غير مألوفة عندنا ، متذكرين على الدوام بأن معاملة الرفق واللين والضعف فى مركز كمركزكم فى مصر يضر بأكثر مما تضر معاملة الشدة والظلم . وليس بين العصا المرضوضة التى يتوكأ عليها العدل والحق ما هو أضعف ولا أسهل كسراً من عصا اللين . »

هذا ما جاء فى خطب روزفلت من المطاعن القبيحة فى المصريين والسودانيين. وقد هاجت الصحف الإسلامية هياجاً شديداً ، وحمل الكتاب والشعراء على روزفلت حملات شعواء ، كما حمل عليه بعض الكتاب الإنجليز .

إلا أن المسيحيين فى مصر أظهروا بإزاء هـذه المطاعن الفرح والسرور ، وقابلوها بالغبطة والحبور . ووضعوها على العين والراس إذ لم يجدوا فيها من باس، ودقوا فى الكنائس الأجراس . وشكروا المسيح بكل قول فصيح ، ومجدوا مريم البتول بكل لفظ مقبول . فنشرت صحيفة[1] الوطن بحروف كبيرة عنواناً هذا نصه « روزفلت — على الطائر الميمون يانصير الحق ، ويا منصف الأقلية من الأكثرية»

وتحت هذا العنوان برقيات كثيرة من مختلف الهيئات المسيحية فيها مدح عظيم لروزفلت ، منها :

١ — برقية من مدير جريدة الوطن ، ونصها : باسم الأمة القبطية بأسرها نشكركم على خطابكم السامى فى الجامعة المصرية .

---

(١) الوطن فى ٣١ — ٣ — ١٩١٠

٢ — برقية من جمعية الرابطة المسيحية ونصها : بلسان الشبيبة القبطية نقدم لكم واجب الشكر للنصائح الذهبية التى ألقيتموها علينا . ونسألكم أن تذكروا مصر فى بلادكم النائية .

٣ — من الطلبة الأقباط فى مدارس الحقوق والهندسة والطب : نحن طلبة الأقباط بالمدارس العالية . نتشرف بأن نرفع إلى مقامكم عظيم تشكراتنا القلبية لما زودتمونا به فى خطابكم النفيس بالجامعة المصرية من النصائح الغالية ، والتصريحات الصادقة الحرة . ثم إننا باسم الحق والعدل والمساواة نسألكم أن ترفعوا صوتكم على الدوام بالانتصار للضعفاء ، والدفاع عن حقوق الأقلية فى مصر وأين وجدت . إمضاء ٢٥٦ طالباً قبطياً .

ومدحوه شعراً ونثراً . فمن ذلك ما قاله[1] رياض غبريال ، وقد عرض فى قصيدته لرحلة الصيد التى قام بها روزفلت فى ربوع السودان ، فقال :

أهلا بروزفلت العظيم ومرحبا ... أكرم به ضيفا أتى ونزيلا
للصيد جئت من المغارب سائحا ... تبغى إلى أرض العبيد وصولا
فقطعت أبحارا وجبت فيافيا ... وكأنها كانت لديك سهولا
وهناك فى بحر الغزال وأرضه ... حل الركاب المغربى حلولا
طوراً يغازلك الغزال وتارة ... تنحو فتصطاد الفرى والفيلا[2]
ومعفر الليث الزؤور بغيظه ... قد جاء نحوك يطلب التمثيلا
يطوى صدور الأرض طية هاجم ... يطأ الثرى ويدكها تذليلا
لو كان هذا الليث يعلم أنه ... يُلقِى شجاعا لا يهاب حؤولا
أو كان يدرك أنه فى وثبِهِ ... يلقى الرَّدَى والحتفَ والتنكيلا

---

(١) فى ٣٠ ـ ٣ ـ ١٩١٠ 	(٢) الفرى : الحمار الوحشى .

لنأى يهدئ غيظه مستسلماً وجرى يهرول هاربا مخـــذولا
غرّته قـــوّته فجاء مكافحاً وقربت قربا ظنه التطفيـــلا
حتى إذا تم التقاؤكما معاً حكم السلاح بأن يموت قتيـــلا
متخضبا بـــدم التغرّر ساقطا وكأنمـا قابلته مشكولا
أسد على أسد وليس بنادر أن يقتل الأســد العظيم هزيلا
فاز الذى اتخـــذ الشجاعة خُلّةً عظُمَ الذى اتخذ السَّداد خليلا
ما كل من زعم الرآسة فائزا فيها وما كل الرجال نبيلا
أهدى الزمان لأرض كولمبوس رُزْ فلتَ العظيم مؤمَّلا ومُنِيـــلا
أهدى الزمان كلامه فهدى به من خير منطقه الرجال عقولا
أهـــداهمُ آراءه وكأنمــا آراؤه كانت لهم تنزيلا
وكأنهــا التوراة فى سلطانهــا لا تقبل التحويل والتأويلا
أو أنه كان الرسول لأمة إن قال قولا حبذا ما قيلا
نطقت بسؤدده البـلاد تغنّيا بلغ الفرات دويُّهُ والنيلا
ياليت شعرى هل لنـا من رأيه أنموذج يستقطع التضليـــلا ؟
أو هل لنـا من خـير أقوال الحجى ذكرى نرتلها غدا ترتيلا ؟

* * *

وكانوا يعارضون بشدة وعناد طلب المصريين الخاص بجلاء قوات الاحتلال. وذلك لأنهم توهموا أن حياتهم ورفاهيتهم رهينة بوجود النفوذ البريطانى . فهم بخير ما دام الإنجليز فى مصر . وأما إذا غادروها فأغلب الظن أن الأكثرية الإسلامية ستنكل بهم ، وستبعدهم عن الوظائف ، وستضطهدهم كما كان يفعل الحكام فى العصور الخالية ؛ هكذا كانوا يعتقدون . وكانوا يقولون إن الحزب

الوطنى لا يدعوا إلى الاستقلال ، وإنما يريد إجلاء الإنجليز المسيحيين ليعيد البلاد إلى السيادة العثمانية . وقالوا إن فكرة الجامعة الإسلامية التى كان ينادى بها الحزب الوطنى لا تؤدى إلا إلى إرجاع مصر إلى الحكم التركى . وأخذوا يوازنون بين أحوالهم فى العصور الماضية ، وما صاروا عليه فى ظل الاحتلال . وقد كتب أحدهم فى الوطن[1] سنة ١٩٠٩ مقالا جاء فيه :

« قامت القيامة ، وبلغت الشقشقة عنان السماء بطلب جلاء الاحتلال عن عن مصر ؛ مؤكدين أن لا تعصب بين المصريين ، وأن روح المساواة والإخاء ترفرف بجناحيها فوق الربوع . فأين ذلك الإخاء ؟ وأين تلك المساواة التى يتمشدقون بها ما دامت حقوق الأقباط مهضومة إلى هذا الحد ؟ »

« كيف ننفى صفة الظلم وهى كامنة فى الصدور كمون النار فى الهشيم ؟ فإذا ما كتموها مرة ظهرت مراراً . وما كان هذا التكتم إلا برقعاً شفافاً لا يلبث لأقل حادث حتى ينم خارجه عما بداخله . وما دام هذا حالنا وتلك أفكارنا فلا وطن ولا وطنية . وأما ما يسمونه إخاء ومساواة فما هو إلا لفظ بلا معنى » .

وكانوا يطرون الاحتلال ويتغنون بفضائله ومناقبه ، وما أداه للبلاد من خدمات . مثال ذلك ما كتبه رمزى تادرس ، وهو :

« ونتج عنها — يعنى الثورة العرابية — الاحتلال الإنجليزى الذى وطد الأمن فى مصر ، وأحيا فيها العدالة ، وصيرها أمة متعلمة متحضرة غنية بعد أن كانت تهيم فى دياجى الفقر والجهل والفوضى وسوء النظام » .

ولما كان الحزب الوطنى هو الذى يتزعم فى ذلك الوقت حركة المطالبة بالحياة

---

(١) الوطن فى ١٥ — ٩ — ١٩٠٩

النيابية والاستقلال ، فقد واجه رجاله حملات عنيفة متتابعة من كتاب المسيحيين وشعرائهم . حملات مملوءة بأقبح أنواع الشتائم والسباب . قال رمزى تادرس[1] .

« على أن تلك الحضارة التى بسطت انجلترا رواقها فى وادى النيل بقوة رجالها وجهادهم المتواصل لم تبدد ميول الحزب الوطنى القديم من الصدور ، ولم تخفت صوته . فأعاد نفر من المتمصرين الحركة العرابية الأولى بصوت أشد ، وقام ينازع الإنجليز فى الوظائف التى يشغلونها ليتربع فيها ، ويستعمل سلطته للتنكيل بالأمة ، وإعادة المظالم الماضية ، والاضطهادات الغابرة » .

« فهم أدعياء الوطنية مرمى السياسة الأوربية ، ورأوا فيها تنشيطاً لإنجلترا على إتمام إصلاحاتها فى الديار المصرية ، ولكنهم لم يقتنعوا بما رأوا ، بل أخذوا يضربون على نغمة الجلاء ظاهراً ، وعلى نغمة المطامع باطناً فانحاز إليهم بعض الموظفين الذين لم تؤهلهم كفاءتهم لنيل الوظائف العالية ، وفريق من الرعاع والتلاميذ الذين لا يفقهون معنى الوطنية والوطن . ثم تمادوا فى خطتهم إلى درجة انحطوا فيها بالمقت والإهانة على كل من يقول إن الوطنية الحقيقية تأمرنا نحن المصريين بإكرام النزلاء والاعتراف بفضل الإنجليز ، واقتباس العلوم الحديثة منهم ، والاقتداء بهم فى حضارتهم وأعمالهم . وقد لا ينبغى لنا التعجب من تهورهم إلى هذا الحد البعيد ، ليس لأنهم أهل وهم وخيال ، بل لأنهم لا يعرفون من الوطنية سوى كره الإنجليز وبغض الأجانب ، حتى لتجدن أشدهم ذكاء ، وأكثرهم علما ومعرفة بأحوال الأمم الراقية وطرق ارتقائها ، يفضل أن يرى مصر — وهى ليست وطنه الأصلى — قاحلة قفراء ، وأبناؤها فقراء جهلاء من أن

---

(١) الأقباط : فى القرن العشرين ٢/١٣

يرى إنجليزيا أو أجنبيا يعمل على عمرانها وزيادة مواردها ورفاهيتها » .

* * *

وكان الحزب الوطنى يضم فئة قليلة جداً من عقلاء المسيحيين وعلى رأسهم ويصا واصف الذى خلعت عليه الصحف القبطية لقب « يهوذا الأسخريوطى » وأوسعته طعناً وتجريحاً . من ذلك ما كتبته صحيفة الوطن[1] :

« هذه الفئة القليلة الصغيرة من الأمة القبطية ؛ الذين شذوا عن قياس أمتهم العام ، وجعلوا يتقربون من الفريق المتطرف فى عداء القبط ، المنحط عليهم بالنقد والسخط ، الطالب حرمانهم من الوظائف الحكومية » .

« إن أفراد هذه الفئة القليلة من القبط لم يلقوا فى طول البلاد وعرضها جريدة توافقهم على أفكارهم ويوافقونها غير اللواء الذى اشتهرت حملاته على الأقباط ، والذى زور عليهم ما زور ، وافترى ما افترى فى كل هذه السنين . فهم يتمقون المقالات الباردة للواء ، وقد جعلوه لسان حالهم كما أنه لسان حال الحزب المتطرف فى طلب الجامعة الإسلامية والسيادة الإسلامية . فبارك الله لهم فيه ، وبارك له فيهم » .

إن الأمة القبطية تعرف مالها وما عليها ، سواء خرج منها الأفراد الشاذون أو لم يخرجوا . وسواء استعان اللواء بالمارقين من أبنائها عليها أو لم يستعن . ولطالما مرق الأفراد من حكم الأمم ، ولطالما قام فى الأرض رجال من أمثال يهوذا الأسخريوطى ، يعيشون من مصدر يخونونه ؛ فلم تنهد الدعائم ، ولا ماتت الأمم من فعال هؤلاء المارقين » .

« دع القبطى الذى شذ عن قياس قومه يقول ما يشاء ، ودعه يخدم مصالح

(١) الوطن فى ١٩٠٨/٦/٥ .

نفسه بأية الطرق التى يضر ظاهرها بأمته الأصلية . إنه لن يلحق بهذه الأمة ضرراً يمكن ذكره ، ولن ينال رضى الفريق الناقم على أمته ، المصادر لها ، الميال إلى استعبادها ، ولو أضاء أصابع يديه ورجليه ، ولو علق نفسه بحبل أطول من حبل يهوذا الأسخريوطى ، فما هو بأول من شذ وشرد ، وحاد عن سواء السبيل » .

* * *

ولما عين اللورد كتشنر معتمداً لبريطانيا فى مصر أواخر سنة ١٩١١ استقبله كتاب المسيحيين وشعراؤهم بالمدح الجزيل . قالت صحيفة الوطن[١] :

« هذا هو اللورد كتشنر أمير الخرطوم ، هذا فاتح السودان ، ومذل التعايشى والقاضى على دولة الدراويش » .

وقالت[٢] :

« اليوم يصل القطر المصرى رقيبه المظفر ، وعميد احتلاله الأكبر . اليوم تقصف المدافع من قلاع الإسكندرية تحية للبطل الغضنفر أمير الخرطوم ، اللورد كتشنر » .

« اليوم يهتز فضاء النيل ، وتدوى البلاد بخبر القدوم المنتظر . اليوم يبدأ الدور الثالث من أدوار الاحتلال الإنجليزى فى مصر ، فليستعد الناس لما أعدت الأقدار ، وسطرت فى تاريخ الأدهار . وليكن رجاء الخير غاية الكل . إن الخير مضمون فى هذا الدور الجديد بإذن الله ، وعليه الاتكال فى كل حال » .

---

(١) الوطن فى ١٩١١/٩/٢٨

(٢) الوطن فى ١٩١٢/١٠/٥

وكتب جندى إبراهيم[1] فى الصحيفة المتقدمة تحت عنوان ضخم وهو : « أمانى وآمال فى عيد الاحتلال » قال :

« عاد إلى مصر شبابها الرائع ، وعيشها السائغ بعودة اللورد كتشنر . وعادت إلى البلاد حركتها ونشاط أعمالها ، لأنه منها بمثابة القوة المحركة من الآلة الدائرة ، أو الباخرة السائرة ، أو السفينة الطائرة . هو منها بمثابة الروح من الجسم ، والعقل من الرأس . بل هو ملاكها الحارس ، وصديقها الصادق ، وربانها الحاذق . يهيء لها مرابع الرخاء ومراتع الهناء ويوردها موارد الراحة والرفاهية، ويخلع عليها لباس الصحة والعافية » .

« فلا غرابة إذا توجهت ركائب الآمال إليه ، وتعددت وجوه المطامع والرغبات الصالحة بين يديه . ولا عجب إذا دلفنا إلى جنابه الرفيع بأمانى الرعية التى يحرص على مصلحتها ، ويسعى جهده إلى إسعادها وإنماء ثروتها » .

وقال الشاعر المسيحى عزيز بشاى[2] تحت عنوان : « فخامة اللورد كتشنر » .

عاد الهمام وفارس الميـــدانِ — وأخو العلا والفضل والإحسانِ
والخائضُ الغمرَات فى يوم اللقا — والفاتح الأمصار والبـــلدانِ
والمســتغاث بجاهه والمرتجى — والمنصف المظلوم واللّهفـــانِ

* * *

شرّفت مصر فرحبت بقدومكم — عشرون مليونًا من السكانِ
شدُّوا الرحال إلى ركابك كى يروا الـ — ـأسد الهصور وفاتح السودانِ

(١) الوطن فى ١٩١٣/١٠/٣
(٢) الوطن فى ١٩١٣/١٠/٣٠

رفعوا الأيادىَ للسماء وأنشدوا يدعون للورد بكل لسانِ
نطق الجماد بفضلكم متأثراً ولسان حال الطير والحيوانِ
فلأنت أعظم فاتح فى أمة رفعت منار العلم والعرفان
ولأنت أعظم عامل فى دولة بلغت عنان المجد كل أوان

* * *

أنقذت فلاحاً وصنت حقوقه من جور أهل الظلم والطغيان
علمته التوفير والتفكير فى غدر الزمان وطارق الحدثان
أوصلت ماء النيل للأرض التى قد خانها حظ من الفيضان
فتدفقت فيها الحياة وأصبحت من كل فاكهة لها زوجان
ومحاكم الأخطاط أعظم خدمة فى صالح الفقراء والأعيان
ساد السلام وولت الفوضى وقد شعر الجميع براحة وضمان

* * *

لا زلت تقتحم الصعاب وتمتطى قمم العلا والمجد كل زمان
ونعيد للوطن العزيز مكانة كانت له فى غابر الأزمان
فاسلم وُقيت الشر من كيد العدا متأيداً بعناية الرحمن
وانظر إلى المستخدمين فإنهم أحرى بنظرة رحمة وحنان
هم ينظرون إلى مكارم كنشر نظر العليل لصحة الأبدان

وقال جندى إبراهيم صاحب جريدة « الوطن »[1] .

أهلا بمقدمك الكريم ومرحبا فالقطر من قدم إليك لقد صبا

---

(١) الوطن فى ١٩١٢/١٠/٥

لعبت به الأغراض لعبة ظالم ... هيهـات غير الظلم أن يتطلبا
فتقاطع السكان بعـد توادهم ... وتفرقوا بميولهم أيدى سبـا
فاقطع بحزمك حبل كل دسيسة ... وافصم عُرى الأغراض واجعلها هبا
فلأنت موسى اليوم فيك نجاحنا ... بسداد رأى لا بسيف ما نبا
فأعد إلى هذى البلاد حياتها الـ ... أولى بعدل كم وكم قد أطربا
وارفع منار الحق بعد سقوطه ... فالقبط لا يرجون غيرك مأربا

ولم يستفد المسيحيون من كتشنر أية فائدة . فإنه رفض أن ينظر فى طلباتهم التى نادوا بها أيام غورست . وفى أيامه حدث شقاق عظيم بين الأقباط حول موضوع الأوقاف القبطية ، ورفع إليه خصوم الإكليروس مذكرة بوجهة نظرهم والتمسوا منه أن يتدخل لحل هذه المشكلة حلا عادلا ، فاعتذر لهم عن التدخل . وبذلك كسب عطف الإكليروس حتى أنه لما مات غريقاً فى صيف سنة ١٩١٦ أقام البطريرك صلاة على روحه فى الكنيسة المرقسية الكبرى ، وأغلق الأقباط متاجرهم ، وكذلك أغلقت المدارس القبطية أبوابها .

وإذا كان شعراء المسلمين قد أكثروا من مدح السلطان عبد الحميد وغيره من سلاطين آل عثمان ، ووصفوهم بالعدل والإنصاف ، وخلعوا عليهم الفضائل والمناقب التى لا أساس لها من الواقع ؛ فإن شعراء المسيحيين لم يجدوا أية غضاضة فى مدح ملوك الإنجليز . قال قسطنطين داود من قصيدة طويلة[1] :

يا جورج يا حامى ذِمارَ السلم قد ... تُوِّجت إذ للتاج أنت مُؤَهَّلُ
فحكمت مملكة بحسن سياسة ... تجلو المشاكل والصعابَ تُذَلِّلُ

(١) الوطن فى ١٩١١/٦/٢٣

حقاً فإنك ذلك الفرد الذى ... أبداً يحل المعضـــلات ويفصلُ
بسديد رأيك قد أدرت شئون دَوْ ... لَتِكَ العظيمةِ ساهراً لا تغفلُ
والعدل والإنصاف ما بين الورى ... فى كل ملـكك عنهما لا تعـدلُ
ولذا سموت على الملوك بأسرهم ... شرفاً وموطئك السماك الأعزل
وكذا بلادك فى العلا والعلم والـ ... ـعمران صار لهـــا المحل الأول
أصبحت بحراً بالمعارف زاخراً ... وغدوت غيثاً بالعواطف يهطلُ
شجعت أهل العـلم طراً بالندى ... وبمـــا عليهم دائماً تتفضلُ
يا طالبي الإنصاف هذا المنهل الصَّـ ... ـافى ، وهل من بعد ذلك منهلُ ؟
يا طالبي الإسعاف هذا دوحة الـ ... ـمعالى التى كلُّ الأنام تظللُ
لله مملكة سمت بك واعتلت ... فوق السماك وعنه لا تتحولُ
دامت شموس سنائها بالسعد طا ... لعة كشمس سمائها لا تأفلُ

وقال قسطنطين نوفل من قصيدة طويلة(١) :

قد جاءه التاج ميراثاً يزينه ... فأصبح التاج فيه اليوم مزدانا
سلطانه امتد فى الدنيا على أمم ... لو خُيروا ما ارتضوا إلاَّهُ سلطانا
يحمى حِمَى الدين كى تُهدى زواجره ... مَن ليس يرهب فى دنياه ديّانا
يا عاهلا تحسدُ الأرضَ السماءُ به ... تتويجك اليوم عيد فيه بُشْرانا
هاك الملائك فوق العرش حائمة ... عليك تستنزل الآراء رضوانا
جاءت تهنئك الدنيا ومن ملكوا ... قيادها فى الورى يا خير دنيانا
فاستقبلتهم جوار منك مرسلة ... يبيت فى وصفها المنطيق حيرانا
بيضاء رائدة ، سوداء سائدة ... كم أخضعت فى الورى بيضاً وسودانا

(١) الوطن فى ١٩١١/٦/٢٧

البحر قد ضاق عنها وهو متسع ... والبر تحت حماها بات عمرانا

أنى تقيم يقيم العدل مضربه ... وحيث ترسو تؤاخى الأسدُ حملانا

يا أيها الملك المرهوب جانبه ... زدت اتّضاعاً لذاك ازددت سلطانا

الهند تذكر ما أوليت من نعم ... ومصر ما عرفت للفضل نكرانا

وهؤلاء « بوير » القوم قد وجدوا ... بعدل حكمك بعد القهر سلوانا

من كان مثلك بالتقوى تدرّع لا ... تقوى عليه صروف الدهر عدوانا

مولاى مدحك أولى الشعر مفخرة ... لذا بمدحك قد أصبحت ولهانا

فعش طويلا لخير الناس إنهم ... سواك للخير لا يرجون إنسانا

واقبل تهانى قسطنطين عبدك من ... يَعُدُّ منك الرضَى فخراً ونيشانا

وقال سليم عبد الأحد من قصيدة طويلة فى مدح الملك جورج الخامس (١) :

يا صاحب العرش الرفيع عمادُهُ ... المستظل بجانبيه السؤددُ

تعنو لصولته الشعوبُ وتنحنى ... قدّامه رُكَبُ الملوك وتعبدُ

عرش تؤيده السفائن دونها ... شُمُّ الجبال الراسيات وتَعضُدُ

الشامخاتُ السابحاتُ تَعُجّ من ... أثقالها لُجَجُ المحيط وتُزبِدُ

يا ابن الجبابرة العظام ونسل مَن ... ثلوا عروش الفاتحين وبدّدُوا

وعلت لهم فوق المجرّة راية ... نزل السماك بظلها والفرقد

أوتيت مجداً من جدودك ذكره ... يفنى الخلود ، ولا سواه يخلّدُ

وورثت عرش الفاتحين وإنما ... لك فى قلوب الناس عرش أمجدُ

قامت حواليك الملوك وأنت فى ... مجد تخر له العروش وتسجدُ

(١) الوطن فى ١٩١١/٦/٢٥

مجد إذا قيس الخلود فقـــترة تفنى وعرشك فى القلوب مؤيد

* * *

يا باســطاً ظل السـلام وناشراً للعدل ألوية بفضلك تشهدُ
فخر الملوك سيوفهم مسلولة وفخار سيفك أن سيفك مغمدُ
ولرُبَّ مجد لا يدوم وصولة تفنى فينساها الزمان ويجحدُ
تطوى بقاياها الدهور وتختفى آثارها فى اللاحقين وتفقدُ

* * *

يا صاحب التاج المرصع حبذا تاج بآيات الجلال مؤيدُ
لك صولجان الملك يوم تهزه تجد الملوك له تقوم وتقعدُ
آلت إليه من جدودك دولة شماء يغبطها الزمان ويحسد
تبقى على مرِّ الدهور فإنها ملك له يوم القيامة موعدُ
ملك تضيق الأرض عنه وإنما هو مثل عرشك فى القلوب مشيدُ
ما إن تغيب الشمس عنه لأنه ضخم برحب الخافقين موطَّدُ
تحميه راياتٌ عليه خوافق وترد عنه الحاسدين وتبعدُ
صاغوا لك التاج الجليل فإنه ما لاق بالتيجان غيرك سيد
تاج جواهره مآثرك التى يشدو بها هذا الزمان وينشدُ
فاهنأ به أبداً ودهرك غافل وانعم بعرشك والحوادث رُقَّدُ
ظل الإله عليك ما طال المدى يهديك فى سبل الكمال ويرشدُ

وقال نصر لوزا الأسيوطى[٢] تحت عنوان : « إلى جلالة ملك بريطانيا وأمبراطور الهند والنيل » فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩١٤ :

دانت لحكمك فى الورى الأيامُ ومشت تؤيد عدلَكَ الأحكامُ
أخضعت كل الأرض فابعث عسكراً للشهب تخضع مثلها الأجرامُ
وانشر جنودك فى البلاد فأينما حلت يحل الأمن والإنعامُ
ما من بلاد للسلام مريدة إلا أتاها من لَدُنك سلامُ
لله درك من مليك تزدهى من مجده الأيام والأعوام
لله درك قد سموت إلى السهى وغدا مكانك ليس ثَمَّ يُرَامُ
بُلِّغت فى الأمصار حكما نافذاً لا النقض يعقبه ولا الإبرامُ
وَطَّدْت عدلك فى ممالك سامها جَوْرٌ يُرَوِّعها به الحكامُ
والعدل يقهر فى البرية أنفساً لا الرمح يقهرها ولا الصمصامُ
إن الشعوب إذا صفا لك وُدُّها ليست وإن جار الزمان تُضامُ
وإذا تعدَّت بالهوى سبلُ الهُدى فماتها طولَ الحياة زُؤَامُ

* * *

دافعت عن حوض الضعيف بجحفل النصر حتماً حيث سار لِزَامُ
جيش يدك الراسياتِ إذا مشى وتُراع منه بأسدها الآجامُ
النصر يمشى خلفه وعدوه أنى يسير حتوفه قُدَّام
هو للهزيمة إن أمرتَ هزيمة يوم النزال وللحِمامِ حِمَامُ
جيش إذا استل الصوارم ينمحى بالليل من لمعانها الإظلامُ

* * *

(١) الوطن فى التاريخ المذكور .

مولاى أخضعت القلوب وأصبحت   طوعا لك الأرواح والأجسامُ
لك جحفل فى أرض مصرٍ رابض   خفقت بنصرك فوقه الأعلامُ
هو ساهر يحمى الكنانة بينما   سكانها فى غبطة نوَّامُ
ستنال مصر هناءها لما غدا   بيديك للوطن العزيز زمام
حمدَتْ رعايتك الكنانة وانبرى   يثنى عليك النيل والأهرامُ
وتحدثت بفعالك الغراء ما   بين الورى الأعراب والأعجامُ
إن النصارى بايعوك ومثلهم   قد بايعتك لعدلك الإسلامُ
يدعو لنصرك فى الكنيسة بطرك   ويجل ذكرك فى الصلاة إمامُ
والطير غرد فى الكنانة بالمنى   وتمايلت لورودها الأكامُ
مصر العزيزة أخلصت فى حبها   ومديحها لك مبدأ وختامُ

هذه القصائد تزخر بالعواطف الصادقة ، وتفيض بالمشاعر المتوقدة ، والأحاسيس الملتهبة . وفيها صورة جلية لنفسية المسيحيين ، وما كانت تنطوى عليه جوانحهم من ميل شديد إلى الإنجليز ، وحب خالص لهم ، وتعلق بهم . ولا عجب فى ذلك فهم يجتمعون معهم فى العقيدة الدينية . ويخطىء كل الخطأ من يظن أن الإنسان قادر على التجرد من العواطف الدينية . وإذا سلمنا بذلك ، وسلمنا بحق الشعراء المسلمين فى مدح سلاطين آل عثمان ؛ وجب علينا والحالة هذه أن ننظر إلى مدائح شعراء الأقباط فى ملوك الإنجليز بعين التسامح وبخاصة وأن العصر الذى نظمت فيه كان التعصب الدينى على أشده بين العنصرين . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإننا نجد بعض شعراء المسلمين مثل حافظ إبراهيم ، وأحمد نسيم وغيرهما قد مدحوا ملوك الإنجليز .

وشعراء الأقباط صادقون كل الصدق حينما يصفون ملوك الإنجليز بالقوة والبأس واتساع الملك الذى لا تغيب عنه الشمس . وحينما يتحدثون عن الأساطيل والجيوش البريطانية . أما شعراء المسلمين فكانوا إذا تناولوا هذه الأمور بالنسبة للسلطان عبد الحميد تسكلفوا القول ، وتخيلوا مالا وجود له ، متجاوزين الحقائق المؤلمة التى كانت تحيط بهم وتقرع آذانهم ، وتنذر بزوال البقية الباقية من الإمبراطورية العثمانية . وكأن شعراء الأقباط أحبوا أن يردوا ضمنا على المدائح السلطانية ، وينقضوا على شعراء المسلمين قصائدهم فى هذا الموضوع .

ولم تخل مدائح النصارى هذه من مبالغات ، بل ومن طعن فى المشاعر الوطنية . انظر إلى قول نصر لوزا عن جيش الاحتلال :

هو ساهر يحمى الكنانة بينما سكانها فى غبطة نوام

فهل حقا نام المصريون فرحين آمنين مطمئنين حينما وضعت مصر تحت الحماية ، وأعلنت الأحكام العسكرية سنة ١٩١٤ ، وسيق شبان المصريين إلى ميادين القتال ، ونهب الإنجليز ثروات البلاد بشكل لم يسبق له مثيل فى تاريخ البلاد ؟

وانظر إلى قوله :

ستنال مصر هناءها لما غدا بيديك للوطن العزيز زمامُ

أى أن مصر ستحظى بالسعادة والرفاهية ، لأنها أصبحت تحت حماية الإنجليز . وانظر إلى قوله :

يدعو لنصرك فى الكنيسة بطرك ويجل ذكرك فى الصلاة إمامُ

فقد كان أئمة المساجد يذكرون اسم السلطان العثمانى باعتباره خليفة

للمسلمين ، ويدعون له بالنصر . فلما وضعت مصر تحت الحماية البريطانية فى ديسمبر سنة ١٩١٤ حذف اسم السلطان من الخطبة . فالشاعر المسيحى يقول إن أئمة المساجد يدعون لجورج الخامس ملك الإنجليز ، ويذكرون اسمه فى خطبهم مقرونا بالإجلال والتعظيم . وفى هذا مافيه من إيلام لعواطف المسلمين ، وتجاهل لشعورهم الذى كان حساسا جدا فى ذلك الوقت بالنسبة لهذا الموضوع بالذات .

وفى موضوع امتداد امتياز شركة قناة السويس وقفت الصحف الإسلامية صفا واحدا تعارض هذا المشروع معارضة شديدة ، فى حين أن المسيحيين كانوا يؤيدونه . وقد كتب[1] سلامه موسى مقالا جاء فيه :

« نحن فى حاجة إلى نقابات زراعية ومدارس وخزانات وإصلاح أراضى. فمن أين نأتى بأموال لهذه المرافق ؟ وقد بلغت الضرائب أعلاها على الفلاح وكادت تبهظه »

« إنهم يعرضون علينا مبلغا كبيرا من المال نحن فى أشد الحاجة إليه . فلا يجب أن نرفضه حتى نقيم الحجة على خسارة الصفقة . فهل نرى المبلغ قليلا ؟ أو نظن أننا نربح بدخول القناة فى حوزتنا بعد انقضاء مدة الامتياز أكثر مما نربح بما عرض علينا ؟ »

« فإن كنا نأمل مليا واحدا من القناة حين وضع يدنا عليها بعد نصف القرن الآتى ، فإنما نأمل القبض على العنقاء . ولماذا ؟ لأن الشركة الحاضرة تضرب الرسوم الفادحة معتمدة فى ذلك على قوة إنجلترا وفرنسا ، لأن أكثر

---

(١) المقطم فى ١٤ — ٥ — ١٩١٢ .

مساهميها من أبناء هاتين الدولتين . فهما يحميان القناة ، ويلزمان كل من يأبى أن يدفع بالدفع والإذعان . فالقوة هى رأس مال القناة الحقيقى . »

« وإذا انتهى عقد الشركة ودخلت فى حيازتنا ؛ أبى أصحاب السفن أن يدفعوا مليما واحدا لنا ؛ وساعدتهم دولهم على ذلك ، وعجزنا نحن عن إلزامهم بالدفع . ومهما يقل فينا القوالون إننا أبناء الأهرام ، وأشرف الخلق والأنام ؛ فإننا نعجز ونعجز حينئذ عن رد أسطول ألمانيا حينما يريد المرور مثلا مجانا » .

« فالخطة المثلى الآن للفرد وللأمة هى خطة المصالح . ومصلحتنا أن تكون لنا قوة ، أو نستند إلى قوة فى استغلال هذه القناة . وليس ثم طريق مثلى لهذا الاستغلال إلا بالاستناد إلى قوة فرنسا وانجترا بالاتفاق مع الشركة » .

وقد عاش سلامه موسى حتى شاهد تأميم شركة قنال السويس ، وإنهاء امتياز الشركة الأجنبية . وشاهد نجاح المصريين فى إدارتها وتمصيرها . فلعله تذكر ما كتبه سنة ١٩١٢ فى هذا الموضوع ، ولعله سخر من نفسه . ومن العجيب أن المشروع الذى أجمعت الأمة على رفضه ، ينبرى بعض كتاب الأقباط للدفاع عنه والدعوة إلى قبوله فى عبارات تقتل الهمم وتميت العزائم .

* * *

ذكرنا أن المسيحيين قابلوا كتشنر حين قدومه إلى مصر بالحفاوة والترحيب ، وعلقوا عليه آمالا كبارا . وذكرنا أن كتشنر لم يعرهم أى التفات ، وذلك لأن جو السياسة الدولية كان ملبدا بالغيوم ، وكانت نذر الحرب العالمية الأولى قد بدأت تظهر فى الأفق . فأدرك المسيحيون أنه لا فائدة ترجى لهم من الاعتماد على الإنجليز . ورأوا الخير كل الخير فى الائتلاف مع المسلمين ، وفى حلول الوئام بين أبناء الوطن الواحد محل العداوة والخصام . قال رمزى تادرس :

« والشاهد لذلك أن الأحوال العامة فى البلاد كانت خلال المدة التى أعقبت المؤتمرين القبطى والإسلامى ؛ بمثابة تيار خيالى لا صفة له ولا هيئة سوى تخبط عام تخلل صفوف الأمة كلها دون أن تلحظ أسبابه ونتائجه حتى أنها كانت تدور فى دائرة واحدة مرماها التهييج الفكرى بلاقصد ولا سياسة اللهم إلا مقارعة بعضها بعضاً مقارعة قولية عنيفة إن لم تؤثر فى بنيان الجامعة القومية المتين ، فقد أزاحت الستار عن الجهل المتفشى بين الأقباط والمسلمين ، وأثبتت للملإ أجمع أنه ليس من حادث وقع فى مصر و برهن على أنها لا تزال فى أول أدوار الارتقاء أكثر من هذا الحادث عينه » .

« على أن النتيجة الحسنة التى جاءت مطابقة لأميال العقلاء وكسحت أمامها كل البذور المسممة تثبت لنا أمرا آخر جديرا بالالتفات ؛ وهو أن الانعطاف الطبيعى بين الأقباط والمسلمين لا يمكن أن يزول مهما حدث من الحوادث . ولذا أرى من الضرورى أن يعتمد الأقباط فى نيل مطالبهم على إخوانهم . »

ثم قال : « وبالإجمال فإن مشاهدات الأحوال تدل على أن لا ينطوى هذا العام — ١٩١١ — فى سجل التاريخ قبل أن يحمل فى جوفه صفحة بيضاء تثبت للذرية القادمة أن الأمة المصرية أمة حية لا تعرف ديناً غير الوطن ، ولا مذهبا غير الإخاء ، ولا عقيدة غير التسامح والوئام »

وقالت صحيفة الوطن فى ١٥ - ١ - ١٩١٥ « إن الطوائف المسيحية يجب أن تخرج من عزلتها شيئاً فشيئاً ، وتندمج بقدر الإمكان فى المجموع الوطنى ، فلا تحرص إلا على معتقدها الدينى ، وما كان له مساس بهذا المعتقد من الأمور » .

* * *

مر بنا أن المسيحيين كانوا يودون دوام الاحتلال البريطانى . ولكن من

الحق أن نقول إن المسيحيين لم يكن لهم يد مطلقاً فى إدخال الإنجليز مصر . وإنما الذى أدخلهم كما هو معلوم هو الخديو محمد توفيق والخونة من المسلمين . ولم يكن للمسيحيين يد فى تمكين الاحتلال من البقاء أكثر من سبعين عاما ، وإنما الذى مكن له سبيل البقاء هذه المدة الطويلة هم الخونة من المسلمين الذين تعاونوا معه بألسنتهم وأيديهم . وتاريخ الوزارات المصرية فى عهد الاحتلال معروف . قال حسين[1] رشدى باشا رئيس الوزارة المصرية فى تصريح له لمندوب صحيفة الفارد الكسندرى فى ٢٤ ـ ١٢ ـ ١٩١٥ ما نصه :

« بصفتى وزيرا أصرح بأن مصر ؛ إذا فرض ولم تكن حاصلة على مساعدة ومعونة انجترا ؛ لوجب أن تفتش لها على دولة قوية وصديقة مثلها لتكون عونا لها . وإنى أقول مرة أخرى بأننا لا نستطيع أن نعيش وحدنا ، ولا يمكن لمصر أن تستقل عن سواها استقلالا سياسيا ، وذلك لأن موقعها الجغرافى ، وحدودها الغربية المتصلة بالصحراء ، ومركزها بإزاء القنال ، وكونها طريقاً للهند ، كل هذه العوامل تجعلنا مطمعاً للغير . »

« إنى أريد أن تكون لمصر حماية تعطى لإنجلترا حق المراقبة المطلقة على القنال ، وحق المراقبة المالية أيضاً . ولكنى أريد بأن تبقى فى مصر حكومة حرة ذات حاكم مستقل ، ووزارة وهيئة نيابية مستقلتين كذلك »

ولم يشرح لنا حسين رشدى كيف يمكن أن تقوم فى مصر حكومة حرة مع وجود الحماية البريطانية ، ومع وجود جيش الاحتلال .

* * *

(١) (١٨٦٣ ـ ١٩٢٨) [illegible]

وكانت صحيفة المنبر لصاحبها أحمد حافظ عوض تنشر أحيانا ما يؤيد وجهة نظر المسيحيين فى تمسكهم بالاحتلال البريطانى . فقد كتبت مقالا تحت عنوان « ما يقوله المسلمون فى الهند يقوله الأقباط فى مصر » ونقلت فى هذا المقال مثالا مما تنشره مجلة عليكرة لسان حال مسلمى الهند (١٦ - ٧ - ١٩٠٨) وهو :

« . . . على أن الدين الإسلامى يأمرنا فى الوقت ذاته أن نطيع أولى الأمر منا . وفوق ذلك فإن الحرية التى نتمتع بها تحت ظل الحكومة الإنجليزية لم ننل مثلها قط حتى فى أيام ملوك الإسلام . وهناك كثير من إخواننا المسلمين يعيشون تحت ظل حكم ملوكهم أو حكامهم المسلمين ، ومع ذلك لا يتمتعون بعشر معشار ما نتمتع به من الحرية »

كان الأدباء المسلمون الذين مدحوا الاحتلال وأطروه ، وطعنوا فى الحزب الوطنى وهجوه قلة ضئيلة مأجورة ، تتكلف القول ،وتجرى أقلامها بعكس ماتنطوى عليه جوانحها . أما الأدباء المسيحيون الذين سلكوا هذا المسلك فكان أدبهم يزخر بالعواطف الصادقة ، والمشاعر المتوقدة ،

٢ — مقتل بطرس غالى

وأثره فى الأدب القبطى

أخذت الحركة الوطنية فى مصر تنمو يوما بعد يوم ، واشتد السخط على الإنجليز اشتداداً عظيما بعد حادثة دنشواى . وكانت الصحافة تعمل فى غير كلل ولا ملل على إذكاء الروح الوطنى بين طبقات الأمة ، وبخاصة طلبة المدارس الثانوية والفنية والعالية .

وانتهى الأمر باستقالة لورد كرومر سنة ١٩٠٧ وخلفه السير الدون غورست ؛ فنهج فى سياسته منهجا أراد به أن يقضى على الروح الوطنى قضاء تاما ، غير حاسب حسابا للتغير الزمنى ، والتطور الأدبى والمعنوى الذى أصبحت عليه البلاد فى ذلك الوقت .

وأسندت رئاسة الوزارة إلى بطرس غالى ، فكان أداة طيعة فى أيدى المحتلين ، إذ أنه أصدر قانون المطبوعات الذى ضيق على الصحافة وكمم أفواهها . وقد ألفت مظاهرات ، وألقيت خطب ، وأنشدت قصائد تفيض بالاحتجاج والسخط على مسلك الوزارة البطرسية إزاء الصحافة .

وقد اتجهت أنظار المحتلين إلى الحيلولة بين الطلبة والاشتغال بالسياسة . فبثوا الجواسيس فى المدارس والمعاهد ليتتبعوا حركات الطلاب، ويعرفوا المحرضين على التظاهر . وطفقوا يضعون العقبات فى سبيل إنشاء المدارس . قال السير الدون غورست فى تقريره عن سنة ١٩٠٩ « وما دامت المدارس نقطة الدائرة التى تدور حولها مساعى المضللين السياسيين ، فلا مناص من إبطاء تعليم الشبان المصريين »

فأنت ترى أن سياسة غورست كانت تضييقا وإرهاقا على طول الخط . وكان من سوء حظ بطرس غالى أن تولى تنفيذ تلك السياسة .

على أن السبب المباشر لمقتل رئيس النظار ؛ هو موقفه فى الجمعية التشريعية حين عرض مشروع امتداد امتياز قناة السويس . فقد دارت مناقشة حامية بين بطرس غالى ، وإسماعيل أباظه حول رأى الجمعية : أهو رأى قطعى أم استشارى ؟ فأبى رئيس النظار أن يتقيد بكلمة صريحة . وطال الأخذ والرد بينه وبين زعيم المعارضة على غير جدوى . وكان إبراهيم ناصف الوردانى حاضراً فى تلك الجلسة ، وقد ذكر السيد على الشمسى أنه رأى المتهم وقد امتقع وجهه ، واشتد حنقه . واعترف الجانى بأنه صمم على مقتل رئيس النظار منذ تلك الليلة .

والحقيقة التى لا لبس فيها ولا غموض أن مشروع القناة هذا قد أغضب الرأى العام غضبا شديداً واشتركت الأمة كلها — عدا الأقلية القبطية — فى الدعوى إلى رفض المشروع لما يجره على البلاد من الخسائر . وأخذ الكتاب والشعراء والخطباء يحثون الرأى العام على الثورة فى وجه الحكومة التى كانت تحتضن المشروع وتدافع عنه .

وقد انتهت هذه الحملات كلها بتلك الحادثة المؤلمة التى ذهب ضحيتها بطرس غالى . قالت صحيفة الأهرام بتاريخ ٢١ فبراير سنة ١٩١٠ ما نصه :

« أمس الأحد الساعة الواحدة بعد الظهر اهتزت القاهرة ، بل اهتزت البلاد كلها ، لطلق ست رصاصات من يد شاب وطنى على عطوفة رئيس النظار بطرس باشا غالى ، وهو خارج من نظارته يستعد لركوب عربته . أطلقها عليه فتى وطنى اسمه إبراهيم ناصف الوردانى ، لا يتجاوز عمره الثالثة والعشرين . فقبض عليه فى محل ارتكاب الجريمة ، وربط بحبل ، وسجن فى إحدى غرف نظارة الحقانية . واستلمه سعادة النائب العمومى للتحقيق معه » .

وما كاد هذا النبأ ينتشر حتى سرى الرعب وعم الخوف ، وأقفلت المحلات

التجارية ، وقر الناس فى بيوتهم . وذهب الخديوى عباس الثانى إلى مستشفى ملتون بباب اللوق حيث كان الرئيس قد نقل إليه لعلاجه ، فأثر هذا العطف فى نفوس الأقباط ، فقابلوه بالشكر والامتنان . ونوه به شعراؤهم وكتابهم . فمن ذلك قول كامل مرقس :

نيران للقبط لم تُخمد لها لَهبا إلا دموعُ أميرٍ ، دام مولانا

وقال بسطا بشاى منوهاً بعطف الخديو :

ومليكنا المحبوب يُبدي نحوه عطفَ الشفيق ودمعُه محدورُ
رب الأريكة كم لكم من نعمة ملأ المسامع ذكرُها المأثورُ
ماتت نفوس القبط من حزن وقد أحيا رجاها عطفك المشكورُ

ومنها يخاطب الفقيد :

أعلمت ما أبدَى المليك من الأسَى لما تحقق موتَك الجمهورُ ؟
سكب الدموعَ عليك وهْيَ غزيرة وبدا على الوجهِ الكريم بُسورُ
أأزيدُ علمَك بالمليك وفضله أنت الذى بِحُلَى المليك خبيرُ ؟

وقد خرجت جنازة الفقيد فى مشهد رهيب . وكانت الأجراس تدق فتزيد القلوب حسرة ، وتذيب النفوس لوعة . وجاءت وفود الأقباط من الأقاليم للاشتراك فى تشييع الجنازة . ومشى الناس خاشعين مطرقين ، وقد خنقتهم العبرات ، وتصاعدت منهم الزفرات .

* * *

وكان عبد الخالق ثروت — إذ ذاك — نائباً عمومياً . فجد واجتهد فى تحقيق الجريمة . واعترف الجانى بأنه قتل بطرس باشا لأنه خائن لبلاده . وقد

ذكر أن خيانته تبينت فى حادثة دنشواى ، وفى اتفاقية السودان ، وفى تعاونه مع الإنجليز فى القضاء على الروح الوطنى بإصدار قانون المطبوعات ، والتضييق على الطلبة حتى لا يشتغلوا بالسياسة ، وأخيراً فى موقفه من مشروع قناة السويس .

وقام عبد الخالق ثروت بمهمته فى التحقيق خير قيام . فأصدر أمره بتفتيش دار الحزب الوطنى . وألقى القبض على البارزين من رجال هذا الحزب ، وحقق معهم تحقيقاً دقيقاً ، كما ألقى القبض على ثمانية من أصدقاء الجانى بتهمة اشتراكهم معه فى الجريمة . وقد جرى التحقيق لأول مرة فى تاريخ القضاء المصرى بصفة سرية ، وأحيط بالكتمان الشديد . فترتب على ذلك رواج الشائعات الكاذبة رواجاً لم يسبق له مثيل فى تاريخ البلاد . وتولدت بين المصريين حالة نفسية خاصة سببت متاعب كثيرة . قالت صحيفة المقطم فى ٢٦ فبراير سنة ١٩١٠ :

« نحن لا نشكو من كتمان التحقيق ما دام الكتمان يسهل السبيل ، ويعين على الوصول إلى كشف الحقيقة . ولكنا نرجو أن سعادة الفاضل النائب العمومى يراعى حالة الهيجان المتسلط على الخواطر والأذهان فى هذه الأيام ، ويسعفه الصحف بتسكينه ، ورد المياه إلى جواريها الأولى . وذلك بإعطاء ما يمكن إعطاؤه من الأخبار المحققة التى يرى أن أمرها قد انتهى ، ولم يعد لها شأن فى التحقيق حتى ينقى نشرها جو القطر من بعض ما يكدره الآن من الإشاعات الهائلة والأراجيف المثيرة المنتشرة فى كل مكان »

ومن أمثلة المتاعب التى جرها هذا الحادث على الجمهور ما نشرته المقطم بالتاريخ المذكور وهو « ... وكذلك سولت النفس الأمارة بالسوء لبعضهم أن يهبط أسعار البورصة أمس . فأذاع فيها أن حضرة عزتلو إبراهيم بك الهلباوى قتل فى محطة العاصمة بيد باغ أثيم . وانتشر خبر السوء هذا بسرعة البرق ،

فتراكض الناس من البورصة إلى المحطة حيث علموا أن الخبر كاذب ، وأدركوا قصد الذى أشاعه ، ولـكن بعد أن كان الخبر قد طار على جناح البرق إلى بورصة الإسكندرية ، وأثر تأثيره فأنزل أسعار الأسهم فى البورصتين معاً » .

هذه هى الحالة الاجتماعية والنفسية التى باتت عليها البلاد فى الأيام الأولى لهذا الحادث . رعب وفزع ، وهلع وجزع ، وشائعات عن مؤامرات تخلق خلقاً ، وتلفق تلفيقاً ، وتذاع بين الناس . وجواسيس منتشرون فى كل مكان ، واعتقال وتحقيق . لقد أظلم الجو واكفهر ، وأصبحت الحالة تنذر بأوخم العواقب .

* * *

أما الأقباط فقد اشتد حزنهم ، وارتفع عويلهم ، وعظم عليهم الخطب ، وانهمكوا فى إقامة الصلوات على روح الفقيد ، وفى عمل المـآتم فى سائر جهات القطر . ولا عجب فى ذلك فإن بطرس غالى احتل عند الأقباط مكانة لم يصل إليها أحد من قبله ، وذلك للأعمال الجليلة التى أداها إليهم .قال رمزى تادرس :

« قل بين رجال الأمة المصرية ونوابغها من خدم أمته كما خدمها صاحب الترجمة . فهو أبو الإصلاح بين الأقباط ، ومؤسس دستورهم ، ومحيى جامعتهم ، ومؤلف شتاتهم ، ورسول البر والإحسان بين فقرائهم .فإليه وحده يرجع الفضل فى تشكيل المجلس الملى ، وتأسيس الجمعية الخيرية القبطية سنة ١٨٨٢ ، وتعضيد سائر الجمعيات القبطية والأعمال الخيرية والأدبية فيها . »

« ولم يكتف رحمه الله بذلك ، بل طبع على إنقاذ المعوزين وتعضيدهم حتى لم يخل عمل خيرى من تبرعاته الـكثيرة التى انهالت على سائر الجمعيات الخيرية. ومما يؤثر عنه أنه أول رجل فى مصر أرشد الأمة إلى أن مساعدة الفقير خير وأبقى من إحياء الحفلات . والقيام بأود عدة عائلات فقيرة بأسة خير من إنفاق

المال على الخمر والمآكل وسماع الألحان . يثبت ذلك أنه أبطل إقامة مهرجان لزواج أولاده سنة ١٩٠٦ ليحيي بنفقاته عشرات من البشر . تبرع بثلاثمائة جنيه للفقراء بدلا من المظاهر الباطلة ، فأبقى له ذكراً صالحاً ومجداً حقيقياً . بل وضع بعمله هذا المبرور حجر الزاوية فى مبدإ كاد أن يتناسى ، وهو مبدأ محبة الإنسانية والبر بالفقير والمعدم . »

وقد وضع شعراؤهم بهذه المناسبة كثيرا من التراتيل والترانيم المحزنة التى تسيل العبرات . مثال ذلك ترنيمة جاء فيها :

قَلْتذبْ منا القلوب ولماذا لا تذوبْ
إنما الدنيا غرورْ ليس فى الدنيا سرورْ
جرّعت بطرس غالى غيلة كأسَ المنونْ
فَلْنُعَزِّ اليوم مصراً وبنى الأقباط طُرّا
ولْنُرَدِّدْ منه ذكرا كلما دالت قرونْ
طيب الله ثَرَاهْ أجزل الله قِرَاهْ

ومن ترنيمة للقس عيد تادرس :

ثلاث مرات وفدْ قاتله ولم يجدْ
فى نفسه حولا وقد ضاعت قواه واضطربْ
فعادَ وهْوَ فى ذهولْ والوجه منه فى ذبولْ
فظنه الباشا يقولْ خيراً ، فأمّنَ واقتربْ
قد كان يقتله الرصاصْ وهو يفكر فى اختصاصْ
خير البلاد ولا مناصْ فاستشهد الله ولبْ

هذه أمثلة مما كان يترنم به الأقباط فى كنائسهم فى تلك الأيام حينما كانوا يذهبون للتعبد والصلاة . لقد أسبغوا على بطرس غالى صفة القداسة ، ووضعوه فى

مرتبة الشهداء. وكانوا يرددون هذه التراتيل من قلوبهم أعماق رجالا ونساء ، كباراً وصغاراً ؛ ودلائل الحزن على وجوههم بادية .

وقد ذكر صاحب الترنيمة الأخيرة فى شىء من التفصيل كيف حاول الجانى تنفيذ ماعزم عليه ، و بيان ذلك أنه تردد ثلاث مرات ، وفى كل مرة كان يضطرب وتخونه قواه . وفى المرة الرابعة تقدم إلى رئيس النظار الذى اعتقد أن الوردانى جاء يشكو إليه أمراً ، فاقترب منه آمناً مطمئناً ، فإذا بالجانى يعاجله بإطلاق النار عليه .

* * *

وقع مقتل بطرس باشا على الأقباط وقوع الصاعقة ، فارتفعت أصواتهم بالبكاء والعويل ، وأكثروا من لطم خدودهم ، وشق جيوبهم ، وأظهروا حزناً كبيراً ، وجزعاً عظيما . ولبسوا شارات الحداد ، وألفوا مظاهرات ، وعقدوا اجتماعات أبدوا فيها سخطهم الذى لا حد له على الحزب الوطنى الذى كان القاتل ينتمى إليه . ولقبوه بحزب الطيش والضلال ، وشرعوا يكتبون المقالات ،و يلقون الخطب وكلها تحريض للمحتلين على تشديد النكير على المصريين ، وأخذهم بالقسوة المتناهية ، والتنكيل برجال الحزب الوطنى الذى ينشر الفوضى والاضطراب،والذى حرض على قتل بطرس باشا ؛ وطعنوا فى صلاحية المصريين أجمعين للحكم الذاتى والنظام الدستورى . وهذه برقية نقدمها كمثال لما كانوا يرسلون من برقيات : « أقباط السلمية بنجع حمادى يندبون حظهم ، ويذرفون الدمع على الذين يريدون إعطاء المصريين الدستور ، و يشيرون على عموم الأقباط بتحديد يوم لاجتماعهم فيه للالتجاء إلى عموم الدول الأورو باوية للنظر فيما آلت إليه حالتهم . »

وكتب أحدهم مقالا جاء فيه : « . . . مصر تصيح مولولة قائلة : ألا شلت يمينك أيها الولد المسموم بسموم المتهورين ؛ الذين ملأوا رأسك الطائش ، وقلبك المرن بسخافات يحاولك بإتمامها الموت ، حتى تقرظ كما قرظ دنجرا من قبلك . لقد جريتم على البلاد مصائب هائلة ، ونكبات متكاثرة ؛ منها الأزمة المالية ، وزيادة الحامية البريطانية التى كنت أبغضها ، فصرت أرحب بها اليوم » .

وكتب ميخائيل فانوس المحامى مقالا جاء فيه : « . . . رأى — أى الله — أقواماً ماكرين ، لهم نيات شريرة ، وتدابير شيطانية ، فجعل هذا الحادث درساً ليفقه أصحاب السلطة ، ويتنبهوا حتى يضعوا الشىء فى محله ، فلا يتركوا الحبل على الغارب للمهيجين الأدنياء ألخ . . »

وترى آخر يكتب فيقول : « أنطلب الدستور والأمة غارقة فى بحار الجهل وسوء التربية ؟ أنطلب الدستور والسواد الأعظم لا يميز التمرة من الجمرة . إن وجدنا النواب أمامنا فلا نجد الأكفاء الذين يرشحونهم ألخ . . »

* * *

لا شك فى أن هؤلاء الكتاب قد أخطأوا خطأ كبيراً ، وضلوا ضلالا بعيدا . ووجه ضلالهم : أنهم أخذوا المصريين أجمعين بجريرة فرد واحد . والوجه الثانى : أنهم نظروا إلى الموضوع نظرة عنصرية خالصة . فاعتبروا القتيل عميدهم وزعيمهم ورئيسهم . واعتبروا المسلمين متعصبين ضد الأقباط ؛ لذلك قتلوا زعيمهم تمهيدا للقضاء عليهم جميعاً . والذى قرأ ما كتبناه عن موقف الأقباط من الحركة الوطنية ١٨٨٢ — ١٩١٩ لا يعجب مما صدر من كتاب الأقباط بمناسبة مقتل بطرس غالى .

لقد وقعوا عامدين متعمدين فى خطإ فاحش ؛ فإن بطرس غالى لم يقتل على أنه رئيس طائفة ، بل قتل على أنه رئيس حكومة . ولو كان بدله مسلم لما عصمه إسلامه من أيدى الطائشين . وقد شهد بذلك السير الدون غورست فى تقريره الصادر فى مارس سنة ١٩١٠ فقال : « أما الباعث على ارتكاب الجريمة فسياسى . ولم يكن للقاتل ثأر شخصى على القتيل ، ولا كان مدفوعاً بعامل التعصب الدينى إلى ارتكاب الجريمة »

* * *

وقد بذل الخديو عباس حلمى الثانى ما فى وسعه للتخفيف من وقع هذا المصاب . فزار عائلة الفقيد ، وعين الابن الأكبر نجيب باشا غالى وكيلا لوزارة الخارجية . كما بذل عقلاء الأقباط جهودا مشكورة فى وضع الأمور فى نصابها ، وإظهار الحقائق للسواد الأعظم من أبناء الطائفة القبطية . ونخص بالذكر فى هذا المقام : مرقس فهمى باشا الذى ألقى جملة خطب كان فيها مثالا للرجل النزيه المنصف ، والوطنى المخلص . فمن إحدى خطبه التى نشرت سنة ١٩١٠ قوله :

« . . . إذا قتل الوردانى متعصباً وحده ، أو مع شركائه ؛ فليس ذلك دليلا على أن كل المسلمين أرادوا هذا القتل لسببه ، ولا على أن المسلمين يريدون أن يقتلوا المسيحيين تعصباً . »

« بلادنا بلاد الهدوء والسلام ، تدعونا إلى السكينة والصفاء والوفاء ، لذلك عاش المسلم أخاً للمسيحى : إذا حصل بينهما خلاف ؛ فإنما يكون خلافاً سريع الزوال ، لا يلبث أن ينقضى »

« إذا كان كل خلاف بين الفريقين ضارا بكل منهما ، فتلك دلالة قاطعة

على أن فائدة كل منهما لا يمكن أن يكون لها وجود فى الواقع إلا بالاتفاق والاتحاد الحقيقيين . »

« إن هذا التضامن هو روح الوطنية ، وروح كل اجتماع . فلا وطن بدونه، ولا مسلمين بدونه ، ولا أقباط بدونه . »

وكتب نصيف المنقبادى مقالا طويلا جاء فيه : « . . . ومن الواضح المحسوس الذى يلمس باليد ، ويرى بالعين ، ولا ينكره إلا الذين أعمى الجهل أو سوء النية بصيرتهم ؛ أن الوردانى لم يقتله لأنه قبطى ، بل لأنه رئيس الوزارة ، ولأنه ظن أنه خان مصر وأضر بها ، فاستحق القتل . ولو كان محله مسلم ، وظن فيه ما ظن لقتله أيضاً . فلماذا ــ والحالة هذه ــ هاج بعض الأقباط وأرعدوا ، وأمطروا تلغرافات الاحتجاج ، وتظاهروا ، وكل هذا بصفتهم أقباطاً؟ ألخ... »

* * *

وهكذا انقسم الأقباط إلى فريقين : فريق العقلاء المخلصين ؛ وهؤلاء كانوا يكتبون عن عقيدة طاهرة ، وينطقون بالحق الذى لا ريب فيه . تحركهم روح وطنية سامية، وعاطفة قومية نبيلة. فوقفوا موقفاً مشرفا فى وسط هذا الليل الدامس. وطفقوا يبصرون ويرشدون ، ويعظون وينصحون . أما قصار النظر فكانت فى الغالب تحركهم أيد خفية . فلم يراعوا لبلادهم حرمة ، ولم يقيموا لوطنهم وزنا ، فانطلقوا يولولون ويصوتون ؛ حتى ملأوا الجو صياحا وعويلا ، وأسرفوا فى الاتهام ، ونادوا بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ؛ ناسين أو متناسين أن التسامح والتواصل شعار الديانة المسيحية .

فإذا تركنا الأقباط إلى شعرائهم ؛ وجدنا أن هؤلاء الشعراء لم يتعدوا طور

الحزن والبكاء . أجل ! لقد كان الشعر القبطى فى ذلك الوقت خير ترجمان للحالة النفسية الحزينة الباكية التى أضحت عليها تلك الطائفة . فإذا قرأت مانظمه شعراء الأقباط ؛ فإنك لن تجد غير الدموع والعويل ، والندب ولطم الخدود ، وشق الجيوب ، والسخط الشديد على القاتل المجرم الأثيم . والدعاء عليه بأن تشل يمينه . ولكن ما الفائدة من الدعاء عليه بأن تشل يمينه فى الوقت الذى كان حبل المشنقة ملتفا حول عنقه بإحكام ؟

مثال ذلك قول تادرس وهبى :

ما رأينا كمثله من وزير بلَّغ القطرَ سعيُه المأمولا
أنشأته كنانة الله شهما ذا يَدٍ فى سياسة الملك طولى
نازعتنا فيه الليالى وودت لو جادت به القرون الأولى
اصطفاه العباس للملك ذخرا فامتطى غارب المعالى ذلولا
وارتضاه إذ لم يجد مِن سواه فى صعاب الأمور قط بديلا

هكذا وقف الشاعر يعدد مآثر الفقيد ، وينوه بمناقبه وفضائله . وقد أسهب فى ذلك لينفى عن بطرس باشا تهمة الخيانة التى وجهها القاتل إليه ، وجعلها سببا لتبرير جريمته . واستخدم الشاعر ألفاظا وعبارات ذات إيحاء خاص ، مثل قوله: « واصطفاه العباس » وقوله : « وارتضاه إذ لم يجد من سواه بديلا » فكيف يكون خائنا من اصطفاه العباس وارتضاه لرياسة الوزراء ! ولكن هل كان أمر اختيار رئيس النظار والنظار بيد الخديو عباس ؟

وقال :

يا حليف الشقاء دنيا وأخرى كيف حللت قتله تحليلا ؟!

لست منــه ولا قلامة ظفر   فلك الله خائنا مرذولا
علم الله أن بطرس غالى   كان فيما يلى قئولا فعولا
لم يحاول أمرا يضر فريقا   أو يسوم البلاد وقرا ثقيلا

ومنها :

ولْنرَدِّدْ تأبينــه وكأنـا   منه نتلو التوراة والإنجيلا
ولنرتِّلْ كل آن وأين   ما حيينـا أعماله ترتيلا
ولنزر دائما مقاما حواه   ولْنُقَبِّلْ رفاته تقبيلا
وليضع كل عارف بعلاهُ   من بنى مصر فوقه إكليلا
ولنعول على الأمير المفدّى   فى دم بات مهدرا مطلولا
فإذا اقتص فالقصاص حياة   وهو نص لا يقبل التأويلا

وختمها بقوله :

ثم أنشد بين القبور وأرّخ   مات وامصر بطرس مقتولا

وفى هذه الأبيات ترى الشاعر يوجه اللوم والسخط الشديد للقاتل الذى وصفه بأنه حليف الشقاء فى الدنيا والآخرة . وذلك لأنه خسر الدنيا بما سيلقى من الجزاء ؛ وهو الإعدام . وخسر الآخرة لأنه ذاهب إلى جهنم . ثم أخذ يخاطب القاتل ويذكر له أن بطرس باشا برىء مما اتهم به من الخيانة . وأنه لم يسبب ضرراً لبلاده أو لأمته. ثم أخذ الشاعر يرتفع بشخص الفقيد إلى مراتب القديسين . فدعا الأقباط إلى أن يحجوا إلى قبره ، ويقبلوا ضريحه ، ويحملوا إليه الأزهار والورود تكريماً للفقيد وتحية له . ثم دعا إلى التغنى بمآثر بطرس ، وترديد مناقبه وفضائله كما تردد التوراة والإنجيل . وهذا تقديس ليس بعده تقديس . ثم اتجه إلى الخديو ، وأعرب عن رجاء الطائفة القبطية فى أن يوقع القصاص على

الجرم ، وأن تأخذ العدالة مجراها . وأشار إلى آية ١٧٩ من سورة البقرة وهى «ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب» وقال إن هذا النص واضح المعنى بحيث يؤخذ على ظاهره . والذى دفع الشاعر إلى طلب إعدام القاتل هو الشائعات التى روجها بعض الناس عن محاولات تبذل عند الخديو ليعفو عن القاتل ، وربما قام بعض المصريين بكتابة عرائض وإرسالها إلى الخديو طالبين فيها الصفح عن الجرم .

وقال بسطا بشاى :

مُدَّت إليه بالأذى يد سافل . شلَّتْ يمينُك أيها المغرورُ
أدريتَ أى جناية أحدثتها فى مصر يتلوها أذى وثبور ؟
أدريت أى خسارة ألحقتها بالقطر ، كم فى طيِّها تأخير ؟

والشاعر هنا بعد أن دعا على القاتل ؛ أخذ يشير إلى ما عسى أن يصيب البلاد من جراء هذا الحادث . فالفتنة التى وقعت بسببه بين المسلمين والأقباط لم تكن فى صالح المصريين ، بل كانت فى صالح المحتل . وكان الخير كل الخير أن ينصرف المصريون أجمعون إلى كفاح الإنجليز الذين هم أساس الداء ، وأصل البلاء .

والشاعر هنا يخاطب القاتل ويقول له : إنك قتلت بطرس باشا لتخدم وطنك ، ولكنك جلبت له الضرر والبلاء من حيث لا تعلم .

ومنها :

قد كان هـذا العبد يدعو ربَّه أن لا يُلِمَّ بشخصك المحذورُ
فأصوغ للأوطان درَّ تهانئى تزهـو بنظم العِقد منه نحورُ

فأبى الردّى إلا اغتيالك عاجلا   وعـدا على المدح الرثا المسطورُ
فنظمته من أدمعى إذ خاننى   فيك النظـام وعقّنى المنثورُ

وهذا نوح و بـكاء يسوقه الشاعر وقد أذابت الحسرات نفسه، وفتت الحزن كبده ، وفاضت دموعه على خديه . وانظر إلى قوله (والخطاب للخديو) .

ماتت نفوس القبط من حزن وقد   أحيـا رجاها عطفك المشكور

فهو يقول إن القبط ماتوا من شدة الأسى ، وفرط الحزن على هذا المصاب . وأن الخديو رد إلى هذه النفوس الميتة الحياة ، و بعث فيها الأمل بما أبداه من عطف على عائلة بطرس باشا .

* * *

وقال جرجس البياضى .

نور عيسى فى وجهه يتجلّى   كهلال يلوح فوق السماءِ
دقّ الناقوس حزناً عليه   دقة القلب من جوى البُرَحاءِ
وجرى الحزْنُ فى الصليب فأمسَى   مُطرِقا بالعلامة السوداء
حملته الآباء وهو حزين   فسرى الحزن بعد فى الأبناء
إن قتل الوزير فينا فـــداء   للخطايا ، أ كرم به من فداءِ
نبأ رَوّع الخلائق جمعاً   ليته لم يكن من الأنباءِ

وهذه الأبيات تمتاز بجو دينى مهيب أسبغه عليها الشاعر . فأنت ترى نور عيسى متجليا فى وجه بطرس باشا . وعيسى هو الله فى نظر هذا الشاعر . فكأنه يقول إن نور الله تجلى فى وجه بطرس غالى ، ولاح كما يلوح الهلال فوق السماء . وهذه أعلى مرتبة يصل إليها القديسون والشهداء . و يقول الشاعر إن الناقوس دق حزنا على بطرس ، وكانت دقاته تشبه دقات القلب الذى اشتد عليه المرض.

والصليب أطرق أسفا عليه ، وجلل بالسواد من أجل هذه المصيبة . فكل شيء بدا حزينا باكيا . وهذا الصليب الحزين المجلل بالسواد قد حمله الآباء من رجال الدين ؛ فسرى حزنه إليهم ، وانتقل من الآباء إلى أفراد الطائفة جميعاً . فأصبح الحزن عاما شاملا . ثم جعل مقتل بطرس باشا فداء لما ارتكبه الأقباط من الخطايا والآثام . فكأن بطرس غالى بالنسبة لأقباط مصر كالفادى (المسيح) بالنسبة لجميع المسحيين فى العالم .

وقال أحدهم على لسان بطرس باشا :

لقد قذفوا الرصاص علىَّ زعماً ... بأنى خائن أهلى وقطرى
وقد جاءوا بها خمساً شداداً ... تمزق مهجتى وتشق صدرى
وما فطنوا وقد سلبوا حياتى ... إلى ما فيه سرُّ نجاح مصرِ
أضاعونى وأى فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر

وهذا كان لسان حال الأقباط، فهم يبرئون القتيل من كل شائبة ، وينزهونه من كل عيب . ويقولون إنه كان يعمل لخير البلاد وسعادتها . والأبيات مؤثرة إلى حد بعيد ، لأن القتيل هو الذى يدافع عن نفسه ، وكأنما نسمع صراخه وأنينه .

وقال شاعر قبطى آخر :

لو أحل الأقباط قدرك منهم ... مهجة القلب أو حَدَق العيونِ
وأقاموا لك التماثيل فى دار ... ودير ، وبيعة للدين
لم يفُوا قدرك اعتبارا ولكن ... وضعوا الكنز فى المحل الأمين
إنما أنت خير كنز رأينا ... ونراه على ممر السنين

طلسم المجد فوق يمناك سطر   ليس للقبط غيرها من مُعين
فقليل عليك قولى إذا   أنسك يوما إياى تنسى يمينى

فانظر إلى هذا التقديس والتبجيل ، وانظر إلى ما كان يتمتع به بطرس غالى فى نفوس القبط من الجلالة والمهابة، والاحترام والحب الذى لا حد له. إن الأقباط لم يبكوا على أحد من عظمائهم بقدر ما بكوا على بطرس غالى . ولعل الكيفية التى لقى بها حتفه كانت سبباً فيما أسبغ عليه من قدسية . والمتأمل فى هذه الأبيات يلمح بوضوح وجلاء مبلغ الخسارة الجسيمة التى حلت بهؤلاء القوم . فالشاعر يقول إن القتيل كان خير كنز لأبناء طائفته ، يفيض جوده عليهم ، ويغمرهم بكرمه ليل نهار .

وقد ضمن البيت الأخير آية من كتاب المزامير وهى « إن نسيتك فلتنسنى يمينى مز ١٢٧ : ٢٢٥ »

* * *

إن مقتل بطرس باشا الذى هز البلاد هزا عنيفا ؛ لم يهز خواطر الشعراء المسلمين ، ولم يحرك وجدانهم ؛ فالتزموا الصمت التام . ولم ينطق أحد منهم ببيت واحد يترجم فيه عن شعوره إزاء هذا الحادث . فما السر فى ذلك ؟ ألأن هذا الحادث من الحوادث التافهة التى تقع كل يوم فلا تحرك خاطرا ، ولا تولد إحساسا ؟ كلا ، بل إنه كان أول حادث من نوعه فى تاريخ البلاد . أجل ! حتى شوقى شاعر الأمير لم يحرك خاطره هذا الحادث ، ولم تحرك خاطره دمعة الأمير التى ذرفها على بطرس غالى . وشوقى كان صديقا حميما للفقيد، وهو القائل :

فى منـــــازل غالى فزنا بصفو الليالى

لقد وفر علينا مرقس فهمى مئونة البحث عن السر فى جمود كبار الشعراء إزاء هذا الحادث ، فقال فى إحدى خطبه :

« . . . تنازعنا فى نسبة بطرس باشا : من منا خسره ؟ أو من الذى كان يملكه ؟ هذا يقول : بطرس للأقباط . وذلك يقول : إنه مسلم ، لأنه بصفته ناظرا فى الحكومة المصرية مدة خمسة عشر عاما ؛ كان شيخا للأزهر فى كل هذه المدة . ولم يكن له أى وظيفة شرعية عند الأقباط ، فهو مسلم حكما وعملا ، بل هو شيخ المسلمين ! ! »

« قسمت هذه المناقشة البلد إلى شطرين : أقلية تدعى أنها هى وحدها التى أصيبت فى شخص الفقيد ، فهى التى عز عليها المصاب ، وهى التى يجوز لها أن تطالب بالعقاب . وهى التى يحق لها أن تراقب أعمال التحقيق ، وتلاحظ عليه. وهى التى تتألم لكل حركة تعتقد أن فيها إهمالا لتقدير ذلك المصاب الجلل ، أو جمودا فى شعور الأكثرية ، أو سكوتا لا يتفق مع أهمية الحادث . أما الأكثرية ــ يعنى المسلمين ــ فماذا كان موقفها ؟ »

« أخبرنى صديق منها أنه صمم على تأبين الفقيد يوم الأربعين ، معتقدا أن هذا أقل واجب يؤديه . فلما رأى هذه المناقشة خشى أن يحسب الناس منه ذلك نفاقا ورياء ؛ فعدل عن قصده نهائيا »

« هذا أحسن تفسير لذلك الشعور الذى قام فى نفوس المصريين أمام هذه الجلبة التى لا تفهم »

« قالوا فى نفوسهم : بطرس ليس لنا ، ولا هو منا . إذن لا يهمنا موته . لذلك جمدت قلوب الشعراء أمام هذا الحادث ، وليس أسرع من تحركها أمام أصغر الوقائع وأقلها تأثيرا . »

لا شك فى أن مرقس فهمى قد أصاب كبد الحقيقة ، وكان منصفا نزيها فى قوله . ولا نعجب بعد ذلك إذا علمنا أنه لم يقف شاعر مسلم واحد فى حفلة الأربعين ليؤبن الفقيد .

وقد وجه الأقباط لوما شديدا ، وعتابا مرا إلى شاعر الأمير . قال مرقس فهمى من خطبة له :

« . . . بل كان هذا الخطأ ـ أى القتل السياسى ـ نفسه شيئا جديدا تلتهب له غيرة شاعرنا الوطنى ، فيلقى على النفوس المتألمة للقتل والوطن تسلية بشعره الهادئ النقى ، ويطلب إلى القلوب المتنافرة أن تتألف ، وإلى الصدور المجروحة أن تتصافى »

« لم يفعل بل جمد وجدانه ، وسكت لسانه ؛ لمجرد أن فئة قالت : إن الفقيد لها ، لا للأكثرية . »

وكتب قبطى آخر يقول « لعمرك لقد خان شوقى نفسه وهو يقول إننى رجل أخدم الوطن كلما عرضت حال ، فى خطابه إلى روزفلت . يكذبك الحال ياشوقى . وقد مر عليك موت عظيم مصر بطرس باشا غالى ، وقد جمد إحساسك ، وجف شعورك فى مقام العزاء لمصر . أو لم تذكر صفو لياليك حيث قلت :

فى منـــــازل غالى فزنا بصفو الليالى

« عجبا لك ياشوقى ! تذكر صفو الليالى ، ولا تذكر كدر الأيام ! »

وقال كامل منصور معرضا بالشعراء المسلمين :

إن يُحجم القوم عن نظمِ الرثاء له ... فقد رثاه النُّهَى والعلم والأدبُ
وإنْ تجفَّ دموع فى عيونهمُ ... فمدمع المجد مُنْهَلٌ ومنسكبُ
وإن دعاه الألَى طاشت عقولُهمُ ... بظالم فأيادى عدلِهِ قُشُبُ

هل حافظ قد عَصتْه فيه قافية ... أم ابن هانى عراه الخوف والرَّهَبُ ؟

أين القصائد ياشوقى مدبَّجة ... من كل ضافية ماإن لها سبب ؟

هل القريض عزيز أن تدبجه ... فى فقد من فى الملا آراؤه شُهُبُ ؟

أم الدماء التى سالت تروق لنا ... دم البرىء قلوب حوله تجبُ ؟

دم البرىء ينادينا ألا اجتهدوا ... لاتغمضوا الطرفَ حتى ترفعَ الحُجُب

وقد اضطر شوقى إلى نظم قصيدة قصيرة جاء فيها :

بنى القبط ، إخوان الدهور رويدكم ... هبوه « يسوعا » فى البريَّة ثانيا

حملتم لحكم الله صلب ابن مريم ... وهذا قضاء الله قد غال غاليا

ووالله لو لم يطلق النار مطلق ... عليه لأودى فجأة أو تداويا

تعالوا عسى نطوى الجفاء وعهده ... وننبذ أسباب الشقاق نواحيا

فلا ينسكم عن ذمة قتل بطرس ... فقِدْما عرفنا القتل فى الناس فاشيا

وشوقى هنا يخاطب العقل ، فيدعو إلى ترك العواطف الهوجاء . ويقول إن لكل مخلوق أجلا معلوما . و بطرس لم يمت قبل انقضاء أجله . ولو لم يقتله الوردانى لقضى نحبه فجأة أو بعد فترة من المرض والعلاج . فإذا سلمتم بذلك يامعشر الأقباط ، فلا داعى ـ والحالة هذه ـ إلى ذلك الصياح والعويل الذى ملأتم به أجواز الفضاء . وأنتم قديما رضيتم بحكم الله فى عيسى وهو الصلب بعد العذاب الشديد ، فكيف لا ترضون بما حكم الله به على بطرس ؟

وأخذ يهون عليهم الأمر ، فذكر أن القتل من الأمور الفاشية المألوفة منذ القدم . ولعله أراد أن يشير إلى قصة قابيل وهابيل .

وقد نظم شوقى قصيدة رائعة فى الاحتفال بالذكرى السنوية لبطرس غالى ، جاء فيها :

قبر الوزير تحية وسلاما ... الحلم والمعروف فيك أقاما
ومحاسن الأخلاق فيك تغيبت ... عاما، وسوف تُغيِّب الأعواما
قد كنت صومعة فصرت كنيسة ... فى ظلها صلى المطيف وصاما .

وقد ظل الأقباط مدة من الزمن يحتفلون بذكرى بطرس غالى ، وينظم شعراؤهم القصائد الطوال بهذه المناسبة . فمن ذلك قول نصر لوزا الأسيوطى :

ما للجموع حيال القبر تزدحم ؟ ... هل ساقها مأرب فى ذاك أم قَسَم؟
أم ذاك حج ، نعم شدوا رحالكمُ ... هنا الشهيد ، وهذا قبره الحرم

وقد أوردناها بتمامها فى المختار من شعره . وله قصيدة أخرى نذكر منها :

مضى العام مشئوم الليالى على الورى ... فليست بَسوسُ الشؤم منه بأشأمِ
فيامن تلاقى قبره اخشع مكبِّرا ... وصل على رب الضريح وسلِّمِ
أبطرسُ إنا مذ رمتك يد الرَّدى ... بكيناك بالدمع المتون وبالدَّم
نقيم بليل من فراقك مظلمٍ ... ونصبح فى هَمٍّ من البين مؤلمِ
عيون بنى مصر عليك تقرحتْ ... وفاضت على الدنيا بدمع مُسَجَّمِ
ومن يخدم الأوطان مثلك دائبا ... يُمجَّدْ وإن ذاق المماتَ و يُكرمِ
بكى النيل من فرط المصاب وهكذا ... على فقده ناحت جبال المقطمِ
أمصر احفظى ذكرى الفقيد على المدى ... ولا تبخلى فى كل عام بمأتمِ
وصونى اسمه بين الفراعن مَن مضَوْا ... فما رمسيسٌ المشهور منه بأعظمِ

* * *

رُوَيدَك لا تجزع إذا قيل قد قضى ... قتيلا، كذا مات المسيح ابنُ مريمُ
ألخ . . .

وقال جرجس البياضى فى رثاء الفقيد :

أىّ بدر خبا وأى بناء قوضته فى الدهر أيدى القضاء
قل لناعى الوزير للخلق مهلا وترفقْ بثلكمُ الأحشاء
ومُرِ الشمس أن تغيب عن الأفْ قِ فلسنا فى حاجة للضياء
ومرِ السحب أن تمرّ جهاما كم سحاب أرسلتُه من بكائى؟
ومرِ الليل أن يدوم طويلا لنرى مصر فى ثياب الشقاء
بلد خانه الزمان فأمسى كيتيم أوفى على لؤماء
ذهب اليأس بالنفوس فمن لى برجاء بعد احتجاب الرجاء
أين من هذّب الزمان وأحيا سننا أعجزت نُهَى الحكماء
غاله خائن يرى القتل دينا وطريقا إلى مراقي العلاء

الخ . . .

وإلى هنا ينتهى الكلام على مقتل بطرس غالى وأثره فى الأدب القبطى .

٣ - ثورة سنة ١٩١٩
وأثرها فى الأدب القبطى

لما وضعت مصر تحت الحماية البريطانية فى ديسمبر سنة ١٩١٤ انهالت مظالم البريطانيين على المصريين أجمعين ، ولم تفرق السلطات البريطانية بين مسلم ومسيحى . فكان اشتراك العنصرين فى تحمل هذه المظالم عاملا قويا فى تقريب المسافة بينهما ، فتحطمت الحواجز والفواصل التى فرقت بين أبناء الوطن الواحد مدة من الزمن . وتهيأت الأذهان لقبول فكرة الاتحاد والتضامن للتخلص من العدو المشترك ، وتحرير البلاد من سيطرته .

حقاً لقد ارتفعت قبل سنة ١٩١٤ بعض أصوات تدعو إلى اتحاد العنصرين ، وخطب بعض علماء المسلمين فى الكنائس ، كما خطب بعض رجال الدين المسيحى فى المساجد . ولكن هذه الحركة كانت محدودة جداً ، ولم يكتب لها النجاح . أما ثورة سنة ١٩١٩ فكانت حداً فاصلا بين عصرين مختلفين بالنسبة للمجتمع المسيحى والأدب القبطى . فقد اندفع المسيحيون منذ قيام ثورة ١٩١٩ للاشتراك فى الجهاد الوطنى والكفاح القومى فى حماسة منقطعة النظير. ولم يدخروا وسعاً فى العمل من أجل الاستقلال وتطهير البلاد من أدران الاحتلال . فكتب كتابهم وخطب خطباؤهم ، ونظم القصائد الطويلة شعراؤهم ، وكلها تزخر بالعواطف الوطنية الملتهبة .

قال نصر لوزا الأسيوطى :

حتى متى النوم فى ذل وإذعان   الصبح لاح فلا عذر لوسنان

آل الهلال ويا آل الصليب كفى ما ذقتمُ من حزازات وأضغانِ
أخوّة جمعتــكم تحت رايتها مدى الحياة فلا تُفْصَم بأزمانِ
قد لمّ شملـكم اللهُ العليُّ فهل يسطيع تفريقـكم بهتان إنسانِ
عيسى وأحمد قرّا فى خلودهما بمسلم لم يُطق ضيما ونصرانى
كلٌّ بمسـجده ، كل ببيعته يدعو إلى الله فى سر وإعلانِ
هل يقبل الضيمَ منكم معشر نُجُبٌ آباؤهم مثل فرعون وقحطانِ
بالسيف قد فتحوا الدنيا غطارفة دانت لهم كل أمصار وأوطانِ
من الحرام بنى الأحرار صبركم على الأعادى زمانا صبر عُبدانِ
همُ الذئاب ، فهل تخشون حولهُم هيهات يخشى العَفَرْنَى صول ذُؤبان
على الـكنانة قد طالت جنايتهم فكيف نصبر فى ضيم على الجانى؟!
قد ثرتمُ ثورة بالبغى مردية دوّى صداها بقاصى الأرض والدانى
فلا سقى النيل نفسا هاب صاحبها وِرْدًا وفى قلبه تبريح ظمآن

لا شك فى أن كل كلمة من كلمات هذه القصيدة تعبر عن روح وطنية سامية. وإذا قرأنا هذه القصيدة ، وقصيدته التى نظمها فى مدح الملك جورج الخامس ، فإن العجب يتملـكنا من التبدل الأساسى الذى طرأ على المشاعر الوطنية للأقباط .

وله من قصيدة فى رثاء سعد زغلول سنة ١٩٢٧ :

أتباعُ أحمدَ والمسيحُ تصـافحوا بك فى الجهاد تصافح الإخوانِ
وبك المساجد والـكنائس خشّعا رفعت أهلتها مع الصـلبان
كم صحت فى وجه المفرق قائلا مصرٌ لنـــا والدين للديان .

ألَّفتَ ما بين السرائر فامَّحَى بهداك ما فيهـا من الأضغان

* * *

ولمـا أعلن الإنجليز تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، واحتفظوا لأنفسهم بحق حماية الأقليات ؛ عرضوا على المسيحيين أن يكونوا ضمن الأقليات المحمية فرفضوا رفضاً باتاً ، وفضلوا الانضمام إلى الأكثرية الإسلامية ، والاندماج فيها. ثم شرعت الحكومة فى سنة ١٩٢٢ تعمل على إقامة الحياة النيابية ، فاجتهد الإنجليز فى دس الدسائس للتفرقة بين العنصرين . فأوعزوا إلى الكاتب المسلم محمود عزمى بأن ينشر فى صحيفته « الاستقلال » مقالات يطالب فيها بحق التمثيل النسبي للأقلية المسيحية فى المجالس النيابية . وكانت مقالات محمود عزمى أول ما كتب فى هذا الموضوع .

ثم أعقبه توفيق دوس فنشر مقالا طويلا فى الأهرام جاء فيه :

« أرى أنا أنه من ضمن ما قد يؤخذ عذراً تبنى عليه حماية الأقليات عدم تمثيلها فى المجالس النيابية . وهناك خطر شديد ألا تمثل مطلقاً إذا لم يوضع نص يضمن ذلك التمثيل . »

« أريد أن أقفل هذ الباب ، فلا أدع مجالا لأن تقوم إحدى الأقليات لتشكو ما تدعيه — ولو خطأ — من حيف إذا هى لم تمثل فى مجلس النواب . والإنجليز يدعون حق سماع هذه الشكوى وحق الفصل فيها ، بل هم ادعوه من زمن . »

« إن أغلبية الأمة الساحقة بما فى ذلك غالبية الأقلية من الأميين ، وأخشى كثيرا إذا لم يوضع لهم نظام يتضمن حق تمثيلهم ، ثم لم ينتخب منهم أعضاء للمجالس النيابية أن يشعروا بأنهم قد هضم لهم حق . »

« أخشى أن تلك الأقليات أو إحداها أو بعض الأفراد منها يرمون بأنفسهم فى أحضان الإنجليز ، وهؤلاء يتلمسون مثل هذه الفرصة . »

وما كاد المسيحيون يطلعون على هذا المقال حتى هاجوا ضد توفيق دوس ، وعقدوا اجتماعاً فى الكنيسة المرقسية ، وأعربوا عن استنكارهم لما جاء فى المقال المتقدم ، وهتفوا بسقوط كاتبه ، ووصفوه بأنه صنيعة من صنائع الإنجليز .

وكتب سلامه موسى مقالا جاء فيه :

« لست موافقاً على رأى الأستاذ دوس فى تخصيص كراسى للأقليات ، لأنى أعتقد أن معالجة الموضوع من هذه الناحية لا تؤدى إلى الغرض المقصود . وذلك لأن الأقلية ما دامت أقلية فى البرلمان بحيث لا يكون لها أمل فى أن تكون يوماً ما أكثرية فلا فائدة منها مطلقا ، لأن نظام البرلمان هو فى الواقع نظام الحكم بالأكثرية . فإذا فرضنا أن للأقباط عشرين كرسياً قد حفظتها لهم الحكومة وأجلستهم عليها بعد أن فشلوا فى الانتخابات ، فلا فائدة تعود على الأقباط من هؤلاء النواب إذا كانت الأكثرية لا تسلم بمطالبهم فى مشروع ما من المشاريع المعروضة أمامهم . »

ورد عبد الحميد بدوى على توفيق دوس بمقال جاء فيه :

« إن المجلس النيابى ليس مجلساً دينيا ، وإنما هو مجلس سياسى . فالجمع فيه بين المنازع السياسية بحسب قوتها الصحيحة طبعى ومفهوم . ولكن الأقلية الدينية من حيث هى مجموع مشترك فى دين غير دين الأكثرية لا يمكن القول بأنها مذهب سياسى قائم بذاته ، بل هذا هو الذى يجب تجنبه . »

«الواقع من جهة أخرى أن النظرية التى يقوم عليها المعنى النيابى تنافى كل المنافاة تمثيل الأقليات الذى يقترحه توفيق بك دوس ، لأن النائب يمثل الأمة كلها . إن تقسيم التمثيل على هذه الصورة التى تميز بين أقلية وأكثرية يحيى فكرة التعصب التى نرجو كلنا أن تمحى نهائيا . »

« نريد سياسة قومية خالصة لا تلتفت فى طريقها النبيل إلى الأديان والمذاهب ، ولكنها تتجه دائما إلى مصلحة الوطن . فدعوا الناخب حراً يتفقد الناس وينتقدهم ، حتى إذا أصاب الكفء قدمه للنيابة غير ناظر إلى دينه . »

* * *

وانتهى الأمر بترك الحرية للناخبين . ولما ظهرت الأحزاب السياسية انضم المسيحيون إلا أقلهم إلى حزب الأغلبية ، أى حزب الوفد . فكان الناس يسألون عن الحزب السياسى الذى ينتمى إليه المرشح ، لا عن دينه . وهكذا اختفت العصبية الدينية وحلت محلها العصبية السياسية . وقد حاولت أحزاب الأقلية أن توقد نيران العصبية الدينية ولكنها لم تفلح . كما أن الإنجليز حاولوا بعد وفاة سعد زغلول أن يفرقوا بين المصريين فباءت محاولاتهم بالفشل .

ففى سنة ١٩٢٨ تناولت صحيفة « مصر » موضوع الموظفين المسيحيين ، وزعمت أنهم مضطهدون ومظلومون . ونشرت أمثلة من هذه المظالم المزعومة . وقد اتضح بعد البحث أن ما نشرته الصحيفة المذكورة لا أساس له من الصحة ، وانبرى للرد عليها بعض المسيحيين . فصرح مكرم عبيد لمندوب الأهرام بقوله :

« إنى لا أعرف وأكره أن أعرف أن هناك موظفين أقباطاً ومسلمين . فإن الموظفين الذين خلدت وطنيتهم وتضحياتهم فى كتاب النهضة المصرية هم الموظفون المصريون ، ولا أعرف سواهم . ومن الحرام أن تثار مسألة مسيحى ومسلم بعد أن قبرناها وغسلنا ما خلفته من أرجاس بدماء شهدائنا الزكية . وإنى أحمد الله أن القائمين بهذه الحركة هم نفر قليل يعدون على الأصابع ، ولا يمثلون طائفة ولا فريقاً ولا رأياً . »

وكتب وديع صليب فى صحيفة « البلاغ » مقالا تحت عنوان : « القومية المصرية » جاء فيه :

« قامت جريدة مصر فى هذين اليومين بضجة أدهشت الخاص والعام . فقد خصصت أعمدتها لرفع شكوى موظفى إدارة الأموال المقررة من الأقباط ، قائلة إن هؤلاء الموظفين مضطهدون من رؤسائهم المسلمين بسبب دينهم . ونحن لا نتعرض لهذه الظلامة المزعومة فى موضوعها ، بل نقول لجريدة مصر إن القومية المصرية أقدس من أن تتصدع فى سبيل الأفراد . »

« أصبحت هذه القومية قذى أعين المستعمرين خصوصاً وقد أحاطها المصريون جميعاً بسياج من الإخلاص . وما كنا نظن بعد ذلك أنه يوجد مصرى يتعرض لهذه القومية بأذى ، ولكننا نرى اليوم جريدة مصر تحمل معولا وتحاول تصديع هذه القومية فى سبيل أفراد تقول إنهم ظلموا واضطهدوا »

وكتب زكى عبد السيد مقالا فى صحيفة « البلاغ » تحت عنوان « كلمة صريحة » لصاحب جريدة مصر جاء فيه :

« إننى رجل قبطى أرثوذكسى أغار على دينى وأحب أبناء وطنى عموماً ؛

وأبناء طائفتي خصوصاً حباً شديداً . وإني من قراء جريدة مصر » .

« والذي أقوله هو أنه ثبت لي بعد البحث والتدقيق أنكم ترمون فيما كتبتموه وتكتبونه إلى غرضين اثنين : (١) رواج جريدتكم . (٢) فصم عرى الاتحاد وتمكين المحتل من تثبيت قدمه في بلادنا بحجة الدفاع عن الأقليات وحمايتها » .

« فإن كنتم تقصدون رواج الجريدة فهناك طرق شريفة مشروعة ، وإصلاحات عديدة يمكنكم إدخالها على جريدتكم ، وبذلك تروج وتكسبون رضى الأمة وعطف الجمهور . أما التضليل والكذب فلا يجديان نفعاً » .

« أما إن كنتم تقصدون فصم عرى الاتحاد الذي سفكنا فيه الدماء الغالية، وأرواح أبنائنا البررة ؛ فعملكم جريمة شنعاء في حق الوطن المقدس . وأنتم تستحقون النبذ والاحتقار ، لا أكثر ولا أقل من جميع طبقات الأمة المصرية على اختلاف نزعاتها ومذاهبها » .

وكتب سينوت حنا في صحيفة البلاغ مقالا طويلا تحت عنوان « الوطنية ديننا ، والاستقلال حياتنا » جاء فيه :

« لاقبطي ولامسلم . وإنما كلنا أمام الوطن مصريون . وما هذه الضجة التي ثارت في الأيام الأخيرة باسم الأقباط المضطهدين في بعض الوظائف إلا إثما في حق الوطنية ، وحق الحكم الدستوري ، كما هي إثم في حق الواقع » .

« وإنه ليكفي أن يذكر الإنسان أولئك الشهداء الذين جادوا بأنفسهم مسلمين وأقباطا فداء للوطن المصري ، لاللوطن المسلم ، أو الوطن القبطي ، حتى يشعر بما في ذلك من الجلال والسمو ، ويشعر في الوقت نفسه بما في الضجة التي يقيمها الآن نفر قليلون باسم الموظفين الأقباط من الضعة والمهانة . ولكن ليطمئن

المصريون جميعاً ، فإن الجريدة التى تصيح الآن باسم الموظفين الأقباط لاتجد بينهم من يؤيدها أو يرضى عنها ، بل هم جميعاً ، والموظفون منهم خاصة يستنكرون فعلتها ، ويبرأون إلى الوطن منها » .

« ليذكر كل منا أن وحدتنا هذه كانت وما تزال أعظم ماتألم منه الخصم ، وأنه حاول غير مرة أن يفصم عراها فلم ينجح . فهذا الخصم يرضى الآن من غير شك عن السعى بتلك الوحدة ، ويغتبط بكل معول يوجه إليها ، ولو لم يكن فى مقدوره أن ينال منها ويؤمل أن تجتمع حول الصوت الشاذ أصوات ، وأن يقتدى بالخارج خارجون . وذلك وحده يرشدنا إلى الجهة التى لها مصلحة فى هذا الشذوذ ، وحسبنا أن نقول هذا فلا نزيد » .

« فيا أبناء وطنى ، إن فى الجو دسائس تأتمر بالألفة التى تمت على عهد زعيمنا الفقيد بين أحزابنا وهيئاتنا ، وتضرب بمعولها لو استطاعت فى أساس وحدتنا » .

« إن فى الجو دسائس لايروقها أن يشمل الوفاق أبناء مصر ، وأن يذكروا الوطن وحده لينسبوا فيه كل عوامل الخلاف ، ويغلق على أعدائه أبواب الفتنة والشقاق » .

« فمن ذا الذى تسول له نفسه أن يكون هو دسيسة تضاف إلى تلك الدسائس التى لاتنى عن الكيد لنا ، والتفريق بين صفوفنا ؟ وأين هو المصرى الذى ينقاد إلى ذلك الأحمق المأفون أو الخائن الأثيم ؟ »

* *

وحدث فى سنة ١٩٢٨ أن ذهب المبشر الأمريكى زويمر إلى الجامع الأزهر

وجلس فى حلقات الدروس . ثم تناول كتاباً من أحد الطلبة ، و بعد أن طالع فيه قليلا دس بين طياته بعض كتب من تأليفه محشوة بالمطاعن القبيحة فى الدين الإسلامى ، وانصرف .

وقد قابل رجال الأزهر هذا العمل بالهدوء ، وكتبت الصحف مستنكرة هذه الأعمال ، وقالت إنها من دسائس المحتلين لإثارة الخواطر ، واتهام المسلمين بعد ذلك بالتعصب ، ومايتبع ذلك من تدخل سافر فى شئون البلاد . وأخذ بعض كتاب النصارى يحملون على المبشرين حملات عنيفة . فكتب « كليم أبو سيف » فى صحيفة « البلاغ » مقالا تحت عنوان « المبشرون » جاء فيه :

« أمر هؤلاء المبشرين عجيب . فهم — رغم أننى أستطيع أن أقسم بأنهم لادين لهم — مايزالون يرتكبون باسم الدين كل المنكرات والمحرمات التى ينهاهم عنها الدين . وهم مايزالون يتمادون فى صفاقتهم وتحديهم لشعور المصريين بتلك الأعمال تمادياً ما أظن أناساً رزقوا شيئاً من الحياء والأدب يستطيعون إتيانه وتحمل مسئوليته » .

« قوم نزحوا إلى مصر فأكرمت مثواهم ، وقابلتهم كريمة جوادة سخية كما تعودت أن تقابل غيرهم من الضيوف النازحين إليها من شتى بلاد العالم . وفتحت لهم ولغيرهم خوان صدرها ، وأسكنتهم القصور ، والله يعلم أين كانوا يسكنون قبل أن يجرى القدر بمجيئهم إليها . فماذا كان جوابهم ؟ وماذا عملوا رداً لهذا الجميل ؟ »

« كان جوابهم إثماً وجحوداً ، وكانت أعمالهم خزياً يكفى لتسويد صحائف الأمم إلى الأبد . وهكذا حظ مصر أبداً عاثر ، فهى تحسن وينكر إحسانها . »

« هناك فئة تطلق على نفسها اسم المبشرين . وهؤلاء يقولون إنهم جاءوا إلى مصر لينشروا فضائل الدين المسيحى بين مختلف الطبقات . قلنا : أهلا وسهلا فلكل دين فضائل . ونشر تلك الفضائل فضيلة مهما كانت الأحوال . فالدين الإسلامى يحض على الفضيلة ، وكذلك الدين المسيحى . فأنتم حين تنشرون فضائل دين معين إنما تنصرون الفضيلة من أحد وجوهها »

«فهل تدرى ماذا كانت فضائل المسيحية فى نظرهم ؟ كانت فى التغرير بالغير، واستعمال طرق الاحتيال لتنصير الناس . وهل أمرتكم المسيحية بذلك ؟ لا . وهل من قواعد الدين المسيحى أن يغرر بالصغار تغريرًا حقيرًا ليعتنقوه ؟ لا . وهل أمركم المسيح أن تتخذوا حبائل الغرام تنسجونها بسوء نية بين الناشئين والناشئات لكى يعتنقوا المسيحية ؟ لا . إذن أنتم لستم مبشرين تحثون الناس على التحلى بالفضيلة ، إنما أنتم مجرمون تتخذون الدين ذريعة لارتكاب المنكرات وأنتم تعلمون . »

« وأنتم لا أكثر من جواسيس للاستعمار أتيتم إلى هذه البلاد لا لنشر فضيلة دين معين ، بل لاتباع سياسة معينة موحى بها من جهات معينة. ومن نتائج هذه السياسة وقوع الخلاف بين المصريين ، والشقاق بين أبناء الأسرة الواحدة . »

إن هذه المقالات التى كتبها كتاب مسيحيون فى الرد على صحيفة مصر ، وفى تسفيه أعمال المبشرين تحمل ظواهر طيبة لم تكن معروفة قبل ثورة سنة ١٩١٩ . والحق إن هذه الثورة قد قلبت الاتجاهات السياسية للأدب القبطى رأساً على عقب . فبعد أن كان هذا الأدب يتجه إلى محاربة الدستور أصبح فى مقدمة المدافعين عن الدستور .

وبعد أن كان يتجه إلى إطراء الإنجليز والتسبيح بحمدهم ؛ أصبح فى طليعة

المبغضين لهم ، والحاقدين عليهم . وأصبح من أهدافه الدعوة إلى جهاد المحتلين وكفاح الاحتلال . قال نصر لوزا الأسيوطى من قصيدة طويلة فى الاحتفال بإحياء ذكرى سعد زغلول سنة ١٩٢٨ :

قم وانظر الدستور كيف تقوضت ... منه المعـــالم حائطاً ودعاما
شيدتَ بالمهج الغوالى سوره ... وتركته فوق السُّهَى يتسامَى
لما بعدتَ عن النواظر سرَّهم ... أن العرينة لن ترى الضرغاما
نقضوا عهودك فى هوى مصر ولم ... يرعَوْا يميناً للحِمَى وذِماما
كم حاولوا أن يرغموها عنوة ... لـكنها لم ترتض الإرغاما
هم أقسموا أن يحرسوا دستورهم ... حتى قَضَيْتَ فضيَّعوا الأقساما
هنيكِ فى جنات ربك أننا ... نسعى إلى استقلال مصر كراما
هيهات أن نخشى من الأقدار ما ... دام العَلِىُّ على الحمَى قوَّاما
من يستعن بالله ينصرْهُ ولو ... أضحى له كل الورى أخصاما
والحق مثل البدر حيناً يختفى ... ويعود بدراً للعيـــون تماما

* * *

ولما مات سعد زغلول سنة ١٩٢٧ بكاه شعراء الأقباط وكتابهم بكاء مراً حتى ليمكن أن يقال إنهم لم يبكوا على زعيم مسلم قط كما بكوا على سعد زغلول ، بل إنهم رفعوه إلى مراتب القديسين . قال نصر لوزا الأسيوطى من قصيدة طويلة :

يا سعد جاورت الإله بصفحةٍ ... تزهو بها من نورك الأسطارُ
عصماء ناصعة البياض نقية ... فى الخلد يتلو آيَها الأبرارُ

وانظر إليه حين يقول معزياً أم المصريين :

ودعا لكِ الرحمنَ فى صلواتهِ وتلا كَذِكْرَى مريم ذكراكِ
ذِكرى يفوح المسك من نفحاتها عبقت كما عبق الأريجُ الذاكى
إن المهابة والجلالة والهُدَى والجِدَّ والإقدامَ بعض حُلاكِ

ونحن نعرف مكانة السيدة « مريم » عند المسيحيين . فتشبيه ذكرى أم المصريين بذكرى السيدة مريم فيه تقديس كبير .

وانظر إليه حين يقول فى رثاء سعد :

فكأنما الله العَلِىُّ أمدَّهُ فى المعضلات بسرّه الروحانى
وكأنه فى كل قول مُلهَمٌ آياته . وَحْىٌ من الرحمنِ
فانزِلْ بجنَّات النعيم منازلا قدْسيَّة الرَّحَبات والأركان

وهذا منتهى التمجيد والتقديس ، وإنه لتعبير عن أصدق العواطف ، وأطيب المشاعر .

وقال قسطندى داود من قصيدة فى رثاء سعد :

ناضلتَ عنا ما ونت لك همة وحسامُ عزمك ما عراهُ فلولُ
قد كنت كوكبنا الذى بضيائه نحو الفلاح لنا استبان سبيلُ
قد كنت قائدنا الجرىء وهل لنا من بعد سعد قائدٌ ودليل ؟

وأصبح شعراء الأقباط وكتابهم بعد ثورة سنة ١٩١٩ يعبرون عن آمال البلاد وأمانيها ، ويفرحون لفرحها ، ويحزنون لحزنها . مثال ذلك قول فيليب عطا الله فى تمثال[1] « نهضة مصر » .

تمثال نهضة مصر زال ستارهُ فتلألأتْ لما بدا أنوارهُ

---

(١) البلاغ فى ٢٣ — ٥ — ١٩٢٨

ظهرت معانى وصفه فأتى كما ... بعد الجهاد اختاره مختارُهُ
من مهجة الشهداء ألف طينه ... ومن الدماء تركبت أحجارُهُ
هو كعبة الآمال أو محرابهــا ... حجت إلى أعتابه زوّارُهُ
انهض أبا الهول العظيم فرأسك الـ ... ـعالى استقر على النهوض قرارهُ
انهض وحدثنا عن الزمن الذى ... ولّى ولم يَعلق عليك غبارهُ
هيّـا أبا الهول انتصبْ متهاديا ... إن الزمان تغيرت أطوارُهُ
لا تحفلنّ بغاصب أو غاصب ... كفُّ الظلوم تقلمت أظفارهُ
حىّ المليك وخلّ رأسك عاليا ... فقد استقات بالمليك ديارُهُ

* * *

يا روح زغلول اظهرى وتفرجى ... وتَمجدى فالحق بان منارُه
زغلول أول من توقد قلبُه ... وإلى بلاد الغرب طار شرارُه
بجهاده شهدت له أعـداؤه ... عدلا كما شهدت له أنصارُه
ما البدر فى الإشراق إلا نوره ... والشمس فى الإحراق إلا نارُه
قد زار نهضة مصر يوم نهوضها ... بل عاش فى تمثالهـا تذكارُه
ما كان أعذبه لسانا عندما ... كانت تغص بزائريها دارُه
روح الإباء تجسدت فى شخصه ... وعن الرياء تنزهت أفـكارُه

الباب السابع

مجتمع الأقباط وأثره فى أدبهم

كان المسيحيون فيما مضى يعتبرون أنفسهم أمة قائمة بذاتها ، لها كيانها وشخصيتها ، وآمالها وأمانيها ، وأفراحها وأتراحها ، وأعيادها ومواسمها ، وتقاليدها وعاداتها . وقد ظلوا محتفظين بهذا الرأى إلى ما قبل سنة ١٩١٩ .

وألفوا كتبا كثيرة تتناول تاريخهم وتاريخ كنيستهم ، وتراجم عظمائهم . مثل « الأقباط فى القرن العشرين » لرمزى تادرس . و « تاريخ الأمة القبطية » ليعقوب نخلة رفيلة . و « نوابغ الأقباط ومشاهيرهم فى القرن التاسع عشر » لتوفيق إسكاروس . وألفوا كتبا كثيرة تتناول حياة شهدائهم وقديسيهم .

وأقاموا الجمعيات الخيرية ، والأندية الثقافية والملاجىء الخاصة بهم . وظهرت صحف ومجلات كثيرة دينية وأدبية تعالج الشئون القبطية .

وشرع كتابهم يحررون المقالات والفصول فى البحث عن أسباب تأخر الأمة القبطية . ويصفون ما انتابها من علل وأمراض اجتماعية ، وما فيها من عيوب ونقائص . ويشرحون خير الطرق لعلاج هذه الآفات .

فمن الموضوعات الاجتماعية التى كتب فيها أصحاب الرأى من المسيحيين موضوع « الزواج المتأخر » قال[1] رمزى تادرس :

« إذا شبهت هذا النوع من الزواج — يعنى الزواج المتأخر — بالمعول

(١) الأقباط فى القرن العشرين ج ١ ص ٦٢ — ٦٥

الذى يهدم كيان الأمة ويكثر التيتم ويضعف التناسل ، فإنى لا أكون مبالغا خصوصا إذا أضفت إليه قول مدير الإحصاء فى سنة ١٩٠٧ من أن النسبة المئوية لليتامى بين الأقباط أكبر منها بين المسلمين » .

وقد لوحظ أن ٣٠٪ من أولئك الأزواج يموتون عقب اقترانهم بسنوات قليلة ويتركون أيتاما يتعرضون إلى الشقاء والبؤس والفقر المدقع . قال زمزى[1] تادرس : « من منا لم يروعه منظر أطفال صغار يجوبون مع أمهاتهم الطرقات والمنازل طلبا للكفاف بعد أن كانوا فى سعة ؟ من منا لم يسمع بأن الفقر دفع يتيما إلى الإجرام وساقه إلى الجريمة ؟ بل من منا لم ير أطفالا كانوا متوقدين ذكاء فحولهم اليتم إلى جمود وعقم ؟ فشبوا جهلة فاسدين تنحط بوجودهم الأمة التى تلعنهم فيلعنونها ، لأنها هى الجانية عليهم . »

« إن الملاجئ الخيرية لو فتحت ، والإحسانات لو توالت لتحسين حال اليتامى لا تكفى لتجفيف دموعهم ، وإخماد شجونهم ، بل تذكرهم بالشقاء الذى هم فيه يهيمون ، فتصغر نفوسهم ، وتضعف مواهبهم . ولكن الذى يرفع هذه التعاسة هو العدول عن الزواج المتأخر ؛ هو تمنع الآباء عن تزويج بناتهم بالمسنين ليخففوا الويل عن اليتامى والمذلة عن الأرامل . »

وكتب قبطى آخر[2] مقالا بصحيفة الوطن سنة ١٩٠٩ تحت عنوان : « خطر يهدد الأقباط » جاء فيه :

« وأما الزواج فأرى إحجاماً كبيراً عنه ، ولكن مهلا أيها الشباب القادر على الزواج ولم تتزوج . إنك تخالف وصايا إلهك القائل فى كتابه المقدس : « لا تزن »

---

(١) الأقباط فى القرن العشرين ج ١ ص ٦٣ — ٦٥
(٢) الوطن فى ١٩٠٩/٩/٨

« إنك تجنى على أمتك شر جناية ؛ وهى انقراضها من الوجود . إنك بهذه الحالة لا تعد مخلصاً لها ، ولا تستحق أن تنتسب إليها لأنك لا تعمل على نموها وازدهارها ولا تجتهد فى إكثار عددها . »

« فإذا أردت أيها الشباب أن تبرهن برهانا حسيا بأنك مخلص محب لأمتك فعجل بالزواج ، وقدم لها أبناء يذودون عن حوضها و يدفعونها عند الملمات . »

« ومن رأيى أن تؤسس جمعيات بكافة أنحاء القطر يكون غرضها الوحيد وشغلها الشاغل الحث على الزواج ، وتذليل الصعوبات التى تعترض الفقراء وتمنعهم منه ، كما تساعد الفقيرات فى الزواج . »

« وجدير بالأغنياء أن يساعدوا مثل هذه الجمعيات التى تزوج البنات الفقيرات اللواتى لا يقدم عليهن أحد إلا عند علمه بمساعدة مالية من الجمعية . فعليكم أيها الأغنياء بذل يد السخاء فى تزويج الفقيرات والفقراء ، وصرف بعض من عنايتكم لهذا العمل حتى يأتى الوقت الذى يكثر فيه النسل . »

فكثرة عدد الأيتام عند الأقباط جعلتهم فى حاجة ماسة إلى الإكثار من إنشاء الملاجىء التى تعنى بتربية هؤلاء الأيتام من بنين و بنات ، وتخفف عنهم آلامهم . وجعلتهم فى حاجة ماسة إلى إنشاء الجمعيات الخيرية التى تمد يد المساعدة للنسوة المترملات . وإلى المشاغل التى يتعلم فيها الأيتام بعض الصناعات الخفيفة التى تمكنهم من كسب قوتهم . وجعلتهم يقدرون الإحسان والمحسنين . فإذا مات عظيم من عظمائهم الأغنياء المعروفين بالبذل والسخاء بكوا عليه بكاء مراً ، واعتبروا موته خسارة لحقت المجتمع القبطى ، فلبسوا عليه ثياب الحداد ، ورثاه

شعراؤهم وخطباؤهم رثاء حاراً . ونوهوا بفضائله ومناقبه ، وبره وإحسانه، وعطفه وحنانه .

ولما كان الأنبا كيرلس الرابع قد أدى إلى أبناء طائفته خدمات كبرى فقد ظلوا يحتفلون بذكراه أكثر من نصف قرن . وألفوا فى تاريخه الكتب ، ودبجوا فى مناقبه المقالات ، ونظموا القصائد . فمن ذلك قول إسكندر قزمان فى الاحتفال بمرور خمسين عاما على البطرك المذكور فى ١٩١٢/١/٣٠ :

خمسون قد مرّت وفضلك مُدّ كَرْ ... ويدوم ذكر الفضل مادامَ القمرْ
ولئن غدت منك الحياة قصيرة ... فبنفعها طالت على رغم القصَرْ
لو لم تخاطر فى شبابك لابتغا ... ء رقى شعبك كنت أعمر من عُمرْ
ولئن أصبت المال مختزنا وفيـ ... ـلَ بذلتَه لم تبقِ منه ولم تَذَرْ
ودعوته صنما وقلتَ أهُدُّهُ ... كى يُزدَرَى من عابديه ويُحتقرْ
وأثار هذا سخط بعضهم وقد ... عدوه ذنبا فى الورى لا يغتفرْ
فاليوم طراً أدركوا أن الذى ... حسبوه سيئة بمثلك يفتخرْ
أثنوا على بذلٍ به عوضتهم ... عما يزول بما يدوم ويدَّخرْ
شدتَ المدارس حينما كان الورى ... عن ظلها ينأوْن مع كل الحذرْ
ولها استملت قلوب قومك دائبا ... حتى غدت حَرَما يُحَجُّ ويعتمرْ

٭ ٭ ٭

قالوا سموْتَ بحبهم نحو العلا ... لتقيمهم منها مقاما يعتبرْ
فكرعت فى هذا السبيل تطوعا ... كأس الحمام ورحت لم تبلغ وطرْ
أخلق به حمداً يريح ثراك بل ... يحدو مطايا العزم من أهل الفكرْ

هـذا سميك ذو الرياسة شـاهد ... لك لم يفه فى العمر عنك بقول شرْ
لـكليكما بِرٌّ به يمتاز ، لا ... ندرى إذا قسـناه أيكما أبَرْ
تدعى أبا الإصلاح وهو أبا الصلا ... ح ، بك الرقى وفى المعاد به الظفرْ
ولئن أتيت أفيك حقك بعدما ... وخط المشيب وخفت يفجأنى السفرْ
فلقد صبرت على أحرّ مِنَ اللَّظَى ... ولعل صبرىَ بالقضاء و بالقـدرْ
فاصفح بفضلك عن قصورى سيما ... أنى نثرت الدمع مع هذى الفِقَرْ

وهذه القصيدة جيدة الأسلوب ، متينة التركيب ، رائعة المعانى ، محكمة المبانى .

وقال إبراهيم حنا عطايا من قصيدة طويلة :

يا داعىَ الفضل تحيى ذكر بطركنا ... لبيك من قلبنا تُهْدى التحيات
قمنا لإحياء ذكرى ريس بطل ... قـد خلدته الأيادى والمبرّات
شـعورنا قد أضاءت منه أفئـدة ... وعزمنا لألأت منه الثريات
هذا كرلس فى الترتيب رابعهم ... لكـنه علم حفّته رايات
تقاصرت عن معاليه الدهور كما ... تقاصرت عن كمال الفضل سادات
سما على الخلق فاستقوْا مواهبه ... لا غرو أن سقت الأرضَ السموات
لا تطلبنّ من الأيام مشبهَهُ ... ففى طلابك للأيام إعنات
طالع مآثره واقرأ نفائسه ... تلق الإفادات تتلوها الإفادات
بنى كنيستنا الكبرى ومدرسة ... أيامَ عزّت رجال والبنايات
كم ذاد عن شعبه من جور محتكم ... وبدَّدَ الظلم فانجابت محاباة
يا رحمة الله وافيـه مثلثة ... فإنه خير حـبر فى الأُلى ماتوا
ألخ . . .

وسبق أن رأينا كيف بكى أدباء الأقباط على بطرس غالى بكاء مراً ، وكيف نظموا ونثروا فى رثائه القصائد والمقالات والخطب .

وقال بسطا بشاى يرثى جرجس بك حنين مدير الأموال المقررة فى ٢٤/٦/١٩١١ من قصيدة طويلة :

رب المآثر ما أقالك عثرة عادى الحمام ، وكم أقلت عثارا
أعزز علينا أن يناهضك الردى وتدير عينك لا ترى أنصارا
لو يقبل الموت الفداء لبادرت لفـــداك منا أنفس تتبارى
خسرتك مصر فعم رزؤك أهلها من مسلمين تألموا ونصارى
تبكيك أمتك التى أكسبتها بين البرية بالنبوغ فخارا
لو تستطيع جزاء ذاك وخيرت عند ارتحالك قدمت أعمارا
كانت لها الآمال فيك كبيرة ولقد قضيت وما قضت أوطارا

ألخ . . .

وقال فرنسيس العتر يرثى يوسف سليمان باشا سنة ١٩٣٩ .

ولى فألبسنا الأسى من بعده ولى ففاض الجفن دمعا أحمرا
أبكى بعاصمة البلاد كنائسا قد كان فيها حارسا ومدبرا
من لليتامى والأيامى ؟ من ترى يجلوا الدجى و يصد خطبا قد عرا
ذى بيعة العذراء تبكى فخرها تبكى الذى فى الحق كان غضنفرا
وكنائس القديس مرقس كلها تبكى الذى وزن الرجال وقدرا
أطفالنا ونساؤنا ورجالنا يبكون إحسانا وعطفا أوفرا

ألخ . . .

* * *

ومن الطبيعى أن يمدح شعراء المسيحيين وكتابهم المحسنين ويطرونهم ، ويشيدون بكرمهم وسخائهم ، كما أنهم عرضوا بالبخلاء ، والذين ينفقون أموالهم إشباعا لشهواتهم وما يجلب لهم اللذة كالخمر والنساء ؛ متجاهلين الفقراء من أبناء دينهم ، وكان الشعراء يستدرون عطف المحسنين بشرح أحوال الفقراء وما يلاقونه من قسوة الحياة ؛ وما عليه من جوع وعرى ، وما يجرى على خدودهم من دموع . ويدعون الأغنياء إلى التخفيف من آلام هؤلاء البؤساء ، ويذكرونهم بثواب الله ونعيمه الذى أعده للمحسنين . وعقابه الذى ينزله بالبخلاء الذين كدسوا أموالهم واتخذوها أصناما يعبدونها من دون الله .

ويذكرون أن هؤلاء البخلاء سيموتون ويتركون أموالهم ، لم ينتفعوا بها فى الدنيا ولا فى الآخرة . ويقولون إن الأعمال الصالحة هى التى يجب أن يدخرها المرء لينتفع بها فى الحياة الأبدية . وأفضل هذه الأعمال الإحسان إلى المحتاجين .

وقد مر بنا شعر كثير يحمل بين طياته الأهداف المتقدمة ..

* * *

ومن المشاكل الاجتماعية التى بحثها المفكرون المسيحيون ، وأكثروا فيها القول مشكلة نشر التعليم بين أبناء طائفتهم بحيث يكون لهم التفوق فى النسبة العددية حتى تتم لهم السيطرة على مرافق البلاد الحيوية . قال رمزى تادرس [١] :

« إذا قارنا نسبة الزيادة بين المنصرين فى خلال الأربع سنوات الأخيرة باعتبار ذات الزيادة المتواصلة بين عدد المتعلمين لعادلت نسبة الأقباط خمسة أسباع عدد المتعلمين . وبفرض حصول الزيادة بين المتعلمين على النسبة المتقدمة نرى حالا أن عدد المتعلمين منا سيصبح بعد

(١) الأقباط فى القرن العشرين ٢٩/١

عشر سنوات ، أى فى سنة ١٩٢٠ خمسة أتساع مجموع المتعلمين . وهنا يجب الالتفات إلى أن عدد المتعلمين من إخواننا — يعنى المسلمين — آخذ فى النمو والازدياد كلما تخطوا رقاب الأعوام »

« وسيكون من شأنه بالرغم عن عدم توقف سير الزيادة المطردة بيننا تقليل نسبتنا إلى ما هو دون النصف . وهذا لو حصل لأخل سير الموازنة الطبيعية الحاضرة ، واستدعى من باب الحيطة أن ندأب من الآن على ترقية التعليم وجعله إلزاميا ومجانيا فى مدارسنا لتبقى نسبتنا حافظة دواما لمكانتها » .

« والأمر الثانى الذى يسترعى الأنظار هو أن إحصائية المتعلمين فى المدارس العالية تدل على أن نسبتنا أقل بكثير من نسبة إخواننا — يعنى المسلمين — بل آخذة أيضاً فى التناقص من سنة إلى أخرى . فإنها بعد أن كانت تعادل فى سنة ١٩٠٦ نحو النصف ؛ تناقصت فى هذا العام — ١٩١٠ — إلى جزء من خمسة أجزاء من مجموع المتعلمين ، وستعادل فى سنة ١٩٢٠ على هذا القياس. جزءا من عشرة أجزاء »

« وهذا التقدير التقريبى الذى لا يتناول طبعا الستمائة طالب الذين يتعلمون من إخواننا فى كليات أوربا ؛ يدل على أن افتقارنا إلى التعليم العالى أشد من افتقارنا إلى التعليم الإعدادى بكثير . ويؤيد رأى الذين ذهبوا إلى أن عنصرنا لا يزال بعيداً عن بلوغ المنزلة التى يستطيع بها المنافسة مع إخواننا — أى المسلمين — أو الدخول معهم مداخل التنازع والتسابق فى ميدان الحياة العملية حفظا للتكافؤ ، واستبقاء للوجود الذاتى » .

« ومع ذلك أترانا التفتنا حوالينا ونظرنا إلى هذه الحركة العلمية ؟ كلا ! إنا لم نلتفت ولكننا شعرنا شعورا ذاتيا بعدم ضمانة مستقبلنا أمام تلك النهضة

العالية التى أخذت تتسع وتنتشر فى صفوف إخواننا — يعنى المسلمين — حتى أوجدت جيلا راقيا منهم . ولا حاجة بى إلى ذكر ما آل وسيؤول إليه أمرنا قبل و بعد هذه الحركة العظيمة ، إنما غاية ما يمكن ذكره هو أن نستبدل السكون بالحركة ، والقعود بالسعى المتواصل لكى نسير و إياهم جنبا إلى جنب فى إنجاح البلاد ، و إسعاد العباد ، ولكى لا يتفوق عددهم على عددنا » .

« ولقد يحسن بنا ـ والحالة هذه ـ أن نتساءل أو نسأل أنفسنا : ما هى النتيجة إذا استمر إخواننا يعززون قوميتهم بالتعاليم العالية ، و بتخريج الاختصاصيين فى كل علم وفن ؟ لا نتيجة سوى أن ننحل ونفقد وجودنا ونسقط فى الهاوية التى أعدت لأمثالنا من الخاملين » .

فبهذا الإحساس اندفع أدباء المسيحيين إلى نظم القصائد وتدبيج الخطب ، وتنميق المقالات فى الدعوة إلى العلم والتعليم . كان غرضهم التفوق على المسلمين والتغلب عليهم . وكانوا يرون فى انتشار التعليم بين المسلمين خطراً يهدد كيانهم ، ويؤذن بزوالهم . وقد أثبتت الأيام خطأ هذا الاعتقاد وفساده . فمدارس الحكومة مفتوحة أمام المصريين أجمعين ، وكذلك الجامعات ، والعبرة بالمجموع الذى يحصل عليه الطالب دون نظر إلى الدين .

* * *

ولما كان الطلاق من الأمور المتعذرة عند الأقباط ؛ فقد اهتم مفكروهم ببحث أسباب النزاع بين الرجل وامرأته . و رأوا أن من أهم أسبابه جهل المرأة . قال رمزى تادرس[1] :

« على أنه لو أنصتنا إلى العائلة القبطية فى مجتمعاتها الخصوصية لسمعنا صوت الشقاء يصرخ بين أفرادها ، والتعاسة موجودة بينهم بكثرة لا يدركها العقل .

---

(١) الأقباط فى القرن العشرين ١/٤٩

موجودة بين الزوج وزوجته ، و بين الأخ وأخته ، و بين الأم وأولادها ، لأن المرأة القبطية جاهلة . »

وقد قام الشعراء المسيحيون فى الدعوة إلى تعليم الفتاة بواجبهم خير قيام . فنظموا القصائد الطويلة فى بيان مزايا الأم المتعلمة ، ومضار الأم الجاهلة . ورأوا أن الفتاة المتعلمة أسرع زواجاً من الجاهلة . وعلى ذلك فتعليم البنت يساعد على حل أزمة الزواج عندهم ، وبذلك يزداد عددهم وتتسع دائرة نشاطهم ، ويمكنهم الوقوف فى وجه الأغلبية الإسلامية . قال نصر لوزا :

العلم فرض على الجنس اللطيف كما ... قد صار فرضاً على شباننا النُّجُبِ
الأم تحتاج علماً يستضىء به ... أبناؤها مثلما يحتاج خير أبِ
ربوا الفتاة ترَوْا أمًّا مؤدبة ... تعلم الطفل ما يحلو من الكتب
البنت إن هُذبت صارت لنا ملَكا ... يجثو لها كلُّ مخلوق على الرُّكَبِ
البنت ريحانة والعلم زخرفها ... إذا هى ارتشفت من مائه العَذِبِ
فتاتنا اليوم أم للرجال غدا ... فهذبوها تنالوا منتهى الأرَبِ
لا خير فى امرأة فى البيت جاهلة ... ولو غدت من بنات العز والحسب

* * *

لى صاحب طالما ألفيته عجبا ... يبغى الزواج بذات المال والنَّسَبِ
لا يبتغى زوجة بالعلم راقية ... بل يبتغيها فتاة جمة النشبِ
ما زال مجتهداً فى نيل بُغيته ... إلا وأجذله المقدور بالطلب
أعطى له امرأة من أهلها ورثت ... جزءاً من الأرض مع جزء من الذهبِ
لكنما عقلها بالجهل ممتلىء ... فلا تميز بين الدر والخشبِ
حتى إذا ما مضى من عرسها سنة ... وعيشة الزوج لم تهنأ ولم تطبِ

تــكدر الزوج من جهل بزوجته ❊ وبات يحسد دوماً عيشة العزبِ
فلم تطل مــــــدة إلا وطلقها ❊ وليس من علّةٍ فيها ولا سببِ
هذى مغبة من يبغى قرينته ❊ من ربة المال لا من ربة الأدبِ
البنت غصن رطيب فى حدائقها ❊ تلين إن قُوِّمت عفواً بلا تعبِ

ولم يحدث بين المسيحيين اختلاف حول وجوب تعليم الفتاة كما حدث بين المسلمين ، وذلك لأنهم كما ذكرنا كانوا مهتمين بتدعيم كيان العائلة ، ورأوا فى تعليم الفتاة مايدعم هذا الـكيان ، ويزيل أسباب الشحناء .

* * *

وقد دعا كتاب المسيحيين إلى تحرير المرأة من الحجاب ، وقالوا إن المرأة القبطية لم تـكن تعرف الحجاب ، وإنما الذى فرضه عليها هو أحمد بن طولون . وذكروا أن الحـكم الإسلامى كان السبب فى تأخر المرأة القبطية وتخلفها عن نساء العالم . وأن الدين المسيحى نهى عن الحجاب، وعن تغطية وجه المرأة بالبرقع، وعن لف جسمها بالحبرة أو الإزار . وقالوا إن المرأة القبطية طبعت على العفة والطهارة ، وأن هذه الصفات طبيعية فيها منذ عصور الوثنية . وكانوا يوازنون دائماً بين بنات الفرنجة وهن مسيحيات ، وبنات الأقباط اللاتى يشاركنهن فى العقيدة ، ومع ذلك فالفرق بينهن عظيم . قال نصر لوزا :

تُضيِّع بنتُ الغرب فى الدأب وقتها ❊ وذى بنت مصر وقتها ضائع سُدَى
فأولاهما لا تعرف الضيمَ نفسُها ❊ وأخراهما لا تنثنى خشــية الردى
تضيق على الأولى البلاد فتمتطى ❊ إلى غيرها الأهوال لا ترهب العِدَى
وترحب للأُخرى فتختار دونها ❊ من البيت سجناً فى الحياة مؤبدا

وما الذنب ذنب البنت فى مصر إنما   أبوها جنى لما لم يكن متعمدا
يغار عليها إن أطلّت من الحمى   لكى تلتقى من رؤية البدر مشهدا
يكاد إذا صلّت إلى الله ربها   يغار فيبقى قربها مترصدا
الخ ..

* * *

وتناول بعض الكتاب سوء الحالة الصحية بين شباب الأقباط تحت عنوان « خطر يهدد الأقباط » مما قاله :

« ضعف فى الصحة ، وذلك ناشىء من سوء الغذاء ، وعدم استعمال الألعاب الرياضية . ولست أعلم سبباً لهروب التلاميذ الأقباط من الألعاب الرياضية حتى ليندر وجود أقباط بين لاعبى الألعاب الرياضية فى مدارس الحكومة مع كثرة عددهم . »

وكتب آخر تحت العنوان المتقدم :

« إن مسألة عدم اهتمام أبناء الأقباط بالألعاب الرياضية يعرضهم لأمراض فتاكة تجعلهم فى خطر ، وتقصف أعمارهم وهم فى مقتبل الشباب . وإنى آسف — واسم الحق — عندما أنظر إلى الشباب القبطى فأجده آية فى الذكاء ولكن إما أن يكون مصفر الوجه ، أو نحيل الجسم ، أو منحنى الظهر ، أو مضعضع البصر . وذلك على ما أرى من كثرة انكبابه على الدرس والمطالعة ، وعدم تخصيص وقت للرياضة ولعب الجمباز » .

فكانت هذه الحالة من أسباب اهتمام الأقباط بإنشاء المصحات الخيرية التى تتولى علاج فقرائها بالمجان ، وإنشاء المستشفيات كالمستشفى القبطى ، ومستشفى جمعية التوفيق القبطية وغيرهما .

ويزعم بعض المسيحيين أنهم توارثوا عن أسلافهم علوم الطب وطرق علاج بعض الأمراض بحيث لا يستطيع أحد أن يناقسهم فيها . قال جندى إبراهيم من قصيدة فى رثاء المعلم « برسوم المجبر » :

توراث القبط عن أسلافهم حِكَماً   خُصَّ اللبيب بها إذ غاب أغرارُ
فكان برسومنا مستودعاً حسناً   للسر إذ خشعت للوحى أبصارُ
كم من كسير أضاع الطب حيلته   وكم عليه سطا فظ وجبّارُ
يبتز أمواله مَبْدأً ومُخْتَتَماً   وهل يُجِيزُ الفتى فأس ومنشار ؟
يغدو الكسير طريحاً لا يرى فرجاً   إلاّكَ يا نابغاً فينا فيختار
والمنهل العذب جذاب لذى ظمإ   والشهد حلو لذيذ الطعم يشتار
حتى الطبيب الأمين اختصه ثقة   وما تشبه بالقوم الألى غاروا

الخ . .

وأما مطلع القصيدة فهو :

مات المجبر والتجبير أسرار . أعيت أطباء هذا العصر فاحتاروا

فالشاعر يقول إن التجبير من الأسرار الطبية التى ورثها المسيحيون عن آبائهم وأجدادهم ، وأنهم متفوقون فى هذ النوع من العلاج الذى لا يستطيع الطب الحديث أن ينهض به .

وإلى هنا ينتهى الكلام على أهم نواحى مجتمع الأقباط وأثره فى أدبهم .

الباب الثامن

الحب الإلهى وأثره فى الأدب القبطى

يصف المسيحيون الله بأنه أبوهم الذى فى السموات . فالعلاقة التى تربطهم بالله هى العلاقة التى تربط الولد بوالده ، وهى تقوم على الحب المتبادل بين الطرفين . فهم يحبون الله حبا جما لأنه أبوهم الذى يخصهم ببره وعطفه ، وكرمه وإحسانه . ويقولون إن الخطيئة التى ارتكبها آدم حين أكل من الشجرة المحرمة ، والتى استوجبت طرده من الجنة ؛ ظلت عالقة بأبنائه ، فأراد الله أن يزيل عن كاهل البشر وزر هذه الخطيئة فأرسل ابنه الحبيب عيسى ابن مريم ليدعو الناس إلى الإيمان بالله ، والدخول فى طاعته . وليهديهم إلى طريق الخلاص من هذه المعصية التى اقترفها أبوهم آدم . ولذلك يصفون المسيح بأنه المخلص . ويقولون إن المسيح تقبل الصلب ليفتدى العالم بنفسه ، وليكون دمه المسفوك مطهرا للجنس البشرى ، ولهذا يدعونه بالفادى الحبيب .

واتخذوا الصليب شعارا لهم يرسمونه على أذرعتهم ، ويعلقونه فوق صدورهم ، وفى داخل كنائسهم وخارجها . وينظمون الأناشيد والتراتيل والقصائد التى يتغنون بها فى صلاتهم تقديسا للصليب ، وتمجيدا فى المسيح ، وفى أمه مريم العذراء البتول . مثال ذلك قول رفائيل نخلة تحت عنوان « ملكة السماء والأرض »

فتنتْ فؤادَ الله حين رآها ... فاقت خلائقه بفرط تقاها

قد عم آدمَ والسلالةَ سخطُه ... فافترَّ عن حلم لدى مرآها

قد بُشِّرَت بقدومها لخلاصنا ... حواء فى الفردوس بعد غواها

عذراء قد حبلت بقوة ربها   وهبت حياة للذى أحياها
أمٌّ الإله ، أيا ملائكة اذهلوا   قد كونت مولاكمُ بحشاها
منذ الولادة شوّهتنا وصمة   ما ناب مريم عارُها وأذاها
الأرض قبلك يانقية عاطل   وبك اسْتَبَتْ ربٌّ الجمال حُلاها
للأرض أنتِ وللسماء مليكة   عقلُ النوابغ فى جلالك تاها
الخ . . .

وقال مناجياً الصليب تحت عنوان « ياصليب الرب »

ياصليبَ الرب ، يا أسمى خطيبْ   مرشداً نفسى الضَّلولَ الخاطيهْ
مذ طلى عودَكَ فادِىٌّ الحبيبْ   بقطار من جروح داميهْ
باسطاً كفَّيه فى حبٍّ عجيبْ   لجماهير الشعوب الغاويهْ
والفؤاد انحل من فرط الوجيبْ   فى هـواه للنفوس الغاليهْ
لم أجد مثلك وَعَّاظاً يصيب   بسهام اللوم روحى القاسيَهْ
ياصليب الرب ، يا أسمى خطيبْ

وقال نصر لوزا من قصيدة عنوانها « آية الصليب » :

صليبَ العار صرت لنا فخارا   نلوذ بظلِّه نحن النصارى
فإن خشبياً تكن فلأنت تحوى   معانى تزدرى الذهب النُّضارا
كبار البأس والجبروت ليسوا   أمامَك خُشَّعاً إلا صغارا
ملوك الأرض تلبسك اعتزازا   فتلبس فوق تاج الفار غارا
بيوت الله قد شيدت صروحا   وكنت الركن فيها والجدارا
يراك بأفقها السارى فيعنو   خشوعاً للمخلِّص وادَّكارا
تؤذِّن للصلاة بغير صوت   لناظرها فتنعشه وقارا

كأنك فوقها ملك كريم　　من الفادى يصون لها الذِّمارا
كأنك للعنـاية دَيْدَبانٌ　　عليها الليل يسهر والنهارا
شققتَ لنا طريق النصر بينا　　حجاب الهيكل انشق اندحارا
وحررت النفوس فِدًى وكانت　　يد الشيطان ترهقها إسارا
تلاقى كالخليل النارَ بردا　　فليس تضيرك الأحداث نارا

الخ . . .

وهكذا شخص الشاعر الصليب وأخذ يخاطبه ، ويخلع عليه من الصفات ماشاء ، فهو ملك كريم يدفع الأذى والضرر عن الناس . وهو حارس قوى ينهض بواجبه فى الحراسة ليل نهار ، لايغفل ولا ينام ، وهو الذى تعتز به الملوك وتضعه فوق تيجانها .

وقال نصر لوزا من قصيدة فى الحب الإلهى :

إنْ رابنا الدهر لانجزع لريبته　　ولا نبث لغير الله شكوانا[1]
ونحمل الخطب يوهى المرهَقين به　　تحت الصليب أُباة الضيم شجعانا
تشدو البلابل من أفواهنا وعلى　　قلوبنا تنعب الأحداث غِربانا
تزكو الرياض بعَرْفٍ من قرائحنا　　وفى الجوانح يزكو الشوق نيرانا
وإنْ مفارقنا شابت فإنّ لنا　　عزائما تنهضُ النُّوّام شبانا
إن شدة عرضت فادع المسيح لها　　كم شدة بهداه غربُها لانا
من باع أخراه بالأولى فصفقته　　باءت عواقبها غبنا وخسرانا

---

(١) إن رابنا الدهر : إن أصابنا وقسا علينا ·　(٢) يوهى : يضعف : المرهق : المثقل تعب والألم :　(٣) غربها : حدتها وقسوتها .

يا للمخلص غفاراً ومنتقماً فلاقه غافراً واحذره ديانا
من لا يحب المسيح الناصرىّ فما تعد منه مسيحياً ونصرانا

والحق إن هذه الأبيات قد استكملت جميع العناصر الفنية للشعر الممتاز ، واستوعبت دعائم الإجادة التى ينهض عليها الإبداع الفنى .

* * *

وقد اتخذ أدباء النصارى الأدب وسيلة للوعظ والإرشاد ، والدعوة إلى التمسك بمكارم الأخلاق التى تقرب الإنسان من الله ، وتجلب له المحبة الإلهية ، وتدخله — على حد تعبيرهم — فى ملكوت الرب تقدس اسمه ، وتمجد فى سمائه . وكذلك اتخذوه وسيلة للدعوة إلى التأمل فى الكون ، والتطلع إلى آثار ماصنع المليك ، وما أبدع من الكائنات التى تشهد بوجوده ، وتنطق بقدرته . مثال ذلك قول نصر لوزا من قصيدة تحت عنوان « العلم والبلاد »

العمر يمضى كالخيال وينقضى وتدوم بَعداً صفحة الأعمار
فتمكنوا ياقوم من تخليدها بالصالحات وطيِّب الأفكارِ
هذى حياة الخلق سائرة على قدمين من ليل الدُّجى ونهارِ
فالحر من لم يغترر بنعيمها فنعيمها كدَرٌ من الأكدارِ
الكون سفر علومنا وسطورُه من روضِهِ وجباله وبحارِ
فتأملوا فى ذى السطور فإنها لَسطورُ سِفرِ الواحد القهارِ
الشمس تخبر عن بديع فعالهِ بجميل ما تبدى من الأنوارِ
والبحر والبَرُّ العظيم وما حوى حتى الطيوز وهُنَّ فى الأوكارِ
الكلُّ قائلة بصوت واحد الله أكبر ذاك خلق البارى

وهذا شعر جيد تغذيه عاطفة دينية ونفحة روحية . وقوله « الواحد القهار »

لا يتنافى مع العقيدة المسيحية ، فالله عندهم واحد فى ذاته ، مثلث فى صفاته .

* * *

وقال إسكندر قزمان فى تهذيب النفس وإصلاحها ، وتقويم الأخلاق والسمو بهـا :

وإذا الفـتى لم تعتدل آمالهُ … خال الهناء بذى الحياة مكمّلا
ومتى تفاجئْه الحوادث ينهزمْ … ولقد يظن بأعزل إن يفشلا
ولربمـــا بالراح عالج همّهُ … أو بالضلال إلى النجاح توَسلا
ولئن مضى العام القديم ولم يزل … يصليك من بَلْوَاهُ أحمى مُصْطَلَى
أفلا علاج يُسْتَطَبُّ به وهلْ … يرضَى المهيمنُ أن تضام وتُخذلا ؟
حاشا فأدواء الحياة لهـا مَرا … هِمُ وهْىَ أنجعُ ما ينال المُبْتَلى
للناس جهزها طبيب قادر … أضحى بتخفيف العنا متـكفلا
ما مدّ يمناه الـكريمة مشفقا … إلا شفت دَنِفاوحلّتْ معضِلا[1]
يهدى الأُساةَ إلى الوقاية والدَّوا … ءِ لأنه رب الملائك والملا[2]
يدعو إليه المتعَبين جميعهم … ليُقِرَّ مضطرباً وينجد مُثقلا
قد قال قِدما وهو أصدق قائل … لا يُخذلنَّ فتى علىَّ توكلا
فبحبل قوته اعتصم من قبل أن … تستقبل العام الجديد المقبلا
وعناك أدنى لو أممت رحابَه … مما تقـــدِّره وأيسر محملا
وإذا حبال الخير رقّت واغتدي … بالغش من عاملته مُتَسربلا[3]
وإذا نبا دهر وكاد لك العدى … وجفاك من تهوَى وذمَّك من قلا[4]

---

(١) الدنف : المريض . (٢) الملا : الناس . (٣) متسربلا : مرتدياً .
(٤) قلا : أبغض .

فاصبر ودع مولاك يُجرِى عدله ... أفلا تُنِيلُهُ مهلة كى يعدلا ؟
وتغاض عن هفوات من عاشرتهم ... كم مرتد بردائه بعد البِلَى
ولعل خيراً فى همومك كامن ... لولا همومك ما أتاك مجمَّلا
فاشكر كريماً قد أنالك من فِدا ... هُ ومن نداه ومن رضاه وأجزلا
واحفظ عفافك من شبابك تَلْقَهُ ... درّا لرأسك فى المشيب مُكَلِّلا

هكذا وقف الشاعر واعظاً ومرشدا يدعو إلى التمسك بالأخلاق الفاضلة التى تقوم عليها المجتمع الصالح . ويدعو إلى التسامح والإخاء ونبذ الأحقاد والضغائن ، وترك العداوة والخصومة ، ونشر روح المحبة والإخلاص والوفاء . وفى قوله « يدعو إليه المتعبين الخ . . » إشارة إلى ماورد فى العدد ٢٨ من الإصحاح الحادى عشر من إنجيل متى وهو « تعالوا إلى يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال وأنا أريحكم »

وتمتاز هذه القصيدة كغيرها من شعر إسكندر قزمان بجودة الأسلوب ، ومتانة التركيب ، وقوة العبارة ، وبراعة الإشارة . كما تمتاز بالقوة الروحية والعاطفة الإنسانية .

* * *

وقال ميخائيل منصور مشيراً إلى الرهبنة والتنسك ، واعتزال المجتمع والتفرغ للعبادة :

جعلوا الصحارى جنة واستوثقوا ... بالله لا بالمال والأعوانِ
فقضَوْا لُبانة ربهم إذ قوّضوا ... باسم المسيح عبادة الأوثانِ
وصليبه اتخذوه أصدق شارة ... حتى دعوهم عابدى الصلبانِ
وتبتّلوا متنسكين لوجهه ... متقرِّبين إليه بالقربانِ
ودعَوْا نفوساً للخلاص فكلهم ... راعٍ وحقل حصاده الثقلانِ

بِيَعٌ وأديار بمصر ونوبة مزدانة بالطُّهــر والرضوانِ
يا مصر شعبك بالمسيح مبارك يا منبت النساك والرهبانِ
ساروا وقد رفعوا بموكب نصره أعلام إنجيل على الحبشانِ
فغدت كنيسة مصر مقصد آمل تُرْتاد من عرب ومن رومانِ

* * *

وكثيراً ما نجد فى الأدب القبطى بهذا الباب صوراً إسلامية مثل : التلبية ، والاعتمار ، والطواف ، والحج ، والقبلة والإمام . كما نجد إشارات إلى آيات قرآنية . مثال ذلك قول كامل منصور فى حفلة تدشين كنيسة :

لاغرو إن لبَّيْتها وحججتها وعلى مناسكها وقفت جنانى

فالتلبية من الشعائر الإسلامية .

وقول إسكندر قزمان فى ذكرى كيرلس الرابع وفيه إشارة إلى ما بذله من جهد فى افتتاح المدرسة القبطية :

ولها استملتَ قلوب قومك دائباً حتى غدت حرماً يُحَجُّ ويُعْتَمَرْ

فالحرم والاعتمار؛ ومعناه زيارة الحرم الشريف ؛ من الشعائر الإسلامية .

وقوله :

أتلومنى أنى أنبتُ وقد غدا شرع المهيمن قبلتى وإمامى ؟

فالقبلة والإمام من الأمور الإسلامية .

وقال نصر لوزا :

فلمثلهم جعل الإله نعيمه من كل فاكهة بها زوجان
يدعوهم جبريل فيها قائلا قوموا ادخلوا بسلامة وأمان

وفى البيتين صور إسلامية فى وصف الجنة . فقوله « من كل فاكهة بها زوجان » فيه اقتباس لما جاء فى سورة الرحمن آية رقم ٥١ وهى « فيهما من كل فاكهة زوجان » وقوله « قوموا ادخلوا بسلامة وأمان » نظر فيه إلى آية ٤٥ من سورة الحجر وهى « ادخلوها بسلام آمنين » .

وقوله :

الدين أول شىء صان صاحبَه يا حبذا من بحبل الله يعتصمُ

فيه إشارة إلى آية ١٠٣ من سورة آل عمران وهى « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » .

* * *

وهناك شعراء أقباط أوردوا فى شعرهم معتقدات إسلامية مقرونة بالتعظيم والاحترام ، ونوهوا بذكر الشعائر الإسلامية متناسين معتقداتهم القبطية . فمن هؤلاء تادرس وهبى الذى يقول من قصيدة فى مدح الخديو عباس حلمى الثانى :

وحســـــبه أن مليك الورَى متبوعه ظلُّ الإلهِ الظليلْ

ومعناه أن السلطان عبد الحميد الذى هو أمير المؤمنين ، وخليفة المسلمين ، متبوع الخديو ؛ هو ظل الإله الذى ينتشر على الأرض فيظل أهلها ويسوسهم ، ويحكمهم نيابة عن الذات الإلهية . وهذا لا يتفق مع معتقدات المسيحيين .

وقال تادرس وهبى مهنئاً الخديو عباس بقدومه من الحج :

ولقد رددتَ الدين والدنيا إلى عهد الرشـيد وهاته الدولاتِ

وسعيتَ للحرم الشريف مؤدِّيا لله فرض الحج فى عرفاتِ

ودخلت مكة محرماً لله لا تبغى سوى مرضاته بالذاتِ

فتهللت أم القُرَى وسماؤها جادت على بطحائها بهباتِ

وأصبتَ أفئدة العُداة بما رمت ... يُمْنَى يمينِ عُلاكَ من جَمَراتِ

ثم انثنيتَ إلى زيارة روضة ... مطلولة بسحائب الرّحمات

ووقفت ثَمَّ مصلِّيا ومسلما ... ولثمت قبرا ضم خيرَ رُفاتِ

فلو أن شاعراً مسلما أراد أن يمدح الخديو فى هذه المناسبة لما جادت قريحته بأفضل من هذا الشعر . فلا شك فى أن تادرس وهبى قد تجاهل معتقداته تجاهلا تاما فى هذه القصيدة . وانظر إلى البيتين الأخيرين وما فيهما من مدح للنبى محمد عليه السلام . وانظر إلى إلمام الشاعر القبطى بمناسك الحج الإسلامية من السعى ، والطواف ، والإحرام ، ورمى الجمرات ، وزيارة الروضة النبوية ، وإيرادها فى عبارات تدل على عظيم احترامه لها .

وقال مهنئاً الخديو عباس بعيد الفطر ، وبنجاته من مؤامرة شبرا التى دبرت لاغتياله سنة ١٩١٢ :

مولاى عيد الفطر عاد مجدِّدا ... فاستقبل الآمال فيه مُسَدّدا

واردد إلى الإسلام سابق عهده ... حتى يتاحَ لك الفخار مؤيَّدا

خسرت تجارة شانئيك بأسرهم ... من بعد ما شَرَوُا الضلالة بالهدى

فكأنهم حَمّالةُ الحَطب التى ... آذت إمام القبلتين محمدا

وكأنما نَكَبُوا لِتُجزَى أجر ما ... أرضيت ربّك صائما مُتهجِّدا

وهذه الأبيات ليست فى حاجة إلى التعليق .

* * *

ومن شعراء الأقباط الذين تجاهلوا معتقداتهم الدينية عزيز بشاى ، ومن قوله تحت عنوان « سيرة الشريف الرضى » .

وإمارة للحج قد وُلِّيتَها ... والناس فى الدنيا بها بُشَراءُ

لما سمعتَ نداء ربك لم يضقْ كرم لديك وذمة ووفاء
وفّيْتَ للدين الحنيف فريضة يسعى بها الشرفاء والحُنفاء
وقضيت لله الحقوق وللتقى حقٌ عليك وحرمة وقضاء
وسعيتَ بالبيت الحرام مجللا سمحاً تطوف يحوطك السُّمَحاء
ومشيتَ بالإسلام والدنيا تُقىً والكائنات هداية وولاء
ولبستَ من حُلل الخشوع معى التقى حُللا عليها رونق وبهاء
أثنى عليك الدين والدنيا معا هل بعد ذلك فى الوجود ثناء ؟

ومنها :

يا يوم عاشوراء فيك تقوضت دُعُمٌ وكُدِّر بالنفوس صفاء
لما «الحسين» نَعوه قامت ضجة واهتزت الدنيا وغاض الماء
وبكته «فاطمة» وناح «المصطفى» فى قبره والسدرة العصماء
ونخرت بالإسلام لما وَطَّدَتْ بمحمد أركانه النُّصَراء
بيت النبوة أنتم أبناؤُه وتطيب من آبائها الأبناء
زكت الفروع وأورقت بأصولها فى بيتكم واخضرت الغبراء
لما نُعِيتَ دعاكَ جدك فى الثرى حتى التقى الخُلَصاء وَالشُّرَفاء
وطويتما والطهر فى بُرْديكما عبق يجوز عليكما وضَّاء
أقسمت أنى لم أكن متحزبا فى القول لا غرض ولا أهواء
إن قمت قبطيا لأمدح مسلماً شرفا وكم شرفت به الأسماء

وعلى الرغم من قبطيته التى أعلنها فى البيت الأخير إلا أن العواطف الدينية الإسلامية تجلت فى القصيدة كلها . وهو يقسم أنه فيما قاله من مدح للشريف الرضى ، وللمصطفى ولبيت النبوة ؛ لم يكن مدفوعا بدافع مصلحة ذاتية ولا منتظراً جزاء ولا شكورا ، وإنما كان مدفوعا بنوع من العاطفة والشعور العميق الممتلىء بالحب .

خاتمة

انتهينا الآن من دراستنا للأدب القبطي . ويمكننا أن نقول إن النصوص الأدبية التي صادفناها من بدء ظهور هذا الأدب على يد ابن بطريق إلى نهاية العصر العثماني كانت من الأدب الديني الذي يهدف إلى خدمة المعتقدات المسيحية بتمجيد الله وتقديسه ، والدعوة إلى التمسك بمكارم الأخلاق ، والتنويه بالأعياد القبطية .

ولما قامت النهضة المصرية اتسعت دائرة الأدب القبطي ، وتشعبت أغراضه، وتنوعت أهدافه داخل الإطار القبطي ، وفي حدود المصالح القبطية . فكانت مهمته الأولى خدمة أبناء الطائفة في شتى الميادين ، والعمل على بناء مجتمع قبطي ، قوي الدعائم ، متين القوائم .

وكانت الصحف اليومية القبطية مجالا واسعا لكتاب الأقباط وشعرائهم ومفكريهم ، فأكثروا من كتابة المقالات ، ونظم القصائد على نحو ما مر بنا . وقد كانت الفترة التي سبقت قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ غنية جداً بالأدب القبطي ، فزخرت بعدد وافر من شعراء القبط وكتابهم ، كما زخرت بعدد من دعاة الإصلاح القبطي .

* * *

وبعد ثورة سنة ١٩١٩ أخذت دائرة الأدب القبطي تضيق شيئاً فشيئاً . فاختفى الأدب السياسي القبطي الذي كان يهدف إلى مراعاة مصالح الطائفة ، والذي كان يدعو إلى دوام الاحتلال البريطاني . واتجه إلى الاندماج في الأدب السياسي العام بعد أن اتحدت الأغراض ، وتوحدت الاتجاهات .

وكذلك أخذت دعوة الشعراء والكتاب إلى إنشاء المدارس وتشجيع التعليم والحض على طلب العلم تفقد أهميتها بعد أن أقبل الناس من كل صوب على طلب العلم من تلقاء أنفسهم ، وبعد أن كثرت المدارس كثرة هائلة .

ولم يبق من الأدب القبطى إلا الأدب الدينى ، وتقترن به عادة الدعوة إلى البر بالفقراء والمحتاجين ، وذلك لأن الترغيب فى الإحسان ركن من أركان الأدب الدينى .

* * *

وكان الشعر القبطى الذى نظم فى القومية الفرعونية يستند إلى عاطفة القرابة وصلة الرحم التى تربط الأبناء بالآباء والأجداد . ولم يكن أمام الأقباط من تراث يفخرون به سوى التراث الفرعونى .

أما الشعراء المسلمون الذين تغنوا بالآثار الفرعونية فلم يحملوا بين جوانحهم تلك العواطف الحارة التى يحملها شعراء الأقباط ، وذلك لأن الأمجاد الإسلامية كانت تجذبهم إليها بقوة ، والتغنى بعظماء المسلمين كان مستوليا على عواطفهم . ولا يمكن أن يجمع الإنسان بين عاطفتين مختلفتين فى موضوع واحد : عاطفة فرعونية وعاطفة إسلامية . ويلاحظ أن اختلاف الأقباط عن أجدادهم من الناحية الدينية لم يؤثر فى شعورهم بصلة القرابة التى تربط بين الأبناء والآباء .

* * *

وإذا نظرنا إلى مراثى الأقباط لعظمائهم لاحظنا أن هذه المراثى تختلط دائما بالدموع ، وينبعث منها صوت البكاء والعويل ؛ لأن الأقباط أقلية ، وتعويض خسارتهم فى هذا العظيم قد يكون متعذراً ، فهم يجدون فيه عوناً

وحماية لهم ورعاية لمصالحهم . فبهذا الشعور يرثون عظماءهم ، وينوهون بخدماتهم التى أدوها لأبناء طائفتهم .

ويمتاز الأدب القبطى بوجه عام بجودة الأساليب ، ومتانة التراكيب . فهو أدب عربى مبين ، يستمد صوره وأساليبه من الأدب العربى ، ويقوم على الثقافة العربية ، ويتأثر أحيانا بالروح الإسلامية .

ويمتاز كذلك بصدق العواطف ، وتدفق المشاعر ، وتوقد الأحاسيس . فهو بعيد عن التكلف كل البعد ، إذ هو انعكاس لمشاعر الأقباط ، وتصوير لما تنطوى عليه جوانحهم من أفراح وأحزان وآمال .

بعض شعراء الأقباط

١

تادرس وهبى

١٨٦٠ — ١٩٣٤

ولد تادرس وهبى بحارة زويلة بمدينـة القاهرة عام ١٨٦٠ . وفى الخامسة من عمره التحق بمدرسة الأرمن بدروب الجنينة بحى الأزبكية فتلقى فيها مبادىء اللغة الفرنسية ودرس اللغة الأرمنية . وفى العـاشرة من عمره التحق بمدرسة الأقباط فتعلم فيها اللغتين العربية والإنجليزية . ثم تقدم للامتحان النهائى وكان يرأس لجنة الامتحان رفاعة رافع الطهطاوى . قالت صحيفة الوقائع المصرية بالعدد ٤٤٦ فى ٥ — ٣ — ١٨٧٢ « صار افتتاح الامتحان الذى ميز فيه تادس أفندى وهبى بين الأقران ، وأشير إليه فيه بالبنان . وكان امتحان هذا التلميذ فى اللغة العربية والمنطق والبيان ، واللغة الفرنساوية والإنجليزية ، والهندسة واللغة الطليانية فأحسن فى كل هذه الإجابة ، وظهرت عليه إشارات النجابة . « وكان رئيس لجنة الامتحان رفاعه رافع الطهطاوى ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس » .

وبعد أن أدى هذا الامتحان تعين مترجماً بقلم الترجمة بنظاره المعارف ، والتحق بالجامع الأزهر ليأخذ بحظ وافر من علوم اللغة العربية . فحفظ القرآن الـكريم ، ودرس علوم الحديث والفقه . ونشر مقالات وقصائد بمجلة روضة المدارس . ثم ترك خدمة الحـكومة واشتغل بالتدريس فى مدرسة الأقباط ثم عين ناظراً لها وبقى إلى ١٩١٦ حيث اعتزل العمل بتلك المدرسة .

وله مؤلفات كثيرة مطبوعة نذكر منها :

١ — التحفة الوهبية فى تقريب اللغة الفرنسية .

٢ — الأثر الجليل فى رثاء إسماعيل.

٣ — الأثر النفيس فى تاريخ بطرس الأكبر ومحاكمة الكسيس .

٤ — عنوان التوفيق فى قصة يوسف الصديق .

٥ — الخلاصة الذهبية فى اللغة العربية .

٦ — مرآة الظرف فى فن الصرف .

٧ — رواية تلياك .

٨ — كتاب فى اللغة القبطية .

* * *

وامتاز أسلوب تادرس وهبى بكثرة ما فيه من المحسنات اللفظية ولاسيما الاقتباس من القرآن الكريم . مثال ذلك قوله على لسان الكسيس [1] :

« ولقد تجاوزت حدود الأدب فى ميدان السيئات كَرًّا وفَرًّا . وأرهقنى كل ذى أرب من أولياء السوء طغيانًا وكفرا . فلو كنت أويت إلى ركن ركين لما وقفت اليوم موقف المرتاب ، ولما أوشكت أن أذبح بغير سكين ولكل أجل كتاب » .

« وهذه قرينتك التى جعلتها مناط آمالك ، وأعضاء أسرتك يتقلبون على

(١) الأثر النفيس ص٩٧ ط بولاق سنة ١٩٠٤

الجمر ، تقول فى ولدك ما قال مالك فى مضار الخمر . ولعمرى إنك لو علمت ما أتا فيه فى سرى ونجواى لأسيت فؤادى المكلوم ، ولأيقنت يامولاى بأن الكسيس مظلوم وأى مظلوم . ولسوف تكاشفك الأيام بكل سر مضمر فلا يبقى لك لسان صدق فى الآخرين . فيا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » .

وقال على لسان بطرس الأكبر « . . . ومن ثم تعلم أنى لو أبقيت عليه لكانت له فى ارتكاب السيئات اليد الطولى وإنى لفى شك منه مريب . فلا تؤاخذنى إن نبذت رجاءك فى هذه المسألة التى نسج فيها مع سواه من الأغبياء على أقبح منوال ، وإذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له وما لهم من دونه من وال »

* * *

وكان تادرس وهى فى مقدمة الكتاب الذين تغنوا بأمجاد الفراعنة . فمن ذلك قوله .

« إن لمصر فى التاريخ لشأنا دونه الفرقدان ، وفخراً يرويه عنها من أبناء الزمان قاص ودان . لأنها البقعة المباركة التى ضربت فيها سرادقات العمار ، والكعبة التى كان بها للطائفين اعتمار . ولكم يؤمها الآن حريص من العلماء على مشاهدة آثار القدماء فيتهيب أنى جاء تلقاء أبى الحجاج والهرمين تهيب جماعة الحجاج ساعة زيارة الحرمين » .

* * *

وقد نظم تادرس وهبى كثيراً من الأناشيد الدينية التى ظلت ترتل فى الكنائس مدة طويلة . ومن الأناشيد التى نظمها ليرتلها طلبة مدرسة الأقباط بمناسبة الذكرى الأولى لمقتل بطرس غالى سنة ١٩١١ :

إلام نحاولُ طول البقاءْ وتنشب فينا سهام المنون
فواحر قلباه حُمَّ القضاءْ وعم البلاء فأدمى العيونْ
بفقد الرئيس دفنا الفخارْ وكان لدينا المكين الأمين

* * *

فيارائيا هام فى كل واد نعَاء نعَاء الوزير الخطيرَ
ووال البكا من صميم الفؤاد فإن المصاب به مستطيرْ
وعج إن مررت بقبر الحبيب وسله . لماذا عراه الخفوتْ ؟
دعوناه ألفا فلم لا يجيب ؟ لقد طال منه زمان السكوت
على يوم نكبته قد مر عام به الويل قد عمنا والثبورْ
فيأيهذا الوزير الهمامْ أأرضتْكَ بعد القصور القبور ؟

* * *

أما والذى جر فينا الزمان لقد أزفت بعدك الآزفاتْ
فأنَّى يُرَجّى المريد الأمانْ ومن عاش مات ومن مات فات
بك استأثر الله رب الجلالْ وما من مَرَدٍّ لما قد أرادْ
وقد كنت فينا أبر الفعالْ لأنك جاهدت خير الجهادْ
أمد عليك ظلال الجنان إله كريم رءوف رحيم
ولا زال فضلك فى كل آنْ يذكرنا بالفقيد العظيم

* * *

وقال فى الذكرى السنوية الأولى لوفاة بطرس غالى سنة ١٩١١ :

من مجيرى من جور هذا الزمان وقد اشتد ساعد الحدثان
كل يوم يجر حربا عوانا فكأنما خصمان يختصمان

جرعتنا خطوبه الصبر مُرًّا   فأسغنا ما ليس فى الإمكان
فلكم جد بالقرون فبادت   وهو ثبت الجنان رَسْل العنان
فلترعنا بما تشاء الليالى   ولتذرنا ما بين ناع وعان
سل أبا الهول عن زمان تولى   برعمسيس أو أزورتازان
وأعد نظرة فهذى شَعُوبٌ   فى اغتيال النفوس كالأفعوان

* * *

غدرت بالوزير بطرس غالى   فاندباه أيها الثقلان
عاجلته يد الزمان فتبت   من يد قوضت بناء الأمانى
قد دفناه والعلا منذ عام   إذ هما أوجدا صنوان
فلنعدد حلاه فوق ضريح   بات مثوى لمأثرات حسان
وخلال عنوانها الفضل والفضـــــل ملاك المعروف والإحسان
ولنفاخر به عليا حكيما   قد روى ما رواه عن لقمان
ولنعز العلياء فيمن فقدنا   ولتعز الدنيا بنى الإنسان

* * *

رب كن لى فيما أحاول واحلل   حين أرثيه عقدة من لسانى
يا خليلى لا تلوما محبا   مع فرط الأسى الذى تنكتمان
واذكرا فضله وإن جل شأننا   ودعانى أشكو الزمان وشانى
ليس يغنى السلوان عنى شيئاً   قضى الأمر فيه تستفيان
أنا أرثى ولو رآنى راء   نضو حزن ولوعة لرثانى
مات من أعظم المصيبة فيه   من بنى الملك كل قاص ودان
وبكت من بعد ذا عين شمس   ونعته منفيس والهرمان

وغدا النيل راثياً لعلاه مستثيراً لواعج الأشجان
فلتذب حسرة عليه القوافى ولتعان الأسى عليه المعانى
ولأسودْ بيض الصحائف حتى استمد المداد من أجفانى
ولأردد ذكراه حتى أرانى من كفات الرفات فى أكفانى
ولأقلد جيد المراثى عليه من قريضى قلائد العقيان
غير أنى هيهات أوفيه حقاً ولو انى انتحلت شعر ابن هانى
أجزل الله أجره وحباه رحمة منه فى رياض الجنان
وسلام عليه يسرى بريا ه نسيم معطر الأردان

* * *

يالقومى وقد دجا ليل خطب بين آل الإنجيل والفرقان
كان للنازعين فيه إلى الشر كما يعلم الإله يدان
أكبرته الأهواء ما أنزل الله به فى الأنام من سلطان
فليوال الإرشاد والنصح فينا كل ندب على الهدى معوان
ولنفض النزاع ، والصلح خير ولنشيد دعائم العمران
ولنكن عهد الإخاء وأولى بمراعاة شرطه أخوان
ولندع كل ما أجد خلافاً من شئون الدين للديان

* * *

وقال مهنئاً بطرس غالى حينما تولى رياسة الوزارة سنة ١٩٠٨ :

فيا سلالة مينا والشىء بالشىء يذكر
لقد رآك الخديو على الرئاسة أقدر
فكنت خير وزير حاز الفخار المؤزر

فاستخدم الجد واعلم أن المجد ميسر
واقرع صفاة حسود عليك ما شاء أنكر
بشراه بطرس مصر صار الوزير الأكبر

***

ولما مات تادرس وهبي سنة ١٩٣٤ رثاه عزيز بشاى بقصيدة مطلعها :

زميل الصبا ودعت فيك صبابتى وعهد شبابى الغض والمرح الجم
لقد كنت لى عند الملمة شافيا وكنت دواء القلب والروح والجسم
دعوتك فى الدنيا فلبيت صاغراً تكفكف من دمعى وتدفع من همى
وفيًّا إذا قل الوفاء وصاحباً إذا حل ذو حرب وأدبر ذو سلم

-٢-

إسكندر قزمان

وله وقد أنشدها فى نادى الشبان المسيحيين سنة ١٩١١ :

لو كنت تدرى غايتى ومرامى لامتد بينك والملام مرامى
واخترت ما خالفتنى فى حبه وعدلتَ من عذلى إلى إكرامى
أتلومنى أنى أنبتُ وقد غدا شرع المهيمن قبلتى وإمامى؟
وتهش فى وجه الضلال وجيشه فينا عظيم البطش والإقدام
من كل مَن تخذ الشبيبة عذوه فى اللهو والإغراق فى الآثام
وجدت به شهواته طبعاً لأن يطأ الثرى والدين بالأقدام

***

أتلوموني أني اتصلت بفتية نذروا التعفف عن خنى وحرام ؟

ضنوا بوقت ينقضى هذراً على الـ ـحانات فى لهو ورشف مدام

ونضوا على جند التجارب والهوى سيفاً من الصلوات غير كهام[1]

عرفوا الشبيبة أنها زمن التـ ـأهب للمعالى لا زمان غرام

ومخافة الرحمن مرقاة العلا حقاً وما الدنيا بدار مقام

ومن اتقى رب السماء سما بأمـ ـتـه لأعمال تدوم عظام

* * *

يا فتية النادى اذكروا الأقباطمن أقرانكم ذكرى ذوى الأرحام

وادعوهم بأحب ما يدعى به خل ولكن فى أسدّ كلام

فمن الكلام محبب لكنه كسحاب صيف راحل وجهام

ومن الكلام مسدد كيد الطبيـ ـب تناولت تضميد جرح دامى

قولوا لهم هيا بنى الأم انزلوا منا على رحب ورعى ذمام

* * *

يا طالبى العلياء طال منامكم هبوا فهل ترجى العلا لنيام

هيهات يسلم من فخاخ شبابه غير الفتى ذى اليقظة المقدام

جدوا لما فيه علاء بلادكم وتخيروا لبناه خير دعام

وأجل ما يعلى البلاد شبيبة رأت الفضيلة أس كل نظام

جاءت تهدم ما عليها ينبنى أو يهدمون رواسى الأعلام

أخلق بكم أن تبلغوا ما قصرت عنه الجدود بغابر الأيام

---

(١) السيف الكهام : السيف الذى لا يقطع ، والمراد أنهم يديمون الصلوات

فبعصرهم بدت العلوم أهلة وبعصركم تبدو بدورَ تمام

* * *

نخروا بآيبس ولم يك منعما وفخاركم بالله ذى الإنعام
فهو الذى أولاكم بعد الحيا ة سلامة الألباب والأجسام
وفداكم بطريقة فى كنهها وسموِّها حارت ذوو الأفهام
هلاَّ عرفتم قدر نسبتكم إلى هذا القدير المنعم العلام ؟

* * *

يا فتية النادى ومن لاذوا به من أروع وسميدع وهمام
بقيت لدى نصيحة شهدت لصحتها العلوم وخبرة الأعوام
ولىَ اليقين بأنكم منى بها وبكل خير أعرف الأنام
لكننا نحتاج للذكرى ولو كانت معارفنا كبحر طامى
لا يرفعن لواءكم إلا شبا ب منكم أهل اعتدال سامى
راض اعتدال الدين فطرة سنهم فتملكوا معه الهدى بزمام
نلتم مناكم من هدى أقرانكم ومع الهدى أجراً وحسن ختام
الله أسأل أن يوفقكم لما فيه رضاه لكم بهذا العام
ولمثله يبقيكم فى صحة والعيش فى ثغر لكم بسام
ما أشرقت شمس الصلاح وفى جنا حيها الشفاء لذى ضنى وسقام

وقال فى احتفال مدرسة جامعة المحبة للبنات فى ١٧/١٠/١٩١٣ :

هل ذا نشيدك أم ترنيم أملاك ؟ وذا خطابك أو ما الله أملاك ؟
وهل حبانا بهذا الوشى مقتدر ؟ من حاكة الغرب أم ذا صنع يمناك؟

إنْ فقت يا ابنة رمسيس فلا عجب ‏ ‏ عن أمهاتك فى طيبا وآباك
كم شدت فى مصر صرحاً للرقى وما ‏ ‏ علياء غيرك إلا بنت علياك
لئن رأيت فتاة الغرب عنك علت ‏ ‏ جداً وفاقت مزاياها مزاياك
كم مبطء نال بالإدمان غايته ‏ ‏ فعز مسعاه عن نيل وإدراك
وعَوْد مجدك ميسور بأكمله ‏ ‏ لمن على المنهج المأمون رباك
جدى فلو باعتدال دمت راقية ‏ ‏ لسوف تحسد بنت الغرب مرقاك

***

جدى أفاد بك المولى وأولاك ‏ ‏ فما أحقك أن ترقى وأولاك
فكم عركت بجنبيك الأذى ولكم ‏ ‏ نزجى الأسى نحن لكن فيه نلحاك
وكم صبرت على الهجران مغضية ‏ ‏ لم تسألى لم لا بلا ذنب هجرناك
وزدتنا يوم فحصك تر ‏ ‏ حيباً ونحن من الهجران زدناك
مهلا فما استدعت الترحاب همتنا ‏ ‏ بل حقه لك منا حيث نلقاك
بل لو غدا الباب عنا اليوم ممتنعاً ‏ ‏ ما عابنا السمع من طاق وشباك
حتى نرى عن يقين هل هديت إلى ‏ ‏ أجلّ قصد له الرحمن أحياك
إن لم تكن بلغت ذا الحد غيرتنا ‏ ‏ كنا ألد عدا مصر وأعداك
أليس عاتقك الواهى إليه يعو ‏ ‏ د حمل أعبائنا يوماً وأعباك

***

لله أم عطوف فى اسمها نظمت ‏ ‏ ما قد تفرق فى مألوف أسماك
كم مشبه لك فاضت بالمحبة كابـ ‏ ‏ ـنة وأخت وأم نحو قرباك
لكنَّ نسبة هذى الأم « جامعة » ‏ ‏ من « المحبة » معنى فاق معناك
تغذو عقول يتامانا بلا عوض ‏ ‏ وما تعدى غذا أبناك ثدياك

حشاك ما عشت أن تنسى مودتها   فلست ممن يعوق الأم حاشاك

* * *

قد زارك اليوم قوم لا يطيب لهم   مثل التحدث فى مأنوس أنباك
يروقهم أن يروك اليوم فائزة   كما يروقك يوماً فوز أبناك
لحسن مرآك يصبو البعض جهدهم   وربما فيه بلواهم وبلواك
لكن محبيك حقاً ليس يشغلهم   أوصاف حسنك عن آيات حسناك
ولا يشينك نقص المال عندهم   لكن يشينك نقص فى سجاياك
فخير قومك من راموك فاضلة   لا مَن غناك أرادوا أو محياك

* * *

حاجات عصرك لا تحصى كفاك إذا   فازت بأنفعها فى مصر كفاك
وخير حاجك نفعاً حسن تربية   لمن رزقت وتدبير لمغناك
هل هز قومى سبق أختك فى   نعمى المعارف فاهتموا بنعماك
صبراً وإن يك مطوياً على جزع   عسى بعقباه نجزى حسن عقباك
صبراً عسى نهضة لاحت طلائعها   تسرى فيحمد بالإصلاح مسراك
صبراً عسى نظرة كالغيث نرقبها   ممن بهم نيطت الآمال ترعاك

* * *

سراة قومى ارفعوا شأن الفتاة فتك   غوها مصائب منها قد بكى الباكى
فتاتكم أصبحت والحاج تعوزها   تحكى الأسيرة قد شدت بأشراك
فإن عهدتم بإصلاح معاهدها   تنشط وتصبح مناراً وسط أحلاك
لله كلية كاد الفقير بما   له يشيد منها كل مدماك

فليت أيديكم يوم النداء لها ... تندّى فتنسخ ذكرى كل إمساك
لو رد لى زمنى عهد الشبيبة يو ... م الشعر دأبى وتحلو فيه ذكراك
لزان جيدك منى كل جوهرة ... عصماء يبدى سناها صدق دعواك

* * *

فيا شباب تولوا نصر أختكم ... كلا كما فرع مصر الزاهر الزاكى
لا ترتجوا الأجر من أيدى الأنام ولو ... كانت نصائحكم أقطاب أفلاك
قدكم جزاء ضمير مادح ورضى ... مولى درى حجة المشكو والشاكى
وهو الجزاء الذى ما انفك يؤثره ... ذو عفة وحجى سام وإدراك

وقال تحت عنوان « الأم الفاضلة » سنة ١٩١٢ :

يا طلعة ليس لى فى غيرها أربُ ... لولاك ما كان لى أنس ولا طربُ
سناك لا فى الضحى شمس تقاس به ... عندى ولا فى الدجى بدر ولا شهب
حكى البهاء الذى عاد الكليم به ... من قمة الطور قدما وهو منتصب
حكاه طهراً ولكن ذا تقر به ... عينى وناظر نور الطور يرتعب
علام أثنى وهل تحصى صفاتك أو ... يفى الثناء سجايا كلها عجب
على حنانك أم إنكار نفسك أم ... على يد لا تدانى جودها السحب
على اصطبار وتسليم ومغفرة ... على التلطف فى إرضاء من غضبوا
على السهاد وعين الكل مغمضة ... على ظهور الرضى والقلب مضطرب
على اعتناء وتدبير وتربية ... على العزاء لمن خابوا ومن نكبوا
على اهتداء عقوق كم بسطت له ... كفيك ضارعة والدمع ينسكب

فصار براً ولـكن فى الشباب قضى … من بعد ما تم فيه اللطف والأدب
لله حسبك يا ذات الحنان فلن … يضيع ما كان عند الله يحتسب

* * *

لله حبك ما أصفى موارده … والحب فى الناس ممذوق ومنقلب
لو كان فى المهد هذا الحب خير حمى … وهو الذى دام يهدينى لما يجب
نحو الهداية كم دارت بمجتمع … رحى الحياة ودلت أنك القُطُب
لـكن قلبى الذى يأبى الهدى و إذا … للشر تجذبه الأهواء ينجذب
كم كاد منصرفاً بى عن هداه وكا … د حبل بودك بالعصيان ينقضب
مذ كنتُ طفلا تعلمتُ التبسم من … مرآك باسمة لى حين أكتئب
فـكرزى اليوم هذا التبسم كى … تحيى فؤاداً لنيل الصفح يرتقب
ودمتِ فينا مفدَّاة مكرَّمة … يُهدَى إليك الثنا ما كرَّت الحقب

وقال يرثى عطية وهبى رئيس جمعية التوفيق القبطية سنة ١٩١٣ :

تبكى الشبيبة قد أصيب إمامها … وتنكست لمصابه أعلامها
سل فتية التوفيق كيف توفقت … فى عهده وتحققت أحلامها
تبكى الأسيفة أمة الأقباط من … ثـكلته وهو نصيرها وغلامها
آماله انقطعت نهار وفاته … وبذى الوفاة تواصلت آلامها
ما تلك أول نـكبة نـكبت بها … ولئن تلظى فى القلوب ضرامها
فـكم ابتلتها النائبات بمثلها … كم مثله أخنى عليه حمامها
أسفاً عليها أمة قد فوجئت … برحيل نفس يستحب مقامها

* * *

أكذا يغيب البدر ليل تمامه ويصاد من أحيائنا ضرغامها
وهل السما تهوى كذا أجرامها والأرض تهبط فى الثرى أعلامها
يا مبكياً عين الرياسة بعــده وله عنا بعد الجموح زمامها
من للرياسة يوم تعترك الشئو ن وبالكياسة يرتجى إبرامها
من ذا يقود إلى الصواب يراعهم كيلا تطيش من القسى سهامها
إلا نصائحك التى اعتصموا بها وجرت على سنن الهدى أحكامها
فارحل كما رحل الربيع مخلفاً خِدَمًا يفوح من الزمان خزامها

— ٣ —

نصر لوزا الأسيوطى

١٨٨٧ — ١٩٦٤

يعتبر نصر لوزا الأسيوطى أعظم شعراء الطائفة القبطية ، وأبرع من نظم القريض من أبناء النصارى فى الديار المصرية . وهو لسان المسيحيين الناطق ، وقلبهم الخافق ، والمترجم عن آمالهم ، والمتغنى بمفاخر أسلافهم ، والمعبر عن مشاعرهم الدينية وعواطفهم المسيحية ، وعقائدهم النصرانية . والداعى إلى تخفيف آلام فقرائهم والإحسان إلى بؤسائهم . ولو كان الأقباط يهتمون بالأدب لكتبوا شعره بماء الذهب ولعلقوه على الجدران ، ولزينوا به الحيطان . ولجمعوا له الجموع ، وأوقدوا له الشموع ، فهو يسوع شعرهم الذى لا يبارى ، وينبوع أدبهم وإنه لا يجارى . ولو تبرع كل قبطى بنصف مليم لأمكن إخراج ديوانه فى أحسن تقويم .

ولد نصر لوزا بمدينة أسيوط سنة ١٨٨٧ م ودرس بكلية الأمريكان بها

وانتهى من دراسته سنة ١٩١٠ وكانت العلوم كلها تدرس باللغة الإنجليزية ماعدا اللغة العربية . وقد نشأ منذ صباه ميالا إلى الشعر فقرأ بعض دواوين كبار الشعراء القدماء . وحفظ لامية العجم للطغرائى وهو فى العاشرة من عمره .

ثم حضر إلى مدينة القاهرة واشتغل محررا بصحيفة النظام لصاحبها محمد مسعود ولكنه لم يبق بها سوى شهور قلائل إذ أنه أصيب بمرض اضطره إلى العودة إلى أسيوط حيث اشتغل مدرسا للغة العربية .

وفى سنة ١٩٣٦ عين بتفتيش إنتاج أسيوط وبقى إلى أن بلغ الستين من عمره سنة ١٩٤٧ حيث ترك خدمة الحكومة .

***

وقد أصيب الشاعر بوفاة أمه سنة ١٩٤١ فرثاها بقصيدة طويلة جاء فيها :

أقول لمنْ أمى سواكِ أيا أمى ... وأشكو لمن ما شفَّنى فيك من غمّ

ومن لى بقلب مثل قلبك مشفقٌ ... إذا مسَّنى همٌّ تمزَّق منْ همِّ

جزِعتُ عليك الحزن صابا وإنه ... لأفتكُ بالأحشاء من ناقعِ السمِّ

لقد مت من شوق فهل منك نظرةٌ ... إلىَّ تردُّ الرُّوح منى إلى الجسمِ

أطلت على ابنيك البعادَ ولم يكن ... ليعهد منك البعد «نصر» ولا «فهمى»

أهانَ عليك اليوم أنْ تتركيهما ... من الوجد والبلوى غريقين فى يمّ؟!

على الرغم من قلبي إليك عتابه ... فما كان منك البعد إلا على الرغم

سَلى كبدَينا من هوىً كيف ذابتا ... عليك نجيعاً من محاجرنا يهمى

من الأب ذقنا اليتم قدما وإنما ... بظلك لم نشعر صغيرين باليُتمِ

مولهة إن تخلى الليل لا ترَىْ ... إلا وحيديك الحبيبين فى الحُلمِ

فلم ينقطع ذكراهما عنكِ لحظة ... ولم تطربى فى العيش كاسميهما لاسمِ

بذلت قصارى العزم جهدا عليهما فنلت المنى محمودة الجهد والعزم
وعبّدت والأيام حالكة الدجى مسالك بيضا فى حوادثها الدُّهْمِ
ومثلتِ أدوارَ الأمومة كلها مناظر عطف لم يُمَثَّلْنَ من أمٍّ

* * *

مضى حافلا بالخير عمرُكِ طائلا مباركَ ما بينَ البداءَةِ والختمِ
صبوتِ إلى الإيمان والزهد ماانقضى
لك العمرُ إلا فى الصلاةِ وفى الصومِ
تنعَّمْتِ فردوساً بفردوس ربنا بما شئت من ربحٍ مقيمٍ ومن غُنمِ
وعوِّضتِ عن وهْمِ الحياة حقيقة غنيتِ بها فى الخلدِ عن عالم الوهمِ
نظمتُ دماء القلب فيك مراثيا بأمثالها ضَنَّتْ يدُ النثر والنَّظمِ
عليكِ سلام اللهِ أمَّاهُ ما زَها نهار بشمسٍ أودجا الليل بالنَّجْمِ

وهذه القصيدة تمتاز بصدق العاطفة وخالص الوفاء والبر وحب الإبن لأمه التى سهرت على تربيته بعد وفاة والده .

وفى سنة ١٩٤٥ أصيب الشاعر بوفاة زوجته « نرجس » فبكى عليها بكاء مراء، ونظم فى رثائها جملة قصائد ، منها قصيدة تحت عنوان « وازوجتاه » نشرها بمناسبة مرور عام على وفاتها ، ومما جاء فيها :

عودى لزوجك بعد طول فراقِ يخمدْ سعير فؤاده المشتاقِ
ما اسطعت حمل نواك باللُّقْيا فهل أسْطيعُ أحمله بغير تلاقِ !؟
الخطبُ أرْهقنى فكدتُ وجيعة وجوًى أروحُ ضحيةَ الإرهاقِ
والهفَ قلبى إذا سبقت ولم أكن لك يا مُنى الأيامِ بالسَّبَّاقِ
تمضى السنون وجرح قلبى المبْتَلى بنواكِ مُنفَغِرٌ كما هو باق
ما مدمعى ماء يسيل عليك بل هو من حشاىَ ، من الدمِ المهْراقِ

صور الحياة جحدتُ إلا صورةً لك فى الحشا منىٍّ وفى الأحداقِ
سُمٌّ المصابِ سرى بجسمى ماله إلا ابتسامة فيك من ترياقِ
أتراك عالمة بحالى بعد ما عجز الطبيب بها وحار الرّاقى؟!

* * *

بالله قومى أدركينى إننى بِضنى النوَى فى آخر الأرماقِ
اثنين ما كُنا ولكن واحدا عشنا بظل محبة ووفاقِ
ذُقنا المنى والأنس والنُّعْمَى به من عذب كأسٍ بالغرام دهاقِ
حتى تفرّقَ شملُنا والْهَفْتِى بغراب شؤمٍ بالنوَى نعّاقِ
ما أنت ياقلبى أتخفقُ بعد ما أودى الحِمامُ بالفكَ الخفّاق
ختّام بالشكوى تدق وبالأسى لا كنت بعد الحبِّ بالدقاقِ

* * *

أبكى شبابك مثل روضٍ ناضرٍ بشذا المنى يا نرجسى عبّاقِ
أبكى خلائقَ نادرات فيك قد كنَّ المثالَ لِقدْرَةِ الخلاقِ
أبكى محاسن فيك من قمر الدجى أزهى سناً فى الهَدْى والإشراق
حزتَ النفيسين اللذين بَراهما باريك من خلق ومن أخلاق
حملوا الكمال مجسما والحسن إذ حملوكِ فى نعش على الأعناق
وتساءلوا هل غيبت شمس الهدى صبحاً من التوْراب فى أطباق

* * *

سُحقاً أيا عام الأسى لك غُلْتنى فى نرجسى بقضائك السَّحاق
هل أنتَ عام أم جحيمٌ أم رَحَى نارٍ تدور علىّ بالإحراق؟
أم أنتَ صاعقةٌ نزلت بحادث جلل علىّ مروِّع صعاق؟
أم أنت طمٌّ حوادثٍ زخارةٌ تطغى علىّ بلجة الإغراق؟

أم أنت عزريل لروحى قابض ... بيد الشقاء معاول الإزهاق

أيجد أحزانى الزمان ونكبتى ... من غير حد ترتجى ونطاق

فابكى بكائى يا كواكب واندبى ... قمرى أصيب من الردى بمحاق

* * *

ياأم «ناجى» أو«سمير» بنوك فى ... حلم من الأحداث غير مطاق

يا خير أم هل بطوقك تركهم ... عانين ما شبوا عن الأطواق

يا طول شوق بنيك محرومين يا ... أماه منك لقبلة وعناق

يا طول شوقهم لصدرك حانياً ... بالحب والتدليل والإشفاق

لاقيت مريم أخت مريم فانعمى ... بأجل خالدة وخير تلاق

أنفقت فى الإيمان عمرك والتقى ... فربحت تاج الخلد بالإنفاق

بعُرَى الصراحة والهدى استمسكت فى ... زمن بغىٍّ مفعم ونفاق

* * *

من كوثر الخلد احتسيت وإنما ... من علقم البلوى سقانى الساقى

جددت فى الخلد الحياة وأخلقت ... عمرى الفجيعة أيما إخلاق

لك أغدق الله النعيم جزاء ما ... لك كان للمعروف من إغداق

هيهات أرضى الصبر لولا أننى ... بك فى الفرادس لى أعز لحاق

فمتى أراك فتستقر خواطرى ... وأبثك المأثور من أشواقى؟

والقصيدة كلها تزخر بالحزن وتفيض بالأسى وتصور الحالة المؤلمة للشاعر ، والصدمة الموجعة التى صدمته بوفاة زوجته . فأخذ يبكى وينوح ويندب حظه وحظ أولاده الصغار الذين حرموا عطف أمهم وحنانها . وأشاد بالذكريات

الجميلة ، والأيام السعيدة التى مرت بهما ، وما كانت عليه زوجته من محاسن الأخلاق ، وما ساد بينهما من وفاق ، وما تمتعا به من حياة طيبة قوامها الحب والإخلاص والوفاء .

* * *

وقد أثرت هذه النكبة فى صحته فأخذ يشكو مما يعانى من الآلام ، وما ألم به من الأسقام التى أنحلت جسمه وأنهكت قواه . قال :

أيُعَيِّدُ فيكَ أخو هم، مقروح الجفن مسهدُهُ
نِضْـــوٌ كخيال هيكلهُ لا تعـــرفه إذ تشهدُهُ
فقد الأنفاس سوى نفس بزفير الشـــوق يرددُهُ
خاض الأهوال طغت بحراً مَرْغىّ الدمع ومزبدُهُ
حمل الأحداث أخا جَلدٍ يوهِى الأجبالَ تجلُّدُهُ
جَمْرٌ فى المهجة ليس له يا رب خلافكَ يُخْمِدُهُ

وقال :

دهتك بنات دهرك يا ابن جنبي بما يوهى من الظهر الفقارا
فيـالك واهياً لأقل شىء تذوب جوى وتخفق مستثارا
أحمَّال الحمول صـبرت حتى طغى بركانها العـانى وثارا
لقيتَ الضير من ذكرى حمول يعزُّ على هواهم أن تضارا
بكوثر حبهم قد كنت تروى فيـالك روضة حالت قفارا
فلم ترهُمْ سوى أطياف نوم ولست كما عهدت ترى الديارا
تهيم بزورة فى الحلم منهـم وتأبى من سواهم أن تزارا

غداً بجوارهم فى الخلد تحظى ... وما أحلى حمى الفادى جوارا
يكفكف من عيونك كل دمع ... ويخمد نار وجدك والشرارا

ومنذ أن ماتت زوجته سنة ١٩٤٥ لم يعد الشاعر ينظم إلا فى الأغراض الدينية كعيد الميلاد ، وعيد القيامة ، وعيد النيروز . ثلاث قصائد ينظمها كل عام فى الأغراض المتقدمة وينشرها فى مجلة « رسالة المحبة » .

* * *

مختارات من شعره

— ١ —

قال فى الاحتفال السنوى لمقتل بطرس باشا غالى سنة ١٩١٢ :

ما للجموع حيال القبر تزدحم ؟ ... هل ساقها مأرب فى ذاك أم قسم ؟
أم ذاك حج، نعم شدوا رحالكم ... هنا الشهيد وهذا قبره الحرم
هنا العظيم، هنا «الغالى» الذى شهدت ... بجل أفعاله الأفراد والأمم
تمضى العظام ويبقى بعدها أثر ... كذاك آثارك الأمجاد والشيم
كم مائت ظهرت من فعله همم ... وعائش ما له فعل ولا همم
ميزان كل الملا للحكم منتصب ... فى كفتيه مقام الناس والقيم
بعض لهم حسنات يذكرون بها ... وآخرون لهم من فعلهم ندم

* * *

اليوم نذكر فرداً كلما ذكرت ... أعماله عنت الأعناق واللمم
صنيعك الجود فينا غير منكتم ... وهل سناء شعاع الشمس ينكتم ؟

متعت فى جنة الرحمن فاقض بها حقاً عليك ففيها تصدق الذمم
عامان مرَّا على الآفاق وانصرما وذكركم لمدى الآباد منتظم
ذكر كحظ الضحى والشمس طالعة كأنه بين أرباب النهى علم
حاشا لشعرى أن يحصى مناقبه فى حصرها يخطىء القرطاس والقلم

* * *

أسست جمعية خيرية وكفى بها فخاراً فمنها تنبع النعم
كنت السراج وكنا نستضىء به إذا ادلهمت أمام الأعين الظلم
يا غالى القدر أوليتَ الجميل لنا نعم الجميل الذى فى القلب يبتسم
لم ننس معروفك الميمون طالعه وصاحب الفضل محبوب ومحترم
الله أكبر ما هذا الضجيج وما لهذه الناس فوق القبر تلتئم؟
جاءت إليك لتقضى حق زورته وللزيارات حق ليس يهتضم

* * *

يا قبر إن جاءك المشتاق مبتغياً منك السلام ودمع العين منسجم
رد السلام سقاك الغيث وابله إن كان يعييك فى أركانه الكلم
من للمساكين يعطيهم مآربهم من للجياع إذا ما مسهم ألم
من للفقير صديق واليتيم أب من للحزانى إذا يبكون من لهم؟
أنت الدواء لداء البؤس تبرئه وأنت غيث ونار الفقر تضطرم
وكنت إن فهت بالأقوال غالية تساقطت كثمين اللؤلؤ الحكم
كم أمَّ بابك محتاج ومبتئس كم فاض من راحتيك الجود والكرم

يامُشبِعَ البرِّ إحسانا وتكرمة إنّا لسان وأيام الزمان فَمُ
كانت تضيق بك الدنيا على سَعةٍ فكيف ضمَّك لحدٌ عَرْضُهُ قدَمُ ؟

* * *

كأس المنيَّة حول الخلقِ دائرةٌ لا الطفل من شربها ينجو ولا الهرمُ
وضيغم الموت يعدو ثم يلحقنا ولو أحاطت بنا الآجام والأكمُ
الدهر كالسيف يبدى ضَوْءَ شفرتهِ كَىْ يخلب الطرفَ حينا ثم ينتقمُ
أين الملوك الألى سادوا بحزمهم أين السلاطين والأبطال أين همُ ؟
مَضَوْا ولم يتركوا إلاَّ فعالهم كذلك المرء بالأفعال يحتكمُ
والمرء إن عاش فى الدنيا بلا أملٍ لكلِّ عامٍ مضى من عمره عَدَمُ
جسم الفتى للثرى والنفس خالدة فاعمل لنفسك إن الجسم منصرم
الدِّينُ أول شىء صان صاحِبهُ ياحبَّذا من بحَبْل الله يعتصمُ

* * *

يا بطرس امكثْ جوار الله إن لنا من الوداد قلوبا ليس تنفطم
هذى كنيستك الغرّاء زاهرةٌ يتلو الصلاةَ بها البطريقُ والخدمُ
تدْوِى نواقيسها فيها فيسمعها من هيبة الله مَن قد مسَّهُ الصَّممُ
جبريل بالباب والأملاك صاغية إلى العبادة إذ قد هزها القرم
والناس فوق أديم القبر خاشعة هناك كل فؤاد مُطْرِقٌ وجِمُ
فارقد فِمصْرُكَ لن تنساك مارَوِيَتْ بالنيل أو علا فى أفقها الهرَمُ

— ٢ —

العلم والبلاد

تمثيل فى حفلة جمعية الراعى الصالح القبطية سنة ١٩١١ .

يا مصر إنك جنة الأمصارِ يسقيك نيل سَيّدُ الأنهار
يجرى بماء كالزلال على الرُّبَى ويفيضُ فيك بعَسْجَدٍ ونُضَار
يا مصر إنى قد وهبْتُ لكِ الحشَا يا مصرُ حبُّك مذهبى وشعارى
كم قد نظمت لك القريض و إنها أشعار ذكرك أحسن الأشعار
إنى لأطرب إذ أراكِ سعيدة بين البلاد بعزّةٍ وفخارِ
وأرى بَنيكِ على السلام تحالفوا وأرى ديارَكِ خيرَ كلّ ديار
وأرى لواء العلم يخفق بيننا ويلوح للأوطان والأمصار
هذى أمانىّ الكبارُ وإنها ليست على نيل المُنَى بكبارِ

* * *

يا مصرُ لم يبق الزمان لنا سوى جزء من الآيات والآثار
الناس تفخر بالعلوم وبالنُّهَى وبنوكِ بالأطلال والأحجار
حسدت شعوب الأرض عصر سعودنا
واليوم نحسد سالف الأعصار
دارت كواكب مجدنا وتحجبّتْ وكذاكَ شأنُ الكوكبِ الدَّوَّارِ

* * *

العمرُ يمضى كالخيال وينقضى وتدوم بعدًا صفحةُ الأعمار

فتمكنوا ياقوم من تخليدها ... بالصالحاتِ وطيّبِ الأفكار
هذى حياةُ الخلق سائرة على ... قدَمين من ليل الدّجى ونهار
فالحر من لم يغترِرْ بنعيمها ... فنعيمها كدَرٌ من الأكدار
الكون سفرٌ علومنا وسطورُه ... من روضهِ وجبالهِ وبحار
فتأملوا فى ذى السطور فإنها ... لسُطورُ سفر الواحد القهارِ
الشمس تخبر عن بديع فعالهِ ... بجميل ما تُبْدِى من الأنوار
والبحر والبرُّ العظيم وما حوَى ... من آهل وفدافدٍ وقفار
وجميع أنواع الخلائق فى الورَى ... حتى الطيور وهنَّ فى الأوكار
الكلُّ قائلة بصوت واحدٍ ... الله أكبر ذالكَ خلقُ البارى

***

مالى وهاتيكَ الأمور وأنتمُ ... أدْرَى بما تحوى من الأخبار
إنى وقفتُ على المنابر شاعرا ... لا واعظا من صَفْوَةِ الأحبار
أدعو إلى العلم الصحيح مناديًا ... العلم للأوطان تاجُ يسار
وأنيرُ دَيجُورَ الخطوب بمنطقى ... وأزيلُ جهلا شامخَ الأسوار

***

فإليكمُ يا أهل مصرَ حكايةً ... تغنى عن الإطناب والإكثار
عن غادة يُسبى العقول جمالها ... فى الغرب ذات جواهرٍ وسِوار
فكأنها من حور جنات العلاَ ... أو أنها بدر المحاسن سارى
تختال فى ثوب الحرير وتنثنى ... وتجر عند السير فضلَ إزار
حتى إذا جنَّ الظلام رأيتها ... تسرى إلى الأدغال والأشجار

فعجبتُ من أمر الفتاة ورابنى إقدامها هـذا بدون جوارِ
وجعلت أتبعُ فى السُّرَى خُطُواتها وأسير سير الباحث المحتار
فمحوتُ إثمَ الشكِّ حين وجدتُها ترنو بمجْهَرها إلى الأقمار
خرجت لترصد ذى الـكواكبَ فى الدُّجَى
وترى الذى تخفيه من أسرار
وإذا بلصٍّ قد تقدم نحوها وأصابها فى صدرها بعيار
حتى إذا سَرَقَ السوارَ وحَلْيَها من جيدِها ولَّى إلى الأدبار
ماتت شهيدة علمِها لا حبِّها وكذا المجازفُ عُرْضة الأخطار

* * *

يممتُ قربَ رُفاتها متهيِّباً واهى العزيمة خاشعَ الأبصار
شاهدتُ نورَ العلم يشرقُ حولها فوقفتُ بالإجلال والإكبار
ماتت وذكراها مخلدة لنا والذكر ما يبقى من الأعمار
العلم يحيى المرء بعد مماته ويعدُّه من جملة الأخيار
بالعلم قد علتِ الرجال إلى الذُّرَى وتسابقت لمواطِن الأطيار
بالعلم ترتفع البلاد وترتقى وتنال ما تبغى من الأوطار
أعلوا منار العلم فوق ربوعكم فبِهِ يكونُ لمصرَ خير منار
وامشوا إلى سبل العلا وتأكدوا أنَّ العلاءَ مطيَّةُ الأحرار

— ٣ —

على سفح الأهرام سنة ١٩١٢

شخصت إلى الأهرام والقلب خاشع ... وللنفس شوقٌ نحوها وهُيامُ
فقلتُ لها عند اللقاء مُرَحِّباً ... سلامٌ على أهرام مصر سلامُ
علتْ مثلما الجوزاء فى الأفق تعتلى ... وحيث مكان ثَمَّ ليس يُرامُ
فلم تَمْحُها الأجيالُ وهْىَ عديدةٌ ... ولم تذْرها الأهوالُ وهْىَ جسامُ
وباتَ لها بين التواريخ فى الورى ... على رغم أنفِ الحادثات دوَامُ
شمَخْتَ على بطش العصور وهكذا ... تشامخ أقوام بَنَوْكِ كِرامُ
فراعِنَةٌ لم يُنْجِبِ الدهر مثلهُمْ ... لهم فى حِمَى الذكر الجميل ذِمامُ
إذا جلسوا فالخيرُ يجلس ماثلا ... وإن وقفوا فالغائباتُ قيام
فمثل عُلَا الأهرام لم يبن يافثٌ ... ولم يقتدرْ مثلَ الفراعِنِ حامُ

* * *

وقفتُ عليها لا أودُّ فِراقها ... إلى أن محا نورَ النهار ظلامُ
وبان لنا بدر الدُّجُنَّةِ ساطعا ... يُرينا ضياءَ الوقتِ كيف يُسامُ
تعلمت من صمتِ الحجارة عبرةً ... كأن السكوتَ المستديم كلامُ
كأنى من فرط المهابةِ عابدٌ ... أمامى من الصخر الأصمِّ إمامُ
أفدت أيا أهرام فى النصح إننى ... لدرسكِ تلميذ هنا وغلام
فما كل من يُهدى النصيحة ناصح ... ولا كل غيم فى السماء جَهامُ
وقفت أجيل الطرف فى عرصاتها ... وقد سرنى بين الصخور مَقامُ
فلله ما أحلى الوقوف بأربع ... طوى أهلها تحت الرموس رِجامُ

*

تذكرت منها منفتاح وجيشه ... وخوفو وأبناء العظام عظامُ
وجال بفكرى رعمسيس وغيره ... فراعنة لم يذمموا ويضاموا
إذا ذكروا يوماً أشارت يد العلا ... إليهم وخرّت فى الوجود لمَامُ
وإن ذكروا يوماً فإن بمثلهم ... بطون نساء العالمين عقام
وإن ذكروا يوماً فإن لذكرهم ... سُجود جميع السامعين لِزامُ
وإن ذكروا يوماً فإن قلوبنا ... تحن إليهم والحنين هيام
وإن ذكروا يوماً فإن مديحهم ... بكل لسان مبدأ وختام
وإن ذكروا يوماً فمن فرط مجدهم ... وهيبتهم صلى الأنام وصاموا
أولئك كانوا للزمان مناره ... وها همْ بأجواف التراب نيامُ
فلم تبق إلا فى التراب جماجمٌ ... ولم تبق إلا فى التراب عِظامُ
رغام إليه الناس سارت بأسرها ... وأصل جميع العالمين رَغامُ
فكم فى دجى الأجداث حى بفعله ... وكم بين أحياء الحياة رِمامُ

* * *

أيا هرمَىْ مصر العزيزة إننا ... أتانا ممات فى الوجود زؤام
أتفتخر الأجداد بالعلم والنُّهى ... ونحن على طول السنين نُضامُ ؟
فكم وطئت أرضيكما أرجلُ الملا ... وكم راقهم من ذى الأكام أكامُ
كأن ثرى الأهرام تُرْبٌ مقدسٌ ... حواليه من كل الشعوب زحامُ
يؤمّونه من كل فجٍّ وجوههم ... عليهن من فرط الحياء لثامُ
يحجون أرضاً أصبحت بك كعبة ... كأنك بيت للحجيج حرامُ
لك الله من فخرٍ لمصر كأنه ... على صدر أسرار الفخار وسامُ
فللنفس يا أهرامُ مصرَ كما أرى ... إلى سلسبيل المكرُمات أوامُ

فطمنا النفوس العاثرات عن الهوى ... ولابد أن يُجدى النفوس فِطامُ

تمنيت لو طال الوقوف حيالها ... ليُسْعِدَنا من ذى العظات مرامُ

ولو أننى عُيِّنْتُ بالقُرْب حارساً ... تضم حُطامى فى الفـلاة خيامُ

أقول لحادى الإبل أَرخ زمامها ... وهيهات أن يُرخَى لهن زمامُ

يَسرن إذا أبصرتهن بسرعة ... كأن النَّقا مَرْمًى وهن سِهامُ

فلما همنا بالقُفول إلى الحمى ... شَخَصْتُ وفى طىِّ الفؤاد ضرامُ

وأنشدتها بعـد التحيةِ قائلا ... سلامٌ على أهرام مصر سلامُ

— ٤ —

فرنسيس العتر

— ١٨٨٢

ولد فرنسيس العتر بدرب الجنينة بحى الأزبكية سنة ١٨٨٢ بمنزل والده القمص بطرس العتر. وبعد أن تلقى مبادىء القراءة والكتابة فى أحد الكتاتيب درس اللاهوت فحصل على شهادة اللاهوت والفلسفة سنة ١٨٨٦، وأجاد اللغة القبطية إلى جانب اللاتينية والفرنسية.

ثم تردد على حلقات الشيخ محمد عبده التى كان يعقدها مساء كل يوم بالجامع الأزهر وذلك سنة ١٩٠٢.

واشتغل بالتدريس فى عدة مدارس أجنبية. وبدأ ميله إلى نظم الشعر فى الأغراض الدينية فنظم كثيراً من الأناشيد والتراتيل التى يترنم بهـا الأقباط فى الكنائس. ومن قوله فى مدح الأنبا لوكاس مطران قناسنة ١٩١٢:

ملاك الربّ فى أفق التهانى ينادى بالمسرّة والرفاء

ومنها فى مدح المطران المذكور :

تحلى بالعلوم فكان نورا تنار به قلوب فى عماء
تنزه عن عيوب الخلق طرا فحقاً ليس من طين وماء
مكارمه على الأقباط تحصى إذا أحصوْا كواكب فى السماء
إله العز أعطاه مزايا فأحرزن السنا من ذا العطاء

ومنها :

كرازة مرقس ازدانت ببدر زها فيها فأبهر كل رائى
كرازة مرقس ظلت قروناً تنوح على بنيها الأوفياء
إلى أن جاءها أنبا لوكاس فعاد زمان سكان الفلاء
أعاد بطهره التقوى فكانت سراجاً لا يضاهى فى الضياء
وأرجع بالنشاط العلم حتى توارى الجهل فى طى الخفاء
فيادار افرحى فرحاً عظيما فقد شرفت فى هذا المساء
نعم شرفت يا دار بحبر يولى شعبه خير الولاء
تنازل ذا العظيم وحل فينا كماء فاض فى أرض خلاء

ومنها :

وهذا اليوم ضم مع الأخلاّ سَراةَ القوم من قُدُسٍ وطائى
رءوس كلهم لا عيب فيهم سوى الإقدام ساعة الاقتضاء
يلبون النداء بلا توان وخير الفضل تلبية النداء
شذاهم عطر الأرجا وأمست بهم ذى الدار تزرى بالسماء
فيارب أدمهم فى صفا وامنحنَّ لوكاسنا طول البقاء

وأبق لنا كرلسنا ليحمى الـ — ـكرازة من فخاخ ذوى الرياء
ووحد قبط مصر يا وحيداً — وأنهجهم منـاهج الارتقاء
لتجذل بنت صهيون وتشدو — بمجدك فى ابتـــداء وانتهاء

* * *

وقال فى مدح المطران المذكور :

هذا الذى أسر القلوب بلطفه — مَنْ أَمَّهُ أَمِنَ النوائب والعنا
لوكاس رب الفضل من عزت به — أعلى الـكنائس وهى واسعة البنا
مطراننا لا ريب بحر علومها — وبعلمه قد بلغت فوق المنى
أبقاك رب العرش ربى دائماً — ما زالت الأنوار تزهو فى قنا

* * *

وقال يرثى يوسف سليمان باشا سنة ١٩٣٩ :

رمز المكارم قد غدا تحت الثرى — فصفاء مصر عليه حال تـكدرا
ذاك الذى بلغ العنان بحبه — لله والأوطان واحتل الذُّرَى
ولَّى فألبسنا الأسى من بعده — ولى ففاض الجفن دمعاً أحمرا
أبكى بعاصمة البلاد كنائساً — قد كان فيها حارساً ومدبرا
من للمجالس والمدارس بعده — من ذا يلين من النهى المتحجرا
من لليتامى والأيامى ؟ من ترى — يجلو الدجى ويصد خطباً قد عرا
ولى الذى زان الوزارة حقبة — وكسا الـكنائس ثوب فضل أبهرا

ذى بيعة العذراء تبكى فخرها ... تبكى الذى فى الحق كان غضنفرا
وكنائس القديس مرقس كلها ... تبكى الذى وزن الرجال وقدرا
النيل يبكى من بنيه سيدا ... آثاره وخلاله لن تحصرا
أطفـالنا ونساؤنا ورجالنـا ... يبكون إحساناً وعطفاً أوفرا
يبكيه بطريق ومطران وقسـ ... ـيس وشعب قد غدا متحيرا
يبكيه أقباط وأحباش وقـد ... ذرفت دموع المسلمين تحسرا
تبكيه أمته الأسيفة كلها ... تبكى وفاء نادراً متعذرا
عم البكاء ذويه إذ فى غفوة ... قهروا فواروا فى التراب الجوهرا
الـكل يبكى قاضياً زان القضا ... يبكى الجميع العدل فيمن أدبرا
لـكنه شغفاً برؤية ربه ... حث المطى إلى العلاء مبكرا
فى مقدس الأبرار قام مسبحاً ... رب الملا مسترحماً مستغفرا
طوبى لقبر ضم جسم عميدنا ... قبر بدا بين القبور مصدرا
طوبى لفردوس النعيم فقد غدا ... بفضائل الضيف العظيم معطرا

— ٥ —

روفائيل نخله

١ — موعظة الأهرام

فيكنّ قد راعتنيَ الأجرامُ يا فخر وادى النيــل ، يا أهرامُ
لم ندر قبلك أن أكوام الصفا ترقَى إلى حيث استقر غمــامُ
لم ندر قبلك من رموس عواهل ستين عاما شادها الأقوام
آلاف آلاف بنوكِ وأحدوا أفنتهمُ الأتعاب و الأســقامُ
منكِ الرءوس على الصعيد منيفة حيث النسور بملـكهم قد حاموا
قرعتك أعصار فلم تلحق أذى بسواك جرّت ضمفه الأعوام
ما حط من عِظَم يزينك إنهـا ضربت، فغطى الأرض منكِ ركامُ
هو منكِ شبه قُطيرة من خِضرَم مهما اعتلت بإزائك الأكوامُ
قد عاصرتكِ من الصروح بدائع أخنى عليها الدهرُ فهى رَغامُ
وبقيتِ وحدكِ ، لا تمسّك عاهة كشهود عزٍّ إن يضع فحرامُ
حمل الزمان على جلالك فانثنى كالبحر يُدْحر موجُه المقدامُ
لا مجد فيكِ على وغاه حائل لا عز فيك على هواهُ يُضام
فكأنما الأعصار حولك جُندلتْ وبسرّ خلدكِ ما لهــا إلمام
قد حجك الأوفاد من أقصى رجا يحدو إليك ألوفهن هُيَــامُ
نظر الشعوب إلى جمالك خُشّعا من فرطه قد ريعت الأفهام
وقفوا حيارى والعيون روامق ولكِ الوقوف مهابة وســلام

مهما سمت قبل العيان ظنونهم ... فلدى جلائلكِ هانت الأوهامُ
أهرامَ وادى النيل أنتِ منابرٌ ... فى أوجها لُسْنُ العصور قيام
طفقت تعلمنا بدون تكلم ... نعم الخطابة ، فالزمان إمام
أتريد تمجيد الفراعنة الأُلى ... من أجلهم تلك التلول رجام
لا ، بل تعزّز عُجْبِ من قد شيدوا ... أعلى الُجثى كيلا يُذلّ حِمامُ
قسروا رعاياهم على تشييدها ... آلافَ آلافٍ ، وهم ظُلّامُ
فتراك يا رُجُم الملوكِ عظيمةً ... أما الملوك فمن يقول عِظامُ ؟
نزلوا إليك من العروش أذلّةً ... طُرِحوا بسجنك حيث ساد ظلام
لم يحمهم مأواك من دون البلى ... فتشوّهت منهم بكِ الأجسام
ودفنتِ جاهًا كان يملأ قطرهم ... ثم اضمحلّ كما يزول منام
واحتل ملكهم الأجانب بعدهم ... ساموا سلالة قومهم ما ساموا
لم تحتسب جثث العواهل حرمة ... فأذلها العلماء والحكام
قد أبرزوها فى المتاحف كى نرى ... كم بالعواهل تبعث الأيام
قوموا أياشرِ الطغاة ، بل انطقوا ... وليخزكم بسؤالنا الإفحام
ألذاك سخرتم ملايين الألى ... بذلوا الحياة وهم لكم خدام
ألذاك سقتم شعب موسى بالعصا ... حاديهم الإيعاد والإرغامُ
أزعمتم الأهرام حرزا شائقا ... فيه فخار طارفٍ ودوام ؟
أزعمتم الأهرام سكنى رفعة ... هيهات أن تتحق الأحلام
هزأت تصاريف الزمان بعزكم ... وبه استخف العُرْب والأعجام
بل قد نفوكم من معاقل عجبكم ... ليرى نهاكم [1] عِلْية وطغام

(١) نهاكم ؛ بكسر النون ؛ أى نهايتكم .

خابت أمانيكم وأخفق سعيكم إذ أن مجد الظالمين حطام[1]
وبقدر ما عظمت مراقد موتكم عظمت كذلك منكم الأجرام[2]
وبقدر ما عزّت مُنيتم ذلة سيديها أخلافكم ما داموا

٢ — غنى ، أيا أجراس فصح القاهرة

في يوم عيد الفصح تزهو القاهره من فيض أنوار الربيع الباهرهْ
بقيامة الفادى تكامل سعدها وبدت بشارات السرور النادرهْ
فسماؤها زرقاء صافية خلت من دكنة السحب العبوس الماطره
وبها على شجر الشوارع زهره يحبو المدينة بالحلىّ الفاخره
كل القلوب اليوم تخفق بهجة بألوف دور بنى المسيح العامره
ومئات أجراس الكنائس كلها غنت أغانى الحبور الجاهره
قام المسيح إلهُنا من مدفن ألقته فيه ذنوبنا المتكاثره
فأرى النصارى كلهم فى شخصه إن الصليب ينيل مجد الآخره
غنى ، أيا أجراس ، إن شقاءنا درب لأفراح السماء الطاهره
غنى ، يا أجراس ، أنت ألذ لى من أرخم الألحان رنّت ساحره
غنى لوالدتى نشيدا مطربا بجماله تنسى الكروب الحاضره
غنى لها فتخدرى آلامها كم ليلة غنت بقربى ساهره
غنى لها نغم الرجاء فإنها عطشت إليه فى البلايا الوافره
غنى لها فتذكريها سنة تجد السلام إذا وعتها الذاكره

---

(١) حطام الدنيا : خيراتها الزائلة .
(٢) الأجرام : الجرائم .

إن السعادة فى السماء ينالها | من راض فى حمل الصليب مرائره[1]
غنى غنا سلوى السجين لعله | أن الكروب وإن تمادت عابره
غنى أيا أجراس إن أميمتى | بليت بنوبات الأسى المتواتره
غنى أيا أجراس مصر، وأخمدى | بفؤادها نار الشجون الثائره
غنى أيا أجراس مصر فروحها | ظلت ببوتقة الشدائد صابره
غنى فإن العيش درب صليبها | من طوله باتت قواها خائره
غنى طويلا كى تجف دموعها | فى الوجنتين تسلسلت متناثره
فلتسكرن بخمر لحنك روحها | غنى أيا أجراس فصح القاهره

---

(١) مرائره : عزائمه

انتهى الكتاب

فى ص ٤٥ سطر ١٠ « وظهر مصطفى كامل » والصواب : مصطفى كمال

فهـــــرس

دار القومية العربية للطباعة
١٦ شارع النزهة (ميدان الجيش) بالقاهرة

